ابراهيم الكوني



رواية

الجزء الثاني



ابراهيم الكوني



رواية

الجزء الثاني





المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:

بيروت، ساقية الجنزير، بناية
برج الكارلتون، ص.ب ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي، هـ ٨٠٧٩٠٠/٨
تلكس، LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

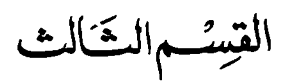
التوزيع في الأردن:

دار الفارس للنشر والتوزيع: عمّان
ص.ب: ٩١٥٧، هاتف: ٦٠٥٤٣٢، فاكس
٦٨٥٥٠١ - تلكس ٢١٤٩٧

الطبعة الأولى

١٩٩٥

إلى الوطن الأول :
الحمادة الحمراء .


القسم الثالث

٢٣- العَنْزُ

« بعيدٌ ما كان بعيداً ، والعميق العميقُ من يجده »

سفر الجامعة (٧: ٢٤)

* * *

« ... وهما خفيّتا الذّات ، وظاهرتا التأثيرات في الفلك ، فتدلاّ ، أن في العالم جواهر لطيفة خفيّات الذوات ، ظاهرات التأثيرات »

رسائل إخوان الصفاء

(١)

بعيداً ، بعيداً ، على امتداد الخلوة الرمادية الصارمة ، تدفّق الفيض بفتنة التّبر ، واستعادت اشجار الطّلح ظلالاً خسفتها الظهيرة ، فتمدّدت على الحضيض في قامات سخيّة كأنها أجرام المردة .

تكاثف القطيع والتحم في دائرة . ارتفعت ذيول الغبار وتصدّت للفيض السّخيّ، فازدهر نسيج الذّرات ، وتبدّى ، من خلال الضوء ، كغلالة فاتنة .

تلهّى بتبيّن شبح تبدّي في البعد وضيعاً مثل ذبابة . ولولم يعاند سلطان المسافة ، ويتنازعه التبدّي والاختباء ، لأيقن أنه ذبابة تتعلّق بغصن رتمة وتسبح في ضوء الغسق فتنتحل جسماً آخر لتنقلب فارساً مكابراً . ولكن المعزة لم تمهله.

اعتلت أكمة وضيعة وبدأت تثغو وتتلوّى . تزمّ جسمها ، تهتصر بطنها ، تدور حول نفسها كالممسوسة ، وتنتهك سكون الغروب بثغاء موجع .

اقترب من الاكمة.

جاهدت المعزة . مدّت رقبتها إلى الأمام . تشنّجت . أتّسع

منخراها. تلقفت الهواء بنهم فندّ عنها خوار . تألّق السّواد في حدقيتها بالوجع واليأس. ركعت بساقيها الاماميتين . في منخريها فزّ خيط من أخلاط اللّعاب . غمغمت بثغاء . لم يكن ثغاء . كان صوتاً موحشاً ، مبهماً . انهارتْ . هجعت على الجنب الأيمن . مدّت رقبتها صوب الفيض البعيد ، فتغسّلت المقلتان المبتلّتان بدفقة الفيض الغامض.

اعتلى الأكمة . شمّر عن ساعديه . تطلّع إلى الأفق . تحرّر الشبح من مملكة الخلاء وتبدّى مخلوقاً يسعى ، يتحرّك ، يعاند المسافة ليقترب ، ليدرك البُلغة ، ليحتمي من المتاهة بالمكان .

بدأت المعزة تنتفض . دفنت خطمها في التراب الطيني الأحمر وزفرت. زفرت بوحشيّة ، فتناثرت في الفضاء ذرّات الغبار . من مؤخرتها انبثقت دفقة من المخاط . زفرت زفرة أخرى . اعقبت الزفرة بحشرجة لم يسمعها قبل اليوم إلاّ من شاة تُنحر . في الخلف تبدّى البدن.

انحنى فوق البدن : أمسك بكلتا يديه . قرأ تعويذة قصيرة قبل أن يشدِّ . شدّه بحذر ، ولكنّ اصابعه انزلقت فأفلت البدن اللزج فسمع الأنثى تطلق أنيناً طويلاً موجعاً.

نفض يديه ليخلصهما من خيوط المخاط ، ولكن الأنثى انتفضت ، ثم همدت . رفع رأسها فرأى بياضاً يغزو مقلتيها . سبّ « وانتهيط »

بصوت مسموع ، ثم اقعى على الأرض . غسل يديه بالتراب الطيني ليزيل الاخلاط . ثبّت قدميه على فخذتي الانثى وشدّ الجسم اللزج بعنف . انزلق البدن وبدأ ينفصل عن بدن الأمّ . أغمض عينيه دون أن يتوقف عن سحب الجسم . تحرّر البدن أخيراً ، ولكنه استمرّ يغمض العينين وينتظر أن يسمع الإشارة .

انتظر طويلاً ، ولكن الإشارة لم تنطلق .

انقبض ويئس وفتح عينيه ليرى الجدي الميّت . تراجع إلى الوراء كأنّه يفرّ من وجه الحيّة . تلبّسته القشعريرة وخيّل له أنه سمع فحيحاً . فحيح الحيّة . رفع الوليد رأساً شقياً تتدلّى منه أذنان طويلتان ملوّثتان بالمخاط ، وفتح عيناً سوداء خفيّة .

كان جديا غريباً ، أبلق اللّون .

(٢)

تبدّدت الظلال ، ولكن الفراغ نضح بمسحة نالها من الفيض الزائل، وأخرى استعارها من لون الخلوة فتبدّى البرزخ شاحباً ، وديعاً ، خفياً ، يحاكي زرقة الفجر البتول .

اقترب الفارس .

هرع لملاقاته . قطع نصف المسافة عندما رآه يترجّل عن الدابّة

قاد الجمل واءه ومشى فوق عراء مفروش بحجارة رماديّة مسطّحة ، ملساء. وقف في وجه العابر ورفع ذراعيه العاريتين إلى أعلى بحركة بلهاء . قال: `

– المعزة الشقيّة أنتجت جديا غريباً يا مولاي ؟

– المعزة الشقيّة ؟

–توجّعت كثيراً وهي تنتج ولكنّها انتجت جديا غريباً يا مولاي . لم أرَ جدياً أبقع اللون قبل اليوم .

– هل قلت جدياً أبقع ؟

– نعم . إنهما فوق الأكمة . ظننته ميّتاً يا مولاي ، ولكنه رفع رأسه إليّ ، وحدّق في وجهي بعين .. بعين شقيّة يا مولاي !

– عين شقية ؟

– أجل . إنه أبقع يا مولاي . الجدي بلون أبقع !

في طرف الخلاء الشرقي مضى القطيع يتجمهر ويلتئم ويثير في الفضاء ذيول الغبار . انحرف العابر شمالاً ليجتاز طرف القطيع الذي تجمّع غرباً في بقعة دائرية هائلة. تطلّع الى امتداد الخلوة . بدأت المسافة تبتعد في الغيهب ، وتستسلم لسكون المساء ، فكانت دمدمة القطعان مُنكرة وموجعة ، لأنها مضت تنتهك حرماً نذر أرضه لتصير ساحة

يرتادها أهل الخفاء ، ووطناً يروق للرّؤى السماويّة أن تنزله لتتخاطب بلغة الوميض والانوار ، وتغنّي لحونها الليليّة بأصوات خفيّة لم تخلق لسمائها آذان الخلق .

شيّع ذراعيه إلى أعلى مرّة أخرى فسقطت على ثوبه قطعة من المخاط . هرول إلى الأمام حتى سبق العابر بخطوات . اشار بيده الملوثة بالطّين والمخاط إلى الأكمة . التفت إلى العابر وقال بنبرة أخرى :

– ولكنّي أخشى يا مولاي أننّا لن نتسلّى بالمعزة الشقيّة بعد اليوم..

تطلع اليه العابر . هشّ ذبابة وهميّة بمنسأته المغمورة بشعر ناصع وفير مستعار من ذيل الحصان . تساءل :

– هل تريد أن تقول أن الشقيّة نفقت ؟

–أخشى يا مولاي ..

– هل وضعت المدية في نحرها ؟

شيّع ذراعيه مرّة أخرى قبل أن يجيب :

– كنت أحاول أن أخفّف عنها يا مولاي . انشغلت يداي بالحمْل فزفرت زفير البعير . انظر إلى يديّ : بهاتين اليدين سحبت الجدي الأبقع من بطنها يا مولاي . نعم . الجدي ابقع !

حدجه العابر خلسة ثم ابتسم . قال :

- احسنت فعلاً . إنقاذ الجدي أجدى من نحر معزة يا جبارين .
لم أخطئ أبداً عندما دعوتك جبارين !

صفع الهواء بالمنسأة . تباطأ في مشيه. قدّم زمام الجمل لجبارين . تقدّم نحو الأكمة . قطع مسافة قصيرة . عاد على عقبيه فجاءة . تعلّق بالجمل . أخرج من السرج نعلين شاحبين . ابتسم مرّة أخرى قبل أن يقول:

- ياربّتنا « تانيت » ما أشرس حجارة هذه الخلوة !

ركع وأحكم رباط النعلين حول قدميه . انطلق نحو الأكمة ، في حين اخفى جبارين بطرف اللثام بسمة خبيثة .

(٣)

تسترّ الأفق بفراغ استعار لون الخلوة ، وبدأ الخلاء البعيد يبتعد ويتوارى . فوق الأكمة تمدّدت الشاة بعينين جاحظتين . ورغم استيلاء العتمة على الخلاء إلاّ أنّ الحدقة البارزة من المحجر تألّقت بذلك الوميض المبهم الذي رآه في عيون الاموات كثيراً . وميض لا يستعير قساوته من سلطان الفناء ، ولكن من برود اللامبالاة . انحنى يتحسّس الشاة فندّت

حركة عن جسم لزج مكوّم بالجوار . تقدّم خطوة فرأى مقلة خفيّة تلتمع في عتمة المساء .

شيّع المخلوق رقبة ملوّثة بالمخاط فترنّحت أذن طويلة موسومة ببقعة بيضاء . تفقّد البدن فوجد أن البقع الناصعة تنتشر على البدن كله : بقعة دائرية صغيرة فوق الرأس . بقعة مستطيلة في الجزء الأسفل من الأذن اليمنى . سيف من البياض على عرقوب الظهر . نقطة فاتنة على الذيل الطويل الذي لا يشبه ذيول كل ما عرفه من سلالات المعز. ووسم ناصع آخر يلتف حول الساق اليمنى كطوق حبكته يد حسناء .

أخذه بين ذراعيه فعربد وافلت . سقط على الأرض . حاول أن ينتصب على ساقيه فترنّح وسقط مرّة أخرى . انحنى فوقه وهمهم في أذنه الطويلة .

– يا شقي !

غمر يديه بالتراب ليغسلهما من المخاط . ثم أخرج من كمّه مدية مغمورة في غمد جلدي معتم .جرّدها من الغمد وتحسّس لسان النّصل بطرف الإبهام . رسم بها علامتين متقاطعتين فوق جسم الشاة ، فانطلقت الشفتان في تمتمة مبهمة .

نحر الرقعة الطينيّة المجاورة بنصل المدية . التفت نحو الكائن الأبلق فرآه يتابعه بمقلتين خفيّتين . هدّده بنصل المدية وهمس :

– يا شقي !

ثم انهمك يحفر الأرض مستعيناً بالمدية في إزاحة ألواح طينيّة بدأت تقسو وتتصلّب لتتحوّل ، بمشيئة الزمان ، صلصالاً وصلداً .

(٤)

انتهى من دفن الجسد .

رفع الى السماء رأساً ملفوفاً في عمامة منسوجة من قماش امتصّت منه شموس النهار بياضه فتبدّل وشحب وصار بلون التّراب .

تطلّع إلى نجم الجنوب الأخضر . كان يتألق وحيداً ، يغمز الفلك الأعلى بإيماءات فاتنة ، متتابعة ، خضراء ، كشرر المعادن في افران الحدّادين ، ولكن اللّون اللّعوب يتنقّل فيستعير زرقة خاطفة . زرقة تتبدّد وتختفي في طُرفة لتستعيد جوهرة السماء لونها الأخضر الذي لا يكف عن الغمز واللّعب والإيماء : غمز بدلال حسناء ، ولعب على طريقة الصبيان الاشقياء ، وإيماء كائنات وقفت على سرّ كل بعيد نأى عن كوكب الخلق ، واتخذ من ظلمات الخفاء وطناً خالداً .

كان وحيداً . ولكن الضوء اللّعوب ، الإيماء الأخضر ، الوقوف على سرّ الخفاء ، خفّف من تلك الصرامة ، من تلك القساوة ، من تلك

اللامبالاة النبيلة التي ميّزت الكائنات المعتزلة دائماً .

أصاب الوميض الأخضر مقلته اليمنى فاستجاب فيها البلل بألقٍ ظامئ ، كأنّ العين تلقّت من السماء بشارة . قرأ تعويذة قديمة . غسل مقلتيه بالفيض الأخضر طويلاً، طويلاً .

أخيراً تربّع فوق الأكمة .

من الشرق بدأت الظلمة تنسحب وتتخلّى وتفرّ . تلوّن القوس الممدّد ، المزموم ، المبهم ، بشحوب خفيف ، وتنازل للمجهول عن غيهب كان له سلطانا وسرّا . استعاد إكتئاب الخالدين ، واستعار لامبالاة المعتزلة، وتعرّى قليلاً ليكشف للسماوات بدناً عانى من قصاص جلاّد النّهار . استجابت الكواكب بالشّرر والإيماء ، ولعب نجم الجنوب باللّون الأخضر ، فتمخّض الفراغ عن القبس البتول .

الإله لا يظهر دون أن يبعث القبس رسولاً وعلامة .

فإله الضياء لا يصير للظلمة عدوّاً ، ولا يخرج من الأستار ليقف في وجه خصومه الذين تعشّقوا الصحراء مثله ، دون أن يسبقه القبس ويُلبس الدّنيا مسح الكآبة. كآبة غامضة هي سيماء كل اشتباك ، ولون خفيّ يستعير فتنته من انفصال الاشياء التي التحمت طويلاً .

مال نحو المخلوق الأبلق فانتفض الوليد وفزّ إلى الوراء . لاحقه بنصل المدية فاختطف اللسان الشرّة فيض النجم البعيد بنهم عابرٍ ظامئ

ضلّ السبيل إلى سلسبيل الماء . ترنّح الوليد في فراره إلى الوراء . فسقط. ولكنه اجتهد وانتصب ورمق اللسان بشقاوة وغموض .

مال نحوه حتى كاد انفه أن يلامس خطم الأبقع . همس :

– يا شقي !

هأ هأ بضحكة مكتومة ، مفاجئة . توقّف وتراجع إلى الوراء . اعتدل في حلسته ودسّ اللسان في الغمد المعتم ، الموْسُوم .

(٥)

الرّاعي لم يدرك لمسلكها سبباً .

وهو يعرف أن الرّاعي ليس ملزماً بإيجاد تفسير لمسلك الرؤوس التي اعتنقت الخروج وغرابة الاطوار ، ولكن علمه بأن المخلوق لا يولد شقياً أغضبه ودفعه لمساءلة جبارين عن الزمان ، وعن المكان .

في البدء جاهد الرّاعي بإخلاص . هرش منكبه الأيسر بالعصا وسكت طويلاً . ولكن المحاولة لم تكشف سرّاً ، فيئس الرّاعي وخاب . اعترف ، آخر الأمر ، انه لا يستطيع أن يتذكر لا متى ولا أين . يذكر أنه وجدها تناطح التيوس في مواسم السفّاد ، وتقود القطعان إلى شطآن الهاوية ، وتتسلّق سيقان الطّلح فتأكل على رؤوسها الفروة الخضراء ،

تطارد الجداء وتعضّهم بقساوة الذئاب ، وتزاحم بقية المعز عند النزول إلى مواقع الكلأ.

أثارته فتابعها . تابعها وتسلّى بمسلكها . ألهته عن الوحشة وضحك لشقاواتها كثيراً ، ولكنه لم يتساءل لا عن السبب ، ولا عن الزمان الاول الذي كشفت فيه المخلوقة الشقية عن معدنها ، لأنه لم يظنّ يوماً أن لقبائل الجنّ سلطاناً على سلالة المعز أيضاً .

أقبل عليه في يوم آخر . هرش منكبه الأيسر بكعب العصا وهو يتبسّم بغموض . استفهم بإيماء ة ، ولكن الرّاعي طأطأ ورسم علامة بنعله على الأرض . استدار إلى الوراء ليخفي البسمة أو ليكتم الضحكة . شدّ طرف اللّثام حول شفتيه جيّداً قبل أن يستدير . تكلّم أخيراً .

– الشقيّة !

تألقت المقلتان بضحكة . هرش المنكب الأيسر بكعب العصا . طأطأ . أزال الرّسم الأوّل على التّراب . وسم الأرض بعلامة أخرى . تابعه بفضول ثم ابتسم أيضاً . اخفى بسمته بلسانه قبل أن يتساءل :

– هل أصاب الشقيّة سوء ؟

مضى يوسم الأرض بالإشارات ، ولم يجب على السؤال إلاّ بعد صمت طويل:

– لا أدري . إنّها .. تتشكّى !

– تتشكّى ؟!

– لا تناطح التيوس ، ولا تطارد الجديان ، ولا تسير بالقطيع إلى حدود الهاوية .

– وهل ترى في التبدّل سوءاً ؟

مسح رموز التراب بجرّة قدم . هرش المنكب بكعب العصا . اختفت البسمة الخفية ، وزال الوميض اللعوب من المقلة . قال بلهجة أخرى :

– إنّها تصيح . تعتزل القطيع . تهيم في الخلاء ، ترفع رأسها نحو السماء ،و.. تصيح . تصيح بصوت ليس صوتها .

– ليس غريباً أن تصيح بصوت ليس صوتها ، فالجن الذي ركبها من أول يوم هو الذي يصيح في جوفها . ألم نتفق منذ البداية أنّها مسكونة بقبيلة من الجنّ؟

اخفى الرّاعي عينيه أرضاً . كانتا متجهمتان ، قلقتان ، شقيّتان ، كأنهما لم تعرفا ظلاً لبسمة ، ولم تجربا الشقاوة ، ولا الإغواء . كأنهما عينا مخلوق آخر. حرث الأرض برأس النّعل . قال بانفعال مفاجئ:

– أنت لم تسمعها . أنت لم ترها . إنها ..تختنق ..

ازدرد ريقه بمشقّة . أكمل :

- .. إنها مسكينة . إنها .. في بطنها بليّة !

- بليّة ؟!

- إنها .. لا ادري ماذا بها ، ولكنها .. شقيّة !

ابتسم . ابتسم لأن جبارين لم يجد إسماً لعلّه المعزة الشقيّة غير الإسم الذي كانا قد عرّفا به داءها القديم . ابتسم جبارين . استجاب بابتسامة ، لأنه فهم سرّ ابتسامة مولاه، ولكن ابتسامته كانت بائسة .

تابعه وهو يخفي ابتسامته بلثامه ويدوس على الرموز بقدمه اليمنى.

تابعه بفضول . رأى أن ينطلق فأنهى اللقاء فجأة :

- سوف نرى .

(٦)

التحق بالقطيع بعد أيام .

آل الربيع إلى الزوال فتوعّدت السماءُ الصحراء بالحريق . بلغ السهل مع الضُحى ، ولكن الخلاء لمع بألسنة السّراب مبكّراً . ادرك القطيع في مراع تشرف على هاوية تحرث اسافلها اخاديد عميقة ،

كئيبة، محفورة بينات أرض شقّت في القديم أنهاراً جفّت ولم يبق منها إلاّ الأثر ، ولكنها أبقت شعاباً صارت قنوات جسوره تغذّي وادي «تاناروت» بالسيول في المواسم التي تنعم فيها الحمادة بأمطار سخيّة .

في الأعالي تمدّدت سهول الحمادة ، تحرث امتدادها الصارم وديان صغيرة ، ضحلة ، تتلوّى هنا وهناك مسافة قصيرة ، ثم تضيق وتضيق حتى تختفي ، أو تتسطّح وتتسع وتتواصل في العراء الرمادي ، القاسي ، المغمور بسراب أبدي لا يعترف بالفصول ، لأن الرسول الخالد يصل الحدود في الصحراء كلّها ، فيدفع لسان الوادي ، إذا تعب واضمحلّ في مساحة العراء ، ويدمج المساحة التالية بأخرى أبعد لا يصير حتى الافق لها نهاية ، لأن السراب يمضي بها مسافة أخرى ، ولا يتوقف في مسيرته إلاّ بعد أن يلقي بالمساحة كلها في قوس سماء عارية لا مبالية ، زرقاء .

تكاثفت اشجار الرّتم في بطون الوديان ، وفي الاطراف انتصب الطّلح بقامات مكابرة ، يتباهى بعمامات خضراء ، عالية ، جاهدت بعض المعز في تسلّق السيقان للوصول إلى قممها . حول احراش الرّتم تحلّقت اغنام أخرى تلتهم الأعراف الوديعة المضفورة بالزهور الصغيرة البيضاء ، بنهم ، حتى إذا جاء الوقت ، وسرى فيها الخور ، جحظت بعيونها ، وتعثّرت ، وأصابها العجز والبله.

تابع معزة تترنّح وتسقط ، ثم تجاهد حتى تنهض مرّة أخرى ،

تبحلق حولها بدهشة ، ترقب الفراغ بعينين فارغتين ، وتمدّ رقبتها إلى الأمام لتثغو بصوت مبحوح ، غريب كأنها تختنق.

بحث عن الشقية في الوديان المجاورة .

فوق رابية وضيعة تلاعب السراب بشبح . يرتفع فوق هامة الفيض حيناً ، ثم يعود ويغرق حيناً آخر . عند حضيض الرابيةتكاثفت الانعام في قوس يطوّق المرتفع من الناحيتين الجنوبية والغربية ، يشطره الفيض اللعوب بألسنة زرقاء ، لجوجة ، فيرفع هامة رؤوس إلى أعلى حتى تكاد تجاور الشبح فوق الرابية ، ويخسف الأرض برؤوس أخرى ، فتختفي في حضيض المرتفع ويبتلعها الافق.

ابتعد .

مضى في الاتجاه المضادّ . نزل واديا نحيلاً خلا من الشّجر ، ولكن المجرى ، حيث سال الماء ، ضاق بنبت سخيّ ثريّ بزهور لا يعرف كيف نجت من استبداد الشمس . تذكّر السّحابة السخيّة التي فاجأته في رحلة إلى الواحات الغربية منذ ما يزيد عن الشهر ، فأيقن أن نعيم هذا الوادي الهزيل أُستنزل من فيض تلك السحابة العابرة . انحنى يختبر التّراب . نبش الارض عند نبتة فصيص فانكشف السّر . كان طيناً نديّا . ركع أرضاً وتابع الشريط الأخضر المرسوم على طول الخطّ المتعرّج بعلامات ذات جمال خفيّ، تتمايل عندما تتنفّس الصحراء

بالنسيم ، فتنحني رؤوس ، وترتفع رؤوس، تختفي ألوان وتتبدى ألوان، يشتدّ العبير السرّي ، فيتضاعف بهاء الكنز ، ويزداد غموضاً.

على بعد خطوتين من نبتة الفصيص كان ينتظره كنز آخر. تقلّعت التربة وانتصبت ألواح القُلاع كقلعة صغيرة من ابتداع الصبيان . تجزأ السطح وانشطر إلى ثلاث قطع متماثلة ، متساندة ، زحزحها سرّ فخرجت عن المدار ، ولكنها جاهدت لتستعيد الموقع وتحمي الجسم السفليّ المجهول . هرعت كائنات الليل إلى المكان ، حامت حول القلعة المكابرة طمعاً في الفوز بنصيب من الكنز . حرثت الحضيض وهي تسعى ، وحاولت أن تغزو الحصن في أكثر من موقع ، ولكن داهمها سلطان الضياء ، فتخفّت ليعقبها جند النهار . جاء الطّير ودسّ المنقار في خلل القُلاع . انتزع من الجسم السفليّ المجهول نصيباً ، فسكر بالشذّى ، وغيّبه عطر خفيّ. عرف بهجة التكوين ، وادرك سرّ الأبد رفرف بالبشارة عاليا ، وثرثر بلغة الطير . قرأ الخلق في مسلكه البله وسمّوه درويشاً يسكن الفضاء . لم يعرفوا البشارة ، لأنهم لم يفهموا لغة الطير، غشت أبصارهم ظُلمة ، وأصاب قلوبهم عماء النسيان ، في ذلك اليوم عندما غفلوا ، فأمتنع عنهم سرّ التّرفاس .

حفر طويلاً . تلذّذ بالحفر . أزال اضلاع القُلاع فتبدّت بيضاء ، مستديرة ، مغمورة بأخاديد غامضة ممتلئة بتراب طيني ، أحمر ، نديّ ، يفوح بِطَيِّب لم يعرفها إلا في طين الحمادة . تحسّسها بأصابعه ، احتوى

بدنها المستدير في راحة يده ، ولكنه لم ينتزعها . استمرّ يحفر حولها ، تحتها ، يزيل الطين محترساً أن يخدش الحسناء ، أن يجرح الحسناء ، أن يصيب الحسناء بأذى . تباطأ في عمله ، ولكن يده لم تتوقف . كأنّ لذّته ستبقى ما بقيت الحسناء لصيقة بالأرض ، كأنه يخشى أن تتبدّد متعته ما أن يهزّ رأس الحسناء المشدود إلى الأرض . لأنه عرف أيضاً أن الخيبة تنتظره هناك . ليس خيبة فحسب ، ولكنها مرارة . ليست مرارة . ولكنها يأس . فلذّة الكنز ليست في الحصول على الكنز ،ولكن في البحث عن الكنز . لذّة الحسناء ليست في نيل الحسناء، ولكن في طلب الحسناء . فالبُلغة يأس ، والطلب حياة .

انكبّ فوقها ، غمرها بلثامه . لامسها بانفه . لامسها في نفس النقطة التي اقتطع الطير منها نصيباً . لاقته بالعطيّة. رمت إليه بالسّر فسرى فيه الشّذى كترياق لداء مجهول ، لداء النسيان . النسيان قطعاً . همهم بلا وعي :« اعرف . اعرف . ولكن أين ؟ ولكن متى؟». سحب نفساً آخر . انهار بدنه كلّه بالجوار . تمرّغ في التّراب . حشرج بصوت مستعار :« اعرفْ. اعرف . ولكن أين؟ ولكن متى ؟ » . تمرّغ طويلاً . استنشق طويلاً . تساءل طويلاً . ولكن هل ينتظر جواباً من لم يتعلّم لغة الطير؟

عندما نهض كانت الترفاسة مبلّلة بالدموع .

(٧)

تطلّع إلى الشاة كأنه لا يراها . كانت تقف على صخرة رمادية صارمة تتسامح كلما امتدّت إلى الاسفل ، ولا يُرى لها حدّ لأنّها تلتئم بصلد الهاوية التي تزوّد وادي «تاناروت» بالسيول . ترنو إلى الحضيض البعيد في وجوم الودّان ، ترفع رأسها إلى أعلى ، تتطلع إلى السماء طويلاً ، ثم لا تلبث أن تهوى برأسها لتلاحق علامات حرثها الماء ملى الأرض ، فتبدّت ، عن بعد ، مثل الغضون في لحاء الطّلح . عيناها ضائعتان ، خطمها مفتوح يسيل منه لعاب ، منخراها أيضاً منفرجان ، وقد أتسعت فيهما الفتحتان، وفقدا حجمهما المعتاد . من الفتحتين نزّ سائل لزج ظلّ معلّقا في الفراغ . في مقلتيها يسطع الشعاع فتلتمع المقلتان المبتلّتان بألقٍ غامض ، شقيّ . تمدّ رقبتها إلى الامام ، تهصر بطنها كأنها تتوجّع . ندّت عنها حشرجة مبحوحة ، مختنقة كأنّها سعال شيخ معلول . تطلّع إليها طويلاً . ولكن الترفاسة التي رفعها إلى انفه طوال وقفته ، ألهته عن المعزة ، وشغلته عن القطيع ، وأنسته حدود المكان وقساوة الزمان . وحتى عندما ادركه الرّاعي ، وأبعد المعزة عن برزخ الهاوية ، لم يفق من غيبوبته ، ولم يردّ على جبارين ، لأنه لم يفهم بمَ تكلّم جبارين . سحب نفساً ، انفاساً ، من الكنز ، وتمتم : «أعرف . أعرف . ولكن متى ؟ ولكن أين ؟ ».

(٨)

حول موقد النّار ، في المساء ، تكلّم جبارين . تكلّم عن القطيع ، عن الجداء ، عن الشقيّة . ولكنه لم يسمع . ظلّ يتأمّل الجرم الابيض المستدير في ضوء النّار ، يتحسّس الخطوط المبهمة التي تشطر الجسم من الشعفة حتى القدم ، يزيل حبيبات تعلّقت بالتجاعيد ، ويرفع اللّقية إلى أنفه ليغزو بياض الاموات مقلتيه قبل أن يسبل جفنيه ، ويتمايل يميناً ويساراً انتشاء .

قبل أن يهجع للنوم غمغم :

– حكيم الحيوان سيتولّى الأمر .

استلقى بجوار النّار متشبّثاً بقطعة الكنز في قبضته اليمنى . تابعه جبارين . أغمد المسعر في جوف الموقد فتناثر الشرّر كنثار التّبر . تمتم:

– حكيم الحيوان ؟

أجاب بعد صمت طويل :

– ألم اسمعك تقول أن في بطنها بليّة ؟

– ولكن داء الشقيّة ..

– البلايا التي في البطون من شأن الحكيم ..

سكت طرُفة ثم استدرك في الحال :

—.. إلاّ إذا رأيت أن يد أهل الخفاء هي التي امتدت إليها .

هأهأ بشقاوة الصبيان . اسدل لثامة على عينيه وهجع بجوار الموقد.

ماتت ألسنة النّار . غزت قطع الجمر طبقة من رماد ، فدبّت العتمة. ابتهجت الانواء فتبادلت الإيماء الخفيّ. تابع الإشارات بلهفة عرّاف ينتظر نبوءة . حلّ فيه إكتئاب وامتلأت عيناه بدمع . نكس رأسه. التفت إلى الشيخ المكوّم بالجوار فرآه ، وهو يتوسّد ذراعه ، طفلاً وديعاً يمسك التمرة النّفيسة في القبضة اليمنى ، ويقترب بالكف إلى الأنف مسافة عقلة إصبع ، فلم يعرف لِمَ استعاد صورة رضيع يتشبّث بثدي الأمّ في نومه كأنه يخشى أن يفقدها إلى الأبد إذا تخلّى عن الثّدي.

(٩)

جاء الحكيم بعد يومين . يجلس خلف سنام ناقة كئيبة ضامرة، يحدّق في فراغ الخلاء بعينين فارغتين مستورتين ببياض شاحب . يلف بدنه الهزيل في عباءة صوفية برغم الحرّ. أناخ دابته في فم الوادي ووقف يتجسّس على السكون ويراقب امتداد العراء . تسترّت الشمس بسحابة عابرة وتنفّس الشمال بنسمة باردة . اجتاز العابر احراش . السّدر ، فنهض

وهرع لملاقاته . ضاقت المسافة ، فتوقّف الضيف اولاً . تكلّم جبارين :

- عرفت في القبيلة خلقاً كثيراً لهم شأن الأكابر ، ولكن السّعد لم يكن من نصيبي لأتعرّف إلى مولاي .

رأى في غشاء المقلتين عروقاً كخطوط السّحرة على رقع الجلود. من المقلة اليمنى فزّ سائل خفي يشبه عصارة الخنفساء . أحكم الزائر دثاره الصوفي حول صدره دون أن يكفّ عن متابعة الفراغ في الافق البعيد . أجاب أخيراً :

- عرفت أكابر قبيلة مولاك ، وغاب عنك أن في الصحراء قبائل بعدد حجارة الصحراء ، وفي القبائل أكابر يفوق عددهم عدد حبّات الرمل .

- فليغفر لي مولاي زلل اللسان ، ولكنّي لا اتحدّث عن الخلق الذي يعيش في الخفاء !

اطلق الزائر زفرة إستخفاف . ألقى بسؤال صارم:

- وهل في عبارتي إشارة إلى أهل الخفاء ؟

- فليغفر لي مولاي ، لقد خانتني فراستي . لا يؤآخذ راعٍ وحيد على زلل اللسان المسموم ، لأنه لم يعرف غير الدواب البُكْم ، حتى إذا التقى أحد العابرين الأكابر خاطبه بلسان الأيماء ، وحاوره بلغة التّورية .

زفر الزائر مرّة أخرى . ولكنها لم تكن زفرة استخفاف كالمرّة الاولى . كانت زفرة من سلالة أخرى .. زفرة من وطن الشّجن . تأوّه بوجع يعرفه كل من سمع لحناً مستعاراً من «واو» ، من الوطن المفقود . جحظت المقلتان ، وفزّت العروق الغامضة لتكتب نبوءة لن يعرف اللسان إليها سبيلاً :

– قل هذا لمن لا يعرف الرعيان يا ولدي . لا أريد أن أسيء بك الظنّ فأقول أنك تهزأ بي . فهل تظنني وُلدت حكيماً ؟ أم أنك تطعن في كفاءتي ؟ أم أنك تظن أن في قدرة الصحراويّ أن يكون حكيماً في داء الحيوان ، أو حكيماً في داء الخلق ، دون أن يرعى غنماً ؟

– لن اخفي امتناني إذ أسمع حكيماً يحسن الظنّ بالرعاة.

زفر الحكيم بإعياء ثم أمر بلهجة اخرى :

– وأنت تحسن فعلاً إذا أتيتني الآن بحسناء أوكل لي مولاك أمرها، وقطعت مسافة يوم وليلة علّي أفلح في كشف سرّ البلوى !

لمعت عينا جبارين بالسؤال أول الأمر ، ثم فهم الدعابة فابتسم وهرع إلى صخرة الهاوية .

(١٠)

نزل فم الوادي قبل ان يرجع جبارين من صخرة الهاوية .

ترك الجمل بجوار الناقة وصاح وهو يغيب في دغل السّدر :

– ظننتك ستنتظرني في وادي الجنّ . ألم نتفق أن تنتظرني ؟

لم يلتفت الحكيم . مضى يتفقّد الفراغ بحدقتيه الموسومتين بالرموز . اجاب في الحال :

– وهل يملك من كانت له النّاقة مدبّراً ودليلاً السلطان على نفسه؟ لقد سلمت لها أمري يوم عبس في وجهي الزمان ، وانطفأت الشمس لأجد نفسي في وادي الظلمات .

– ظننت أن عين الحكيم أقوى من عين العرّاف ، إيديد آنهي آينّن: « إيها نّي أمغار ينسان ، وريهنّي أبراض يوجّان » *.

– صدق « آنهي » لأنّه يومئ هنا للرؤية التي لها علاقة بخفايا الزمان ، ولكن ماذا يرى الزعيم الجليل إذا تعلّق الأمر بالبصر لا بالبصيرة؟

– لن يعدّم حكيم حيلة يسترجع بها البصر إذا اتفقنا أنه استطاع أن يحوّل جسده كلّه إلى عين كبيرة.

توجّع الحكيم بآهة شجن طويلة . تبدّلت الرموز في المقلتين ، ولمع فيهما ظلّ كآبة . قال :

* « .. لأنّ آنهي قال : يرى الحكيم هاجعاً ما لا يراه الغشيم واقفاً » . (تماهق) .

– نعم . تستطيع البصيرة أن تعيد لعين الحكيم بصراً مفقوداً إذا كان قد اختار التسليم ، ولم يعد ينتظر من الدّنيا غير النبوءة .

– وهل يتوقّع الحكيم أن ينال من الحياة شيئاً أنفس من النبوءة؟

– يؤسفني أن أخيّب ظنّ مولاي ، ولكن في الصحراء يوجد شئ انفس من النّبوءة بما لا يُقاس ، في الصحراء هناك : الصحراء !

– لم افهم ..

– لاتكون النّبوءة قبساً يضئ هذا المكان (وضرب صدره بقبضته مرّتين) إذا لم ير الرّائي قبساً يولد في قوس العراء . لا تكون النبوءة غاية العابرين إذا لم يتنعّم المهاجر بالافق ويغسل بالشعاع عينيه . لا تكون النبوءة نبوءة تليق بمن افنى الحياة بحثاً عن «واو» السّماء ، إذا لم يعرف المهاجر أن الضوء الخجول ، الضوء الشاحب ، الضوء الخفيّ ، الذي يجود به القبس هو السّر الذي قلب الفلك وبدّد الظلمات ، وأخرج لنا من مملكة الخفاء الصحراء . نعم . القبس الخجول أعطانا أنبل عطية ، أعطانا ، يا مولاي ، « واواً» فوق الأرض . فماذا فعلنا ؟ لقد دنسّنا العطيّة، وانكرناها ، وانطلقنا ، كأبله البلهاء ، نجري بحثاً عن « واو » أخرى في مكان آخر .

– هل تريد أن تقول أن « واواً » ليست شيئاً آخر غير هذه الرقعة الموجعة التي تستلقي امامنا كأنّها ألف صفعة ؟

- نعم . « واو » ليست شيئاً آخر غير هذه الرقعة النبيلة التي تستلقي امامنا كالحسناء!

- ها - ها .. يخيّل لي أن للحكمة أيضاً مزاج النساء . وها هو البرهان : لقد خانت الحكمة حكيماً . ألا يرى الحكيم أنّه قال قولاً مُنكراً ؟

- قولاً منكراً ؟ نعم . تستطيع أن ترميني بالبلة يا مولاي . تستطيع أن ترى في قولي أمراً مُنكراً ، لأنّك لم تفقد الصحراء يوماً . ومن لا يفقد الصحراء لن يعشقها أبداً . نعم . أنت لم تفقدها ، لم تُحرم من رؤية القبس البكر وهو يتمرّغ في أفق الفجر كما تتمرّغ الحيران ، ولم تُحرم من رؤية الخلاء وهو يولد : تتنحّي السماء عن بدن الصحراء بإعياء العُشّاق ، تبهت عناقيد الانواء وتبتعد ، يدرك النجم الأخضر خجل العذارى فيكفّ عن الإغواء والإيماء ، يستدير الافق ويتقوّس في وتر صارم ، مزموم . تنهض الجبال النائية وتلاحق السماء الهاربة مسافة بعيدة. تيأس من اللّحاق بالسماء فتتوقف وتعبس وتتطلّع إلى الكائنات بالوجوم والأكتئاب واللامبالاة . تتبدّى شعاف الطلح فيتململ الطير في الاعشاش الخفيّة ويتصنّت لأغنية السكون . يتقدّم القبس خطوة أخرى ويأتي إلى الصحراء أخيراً . يأتي بها من العدم ، ويطرحها في الفراغ الخالد الذي لم يعبأ بزمان ولا بمكان . فهل في « واو » الضائعة نعيمٌ ينافس هذا النعيم ؟

راقب الزعيم امتداد الخلاء . رفع عينيه إلى أعلى وحدّق في قرص الجلاّد حتى دمعت مقلتاه . زفر بإجهاد قبل أن يقول :

– لا يعشق الصحراء إلاّ من فقد الصحراء حقّاً . ولكن من أنا حتى أعطي لنفسي الحق إذ أجزم أن «واواً» هي « هنا » وليست «هناك»؟

– إذا لم تكن « واو» في الصحراء فأنا أتجاسر وأجاهر بالقول أنها ليست في أي مكان . من عرف الصحراء وفقد السبيل إلى الصحراء وحده يملك الحق في المجاهرة بهذه الدعوة .

– أمّا أنا الذي لم افقد الصحراء ، ولم أجرّب الإقامة في وادي الظلمات مثلك، فسوف تبقى « واوي » في مكان آخر . مكان هو أبعد من أرض الصحراء ، وأبعد من نجوم السماء . هذا يجعلني أرى في رأي الحكيم قولاً مُنكراً . مُنكراً جداً . سأكون مجاملاً إذا توقّعت منّي الموافقة !

تنفّس الحكيم بيأس . راقب الفراغ بنهم من فقد السبيل إلى الفراغ. أزدادت الرموز في عينيه توتّراً . قال أخيراً :

– تبقى لكل منّا « واوه » . والشقيّ هو من يركض في خلاء الصحراء ظنّاً منه أنه سيعثر على الواحة المفقودة حيث تركها الاسلاف الاوائل .

- حتى إذا لم اتفق مع الحكيم إلاّ أن هذا مكان ملائم كي نفترق. نفترق فراق المرء الحليم الذي يتجنّب الخصومة عندما لا يجد نفسه مضطراً لأن يتفق.

وقفا متجاورين، يتابعان ذيول السراب وهي تتلوّى وتتموّج وتقود إلى المدى. إستسلما للفراغ، وتنافسا في الإصغاء لنغم السكون. في عين الزعيم حلّ تسليم البلغة. وفي مقلة الحكيم تمادى نهم الطّلب.

(١١)

تحسّس بدن الشاة كلّه. تحسّسه شبراً شبراً. تحسّس الاعضاء والاوردة والعضلات والعروق. تحسّس مقلة الشاة بوجنته الرمادية الخشنة، وتذوّق لعاب المعزة في فمه وتركها تتنفّس في وجهه طويلاً. غمغم بأصوات مبهمة كثيراً، ثم قال أخيراً:

- لا. لا. هذا داء ليس من شأني.

غمغم مرّة أخرى، ثم اضاف:

- داء هذه الشاة ليس من شأن الحكيم. ليس من شأن حكيم الحيوان يقيناً.

رمق جبارين الزعيم بنظرة استفهام. تساءل الزعيم:

- هل قلت أن داء المعزة ليس من شأن الحكيم ؟

استمرّ يتفحّص الشاة بأصابعه النحيلة ،ويرقب المدى بعينيه المغمورتين برموز السحرة . لم يجب على السؤال فتساءل الزعيم :

- كيف يكون الدّاء في بطن الحيوان ولا يكون من شأن حكيم الحيوان ؟

- الحيوان مخلوق لا يختلف كثيراً عن الإنسان . ألا يصاب الانسان بداء يظن البلهاء أنه في البدن في حين يخفى أمره حتى عن العرّافين والسّحرة ؟

هأهأ الزعيم بضحكة . تسكّع في الوادي خطوات . سأل باستنكار:

- لا أظنّ أن الحكيم يريدني أن ألجأ للسحرة أو للعرّافين في مداواة شاة شقيّة !

تخلّى الحكيم عن الشاة . انتصب واقفاً . حدّق في الفراغ طويلاً . عاد من الخلاء بالنبوءة :

- عندما ينتهي دور الحكيم يبدأ دور السّاحر دائماً !

عاد الزعيم يتضاحك . مشى مسافة أخرى . شبك يديه وراء ظهره . عاد على عقبيه منكس الرأس . احكم لثامه حول انفه قبل أن

يتكلّم :

– من حقّك أن تسئ بي الظنّ لو ذهب بك عقلك إلى أن زعيم القبيلة بالجوار أرسل في طلب حكيم الحيوان ، وقطع به مسافة يوم وليلة ليقف على أمر شاة شقيّة خوفاً عليها من الهلاك وهو الذي يملك قطيعاً صار مضرب المثل في الحمادة الحمراء . نعم . من حقّك أن تلعنني في سرّك لو كان الأمر كذلك . ولكنّي على يقين أنك ادركت السبب دون حاجة منّي للتدخّل .

– اعرف ان خوف مولاي على القطيع وليس على الشاة.

– صدقت !

– أعرف أيضاً أن اصحاب القطعان يخشون الوباء أكثر مما يخشون بلاء الجرب.

– صدقت . صدقت . إضمن لي خلوّ المعزة من الوباء أجازيك جزاءاً حسناً جداًّ !

– استطيع أن أضمن خلوّ البدن ،ولكنني سأكذب إذا تجاوزت حدودي .

– حدودك ؟

– وسأدخل حداً يخضع لسلطان السّاحر !

– ماذا يقول الحكيم ؟

– فليغفر لي مولاي . ولكنّي أخشى الخطأ إذا دخلت أرضاً لا سلطان لي عليها . أخشى الخطأ أكثر مما تخشى أنت الوباء .

– ولكنيّ لم أطلب منك الشورى خارج أرضك . طلبت منك ان تصدقني القول : هل وجدت في بدن الشقية داء ؟

زفر الحكيم بيأس . ألقى بطرف عباءته على منكبه الأيمن . هرب إلى أبعد نقطة في الخلاء .قال :

– لا داء في البدن . كنُ على يقين . ولكن من منّا يعرف من أي أرض يأتي الوباء ؟

– الحقّ أني لا أفهم .

– هناك المكان الذي يبعث الفزع في كل مكان . هناك .. الخفاء!

– الخفاء ؟

– ألا يخشى مولاي الخفاء ؟

– ومن منّا لا يخشى الخفاء إذا كان المجهول قد جعله وطناً لخلق لا سلطان لنا عليهم ؟

- أرأيت ؟ ها نحن نتفق أخيراً . ها نحن نستطيع ان نتفق أخيراً . من هذا الوطن يأتي وباء يحير في أمره السحرة والعرافون فكيف بحكيم مسكين عبس في وجهه الزمان فوجد نفسه في وادي الظلمات وحيداً ؟

- انتظر . انتظر . لا تذهب بي بعيداً . فلنرجع لحكمة الصحراء التي علمتنا ألاّ نتوغل في الخلاء أكثر مما ينبغي ، لأن الإستسلام لاغواء السّفر هو الذي يقود المسافر إلى التيّه . تأكيدك بلخوّ الشاة من الوباء يكفيني . هذا نبأ كافٍ لأجزل لك العطاء وانحر قرباناً شكراً لـ«تانيت». ولا أظنّ أني في حاجة لطلب الساحر ، لأن في الذهاب بعيداً وراء الاشياء استفزاز للخفاء .

- كما تشاء . كما تشاء . ولكن الخفاء خفيّ يا مولاي. للخفاء طبع الحسناء التي تسعى وراءك لتنقم منك إذا تجاهلت حسنها ولم تلتفت إليها. ما أبشع الحسناء ! ما أفظع الخفاء !

أنهار ، على الأرض . بحث عن التراب بلهفة الظمآن . حَشَا يديه في كوم من حبّات الحصى . تمتم بفزع طفولي :

- أجرنا من شرّ الخفاء يا قبس النهار !

تابعه الزعيم بفضول . التفت إلى جبارين . مدّ جبارين يده اليمنى وبدأ يحكّ منكبه الأيسر . أخفى الزعيم عينيه بطرف لثامه العلوي

وابتسم خفية .

(١٢)

في الواحة المعلّقة على سفح الجبل النّحاسي أقبل عليه الساحر . أقبل في عتمة المغيب كما يليق بكل ساحر . لم يلق بتحيّة ، ولم يومئ بإشارة ، ولكنه وقف بعيداً عن مدخل الغار ، وصار يرمقه بمقلتين متقدتين بالحمرة والغموض والفضول . أومأ له أن يقترب فتقدّم خطوتين. رأى أن يتكلّم بمزاح :

– أنبأني الطير أن لمولاي عندي حاجة !

أبتسم الزعيم . مازحه بنفس اللّغة :

– ظننت أن الساحر هو آخر مخلوق يحتاج للغة الطير كي ينبئ الخلق بالنّبوءة.

– يخطئ مولاي إذ يحسن الظنّ كثيراً بالسّحرة . أنت تعلم أن الطير هو حجّة العرّافين عندما يعمّ البلبال ويختلف الحكماء في تأويل نبوءة .

– فلتبعد « تانيت » عن بالنا البلبال ، ولكن أنت لن تكون في حاجة للأستعانة بالطير أبداً فيما يتعلّق بأنباء الزمان .

– حسن ظنّ مولاي شارة مجد على صدري سأكون من

الجاحدين إذا لم أفاخر بها . ولكن من حقّ مولاي عليّ لا أبخل عليه بالنّصح أيضاً . لا تضع ثقتك في مخلوق حتى لو كان ساحراً .

– هل ترى أن احجب ثقتي عن المخلوق حتى لو كان ساحراً في حكمتك ؟

– إذا عبس الزمان ، وفسد الوقت ، تزعزعت اركان الحكمة ، وبطُل في الصحراء كل سحر .

ركع الزعيم ارضاً . رسم بسبابته رمز « تانيت » على التّراب . غمغم :

– فلتجرنا الرّبة من فساد الزمان ، ومن فرار الحكمة من العقول .

ركع الساحر أيضاً. دسّ يديه في التراب لإبعاد شبح الشّر . اقترب الزعيم . تقرفص بجوار الساحر . قال :

– أنا أعرف أن الهمهمات تعلو في السّر إذا خفى على أهل الفضول أمر .

– صدقت .

– هل قرأت السّر في همهمة العبيد أم في ثرثرة النساء ؟

– لم يخطئ مولاي . يروق لمملوكك الساحر أن يتصنّت في بعض الأحيان كما يتصنّت الدهماء !

– هل اطمع في أن أسمع منك الآن يقيناً ؟

– وهل كنت أجرؤ أن أقبل على مولاي دون استدعاء لو لم أحمل إليه يقيناً ؟

– تكلّم بالحقّ..

– هل يسمح مولاي أن اتكلّم بالحقّ حتى لو كان موجعاً ؟

– وهل سمعت الحقّ يوماً دون أن يكون موجعاً ؟

– تعجبني شجاعة مولاي . الشجاعة في ملاقاة الحقّ تاج العقلاء خاصة إذا ادركنا أن لا حيلة تنفع ولا دهاء يشفع إذا لاح المقدّر واطلّ في الأفق البلاء .

– البلاء ؟

– ألم يأذن لي مولاي ؟

كتم الزعيم زفرة ضيق . تعلّق بعيني الساحر . جاهد في قراءة النّبأ قبل أن يسبق الساحر ويعود من المجهول بالنبوءة . قال بخيبة :

– ظننت أنّك ستخبرني عن سرّ الشقيّة !

– لم أكن استطيع أن استطلع الغيب لو لم تهرع لنجدتي الشقية.

– الشقيّة ؟

– لن يكون ساحراً ولا عرّافاً من لم يتعلّم كيف يقرأ المجهول في العلامة .

زفر الزعيم مرّة أخرى . اوضح الجليس :

– العلامات لغتنا ، والمعزة ليست سوى علامة من علامات الخفاء.

– هل نزلت إلى المرعى ؟ هل أخذت الشقيّة بين يديك؟

– يسئ مولاي الظنّ بالسّحرة إذا رأى لزوماً أن يتفحّص الساحر الشاة بيديه حتى يفهم إشارة القدر .

– حكيم الحيوان أومأ لداء خفيّ ، ولكن اعترف أنّي لم أذهب بعيداً .

–لحكماء الحيوان بصر يفوق أبصار رجال الاستطلاع صفاء إذا تعلّق الأمر بأبدان الانعام .

– وماذا ترى لدفع البلاء ؟

– لن اخالف ناموس الاسلاف في معالجة البلاء ، لأنّي لا أظنّ أنهم خالفوا الحكمة عندما ابتدعوا القرابين !

– القرابين ؟

– نعم . على مولاي أن يبدأ في نحر القرابين منذ الغدّ . على

مولاي ألاّ يتوقف عن النحر . لا بد أن يسيّل دماً غزيراً . على مولاي أن يكون سخياً في نحر الماشية ، لأن الآلهة عندما تبعث بالبلاء إنما تمتحن فينا السّخاء .

زفر الزعيم انفاساً نفشت طرف اللثام . انحنى نحو الساحر حتى كاد أن يصدمه برأسه . قال بصوت مخنوق :

– كم شاة تريدني أن أنحر ؟ أم ...

– ستنحر ماشية كثيرة . ستنحر حتى نتلقّى علامة تنبئنا بامتنان المجهول .

– ولكن ماذا نفعل إذا لم نتلقّ من المجهول إشارة أبداً ؟

– لن يكون أمامنا عندها إلاّ أن ننحر . سننحر حتى يبيد القطع .

سكت الساحر . سكت الزعيم ، تنصتا لانفاسهما في العتمة . قال الزعيم :

– هل تريدني أن افني قطيعاً انفقت في تربيته السنين ، ودفعت لنيله الحياة ؟

– وهل يطلب منّا المجهول شيئاً غير الحياة عندما يلقي إلينا بالبلاء؟

– تريدني أن اقدّم القطيع قرباناً ..

قاطعه الساحر :

– القطيع هو أهون قربان عندما تريدنا الاقدار أن نشتري منها الحياة .

هبّ الزعيم واقفاً :

–ولكن انتظر . انتظر . هل رأيت شبح العدوّ ؟ هل أبصرت في النبوءة جدباً ؟

تكلّم الساحر بنبرة أخرى . نبرة السّحرة عندما يعيدون قراءة النبوءة في ظلمات المجهول :

– ليت المجهول ينبئ السحرة بالسّر كما يأتي بالخبر الرُّسل . ليت لغة القدر تتنزّل بوضوح كما تتنزّل لغة البشر . ولكن العقل هو الذي يقول أن على الخلق أن يستهينوا بقرابين الدّنيا إذا شاءوا أن يشتروا الحياة من القدر .

(١٣)

هل هو داهية؟ هل جاء مسخّراً من حسّاد القبيلة ، أم مسلّطا من خصوم القبائل المجاورة ؟ هل أتى مدفوعاً بنبوءة حقيقية ، أم أن السّر في القرم والحنين إلى اللّحم ؟ . منذ أعوام ، عندما كان يلاحق جملاً تائها في الوديان السفلية ، قابل نبيلاً عابراً قال أنه لينتمي إلى قبائل « ايفوغاس»

خرج محملاً برقعة من الزعيم ليضعها بين يدي كاهن وحيد يعيش متنقّلاً في كهوف الجبال الزّرق . نزل عليه مع حلول الغسق ، واعدّ له خبز الملّة ، وجلسا حول النّار طويلاً . ولكن الضيف لم يحدّثه إلاّ في آخر الليل . قال أن قبيلتهم أبتليت بعرّاف نهم ومشئوم أباد قطعان القبيلة. ورغم أن القبيلة شهدت له بالكفاءة ، واعترف له كل من لجأ إليه بصدق النّبأ ، ووضوح الرؤيا ، إلا أن طريقته في طلب النّبوءة ما لبثت أن أثارت الاستياء ، لأنّ العرّاف لا يتقن التنّبوء إلا في عظام الأنعام مدعياً أن أي نبأ لم يقرأ في عظام الاضاحي هو نبأ كاذب ، وانهمك في مراهنات مثيرة مع السحرة والعرافين المرافقين للقوافل والهواة وبعض الكذبة العابرين كي يقدّم البرهان على أصالة طريقته . فكان يكسب الرهان كل مرّة . والحقّ أن القبيلة لم تكن في حاجة لمراهناته مع خصومه ، لأنها جرّبت أنه لم يكذب في نبأ واحد من انباء قرأها في عظمة قربان . فما أن يشتدّ به القرم حتى يهرع لأكثر اصحاب المواشي جوداً . يجالسه ويحاججه ويجادله . لا يحاجج ولا يجادل قبل أن يروي أخباراً ذات دلالة في سير الاوّلين . وأخبار الاوّلين تقود دائماً إلى تقلّب مزاج الزمان ونوايا الحدثان . نوايا تسئ دائماً وتجلب البلاء إذا وجدت أرضاً غفل فيها الخلق عن نحر القربان . وإذا أفلح في الوصول إلى القربان فإن لسانه سوف يحلو ، وحديثه سيطول ، والمِدْية ستنزل في نحر الشاة بلا ريب لأن أهل القبيلة جرّبوا أنه إذا تحدّث عن القربان فإن الأمر سينتهي كما أمر لأن القول إذا بلغ هذا الحرم صار شجياً مثل الاشعار ، مثل أغاني الاشجان .

وكانت الانعام تنحر دائماً ، وكان يجرّد العظام من اللحم بأسنانه، ويكدسها بجواره حتى ينتهي من الوليمة . يبدأ القراءة . يسلّط الشمس على الالواح العارية ، أو يشيّعها أمام وجهه في ضوء النّار ، وقد يستغني عن شعاع الشمس واضواء النّار ليكتفي بضياء البدر . وكان يصيب دائماً ،ولم يخطئ مرّة واحدة . لم يخطئ حتى عندما شاخ ونال من بدنه خصمه القديم :الزمان! لم يخطئ ، لأنّه نحر عنزة كان يتعيّش على حليبها في السنوات الأخيرة . أكل اللحم ورأى يوم الميعاد في عظمة الكتف . ابتسم بشجاعة وأعاد القراءة ثلاث مرّات . القى العظم في النار وارتدى افخر ثيابه . أقبل على الزعيم وقال له أن وقت السّفر قد خان وهو قد تأهب كي يلبّي النداء . سخر منه الزعيم ، وتندّر به مجلس الحكماء . ولكنه ذهب إلى العراء ، والتحق بقافلة عابرة في طريقها إلى الجنوب . سقط من الجمل أثناء الرحلة . سقط ثلاث مرّات فاضطّر ربّ القافلة أن يحتكم لشريعة الاسلاف . أقام حصناً من الحجارة . أمر رجاله فالقوا العرّاف في الضّريح . وقف فوق رأسه وقرأ النبوءة المستعارة من « آنهي » ، الوصيّة التي كُتب على كل من هزمه الزمان ، وخانه البدن ، أن يسمعها كنبوءة إلهيّة أخيرة : «وجّغ تمّضريت آجّيد آتدولد ، وجّغ تورنا آجّيد آتّزيد » * ولكنه قبل أن يمضي في رحلته ترك وصيّة للزعيم . قيل أنه حذّر الزعيم من حكيم الاغراب، وقال أنه

---

* «لست صغيراً حتى ننتظرك لتكبر ، لست مريضاً حتى نتوقّع شفاءك».

تلقّى خبراً مرسوماً على عظمة الكتف يقول أنّ يومه سيحلّ ، وسينادي النذير بميعاده يوم يسمح بدخول الحكيم الخفّي إلى منتجع القبيلة .

افترق مع النبيل في اليوم التالي ، ولكن خبر مصرع الزعيم ذكّره بالعابر مرّة أخرى . قيل أن الرّسل افلحوا في العثور على الكاهن المعتزل ، واقنعوه بعد جدال طويل بتلبية دعوة الزعيم . دخل المنتجع فتحلّق حوله مجلس الحكماء . قرأ أول نبوءة في تلك الجلسة . رسم خطوطه الغامضة على الأرض فظنّه المجمع يتسلّى كما تعودوا أن يتسلّوا جميعاً . ولكن الكاهن الغامض فزّ واقفاً وانطلق يركض في العراء . لاحقه بعض الرجال ، ولكنه ابتعد وغاب في الظلمة . في الصباح وجد العبيد زعيم القبيلة ميّتاً في فراشه .

استعادت القبيلة ذكرى ساحرها الزائل ، وايقنت أن النّبوءة التي قرأها في عظمة الكتف قبل أن يرحل صدقت بعد أن قدّم عظامه قرباناً لتصير طعاماً للتّراب .

(١٤)

آلمه الساحر كثيراً . بل حيّره أكثر مما آلمه . فهل جاء يخبّئ أمراً ، أم تعمّد أن يتغافل عن حقيقة القطيع ؟ هل نسى الطريقة ؟ هل غاب عنه خبره مع « وانتهيط » عندما رفض أن يلبيّ النّداء ويرافق القوافل لنيل التّبر ؟ هل تناسى محاججته لسلطان الخفاء عندما رفض التحالف لغزو

زعيم آزجر مقابل كراء سخيّ لم يقاوم إغواءه مخلوق صحراوي قبله ؟ ألم يعلم هذا اللئيم زهده القديم في تنظيم الحملات على قبائل الشمال بجلب الغنائم والفوز بالسبايا ؟ ألم يرث عن سلفه صيت الطريقة ، طريقة كسب رددتها القبائل ، وتناقل خبرها الرعيان والمعتزلة وأهل الأدغال ؟

ولكن بشارة راعي الحقّ كذّبت نبوءة اللئيم بعد المجادلة بيومين .

ترك القطيع في عهده رعاة من قبيلة مجاورة ، وصعد ، في الطريق إليه ، سفح الجبل . وقف فوق رأسه وشرع يتسم . يتسم بعينيه الخبيثتين كعادته عندما يخفي أمراً . أذِنَ له بإشارة فهرش منكبه الأيسر بعصاته قبل أن يتكلّم :

– هئ هئ .. ظننا أن في بطن الشقيّة بليّة ، ولكني عرفت السّر . هئ هئ .. لقد نسينا يا مولاي أن على العنز أن تعرف تيساً !

ستر فمه بطرف اللثام السفلي . اختفت بسمة الخبث من عينه . أكمل :

– كانت شقية حقّاً ، تنطح المعز ، تقود إلى الهاوية ، وتفرّ من التيوس . ولكني عرفت اليوم أنها نتوج يا مولاي . هئ هئ .. شاتنا الشقيّة نتوج ككل شاة ! هئ هئ ..

هنأه بابتسامة . وكافأه بحفنة من التمر .

عاد الرّاعي إلى المرعى ، فوقف يتابعه بعض الوقت . ثم تحرّك ومشى وراءه . لم يلتفت الرّاعي، ولم يستوقفه بنداء . تضيق بينهما المسافة حيناً ، ويتمدّد العراء وتتسع بينهما المسافة حيناً آخر . احترق الشعاع في الشمس واستدار الكوكب في دائرة كبيرة قانية اللّون . اقبلت من الشمال غيمة هزيلة ، مشتتّة ، شفّافة وفارغة، بدأت تتسكّع في الأفق ، وتحوم حول القرص المطفأ ، المحتقن بالدّماء .

أسرع الرّاعي . تباعدت خطواته فتمدّد بينهما العراء . إبتعد. اعتلى رابية « إيفف إن – تكليت» * . هرول أيضاً . بلغ الرابية . صعد السفح . ادرك الشعفة فارتمى أمامه الخلاء ؛ صارماً ، لامباليا ، مفروشاً بحجارة رمادية مسطحة ، فوقه يتدلّى فضاء مشوّش بغيهب نهار يحتضر ومساء يتسلّم زمام الأمر ليمتلك الصحراء . ولكن الرّاعي اختفى .

جلس فوق الرابية . تابع الامتداد المسالم ، القاسي ، الحزين . تمتم بدعاء ليبارك خطوات الرّاعي ، واستعاد سيرة الناموس بأركانه الثلاث .

(١٥)

هل يفلح الحال ، او يستقيم الناموس لو ارتكب أحد الاطراف خطأ في شأن مثلّث الاركان ؟

---

* « أيفف إن تكليت » : ثدي الأمَة . (تماهق) .

عندما رمت به المسافة إلى الديار عاريا من الظّل ، مجرّداً من الإسم ، متخذاً من التّيه قريناً ، ظنّه لعنة من لعنات القدر ، ومكيدة من تدبير « وانتهيط» . حبسه في داموس السّلف ليلفّق له من الظلمة ظلاً ، وصرخ في أذنه بإسم جديد ليعيد له الحياة الضائعة ، ودّبر له من التمائم حصناً يحتمي به من مكائد القرين .

ولكن ناموس « وانتهيط » غلب ، وثبّت له الزمان الحجّة القاسية التي تقول أن الشّر والخير قرينان لا يهنأ لهما حال إذا لم يتبادلا المواقع، فصارت الّلعنة بشارة ، وتحوّلت المكيدة الشريرة نعمةً خفيّة وجدت لها سبيلاً إلى الانعام ، فنتجت مِثْنىَ ومِثْلَث، وتكاثرت كما يتكاثر الترفاس في المواسم التي تجود فيها سماء الحمادة بأمطار سخيّة.

قبل ان يدخله جبارين كان القطيع رؤوساً قليلة العدد ، هزيلة البدن ، شقيّة الطّباع ، تسكن بطونها علل مجهولة ، فلاتنتج إلاّ مرّة كل حولين أو أكثر . بدّل الرّعاة . استعان بحكماء الحيوان ، قاد إليه السّحرة، واستعار من القبائل المجاورة تيوساً أصيلة ، ولكن المعزات لم تعلق ، والعقم ما لبث أن استفحل . بحث عن السّر في كل مكان ، وحرق فوق رؤوس الماشية تمائم السّوء . جرّب كل ترياق ، ولكن القطيع لم يتضاعف بل تناقص وبدأت الرؤوس تهزل وتنفق متأثّرة بعلل مجهولة حار في أمرها السّحرة ، ولم يجد لها حكماء الحيوان سبباً .

خرج مخلوق الأغراب بالقطيع إلى المرعى فانقلب الحال ،

وتبدّلت العلامة .

يعترف أن امطاراً سخيّة هطلت في ذلك العام ، ولكن المطر لم يكن سراً ، لأنه لم ينقطع من الحمادة طوال الأعوام التي عانت فيها الماشية من عللها المجهولة . نتجت الإناث دون أن يستعير جبارين تيساً واحداً من تيوس الأغراب ، ووضعت احمال الجداء ازواجاً واثلاثاً ، فنافس الجداء في اللبّأ ، وتنعّم بمرأى الصغار الاشقياء وهم يتقافزون في المراعي ، ويملأون السهول ثغاء .

يقبل عليه الرّاعي بوعاء عهد بينهما. يقبل عليه ليكون أوّل من يستطعم اللّبأ كما يليق بكل مسترع ، فيتوعّده بسبابته مداعباً : « انت ساحر . لن ادفع لك الكراء ما لم تخبرني ماذا فعلت بالعنزات حتى عشنا وشهدنا لهنّ نتاجاً بهذا السّخاء . لقد فعلت بهنّ ما لم يفعله الساحر ! » . لماذا لا يعترف ؟ لماذا لا يستعيد سيرة الحقّ فيعترف أنه أرسل وراءه الجواسيس بدل أن يدفع له الكراء ؟ استجاب لنمائم الحُساد فطلب من الرُّسل أن يأتوه بالخبر . ارتدوا مسوح العابرين ونزلوا على الرّاعي ضيوفاً . نزلوا في أمد طويل ، في آجال متباعدة ، بدأت في العام الذي تلا البشارة ، ولم تنته إلاّ بعد أن ضاق بفعله القرين فتململ وأقبل عليه مهدداً : « ألا تستحي ؟ ألا تستحي؟ ألا تستحي؟ » خرج له ثلاث ليالٍ متوالية . وكان يشهر في وجهه سبابته الزرقاء ويتوعّده ثلاثاً : « ألا تستحي ؟ ألا تستحي ؟ ألا تستحي ؟ » . في الليلة الأولى لم يفهم .

طوّق رأسه بيديه وحاول أن يجد تفسيراً للنبوءة . في زيارة الليلة الثانية استلهم من سير الاسلاف أمراً فأدرك أن القرين لن يتوقف عن الوعيد ما لم يدرك الإشارة . لم ينم . اجتهد طوال الليل . ولكنه لم يجد مفتاحاً للطلسم المبهم ، والإلهام لم يتنزّل . بدأ يغفو فأيقظه للمرّة الثالثة . القى في وجهه بالسبابة كأنها مدية وهدده بالسؤال . استوقفه بتعويذة ، ولكنه بدأ يبتعد ويتلاشى . قفز وجرى وراءه . ولكنه دخل في الظلمة وفقد له الأثر . عاد إلى فراشه يائساً . أتّكأ على جدار الدّاموس ورأى السماء صافية ، عالية ، زرقاء ، لا مبالية ، معلّقة فوق فراغ من الظلمة . طبقات من الظلمة أشدّ قتامة من كتل السحاب الكثيف في ليالي الشتاء. من الظلمة تبدّى شبح . بدأ يقترب ببطء . اقترب .اقترب . كان شيخاً طاعناً ، بشرته كلحاء الطلح ، ولا يستر ساعده النحيل سوى شبكة كثيفة من العروق النافرة . أومأ له أن يتبعه فنهض وسعى خلفه . دخل به دهليز الظّلمة وسار وراءه طويلاً . قطعا مسافة طويلة قبل أن ينتهي دهليز الظلمة ويتبدّى في نهايته قبس بعيد . أشار العجوز إلى القبس ثم أبتسم . فهم الإشارة فتقدّم من موقع القبس . هناك رأى شبحاً يقتعد الارض . تقدّم ليتبيّن الشبح فوجد جبارين يفرّك يديه ويتدفّأ حول نار . التفت إلى العجوز فوجده يتراجع في يمّ الظلمات . هرع إليه ، ولكنه تقهقر بخطو أسرع ، توقف وتابعه وهو يتلاشى ويتشتّت اسمالاً في ذيول العتمة.

قدح المجهول زنده ، فانبثق شرر الإلهام .

في الضحى سرّج الجمل وسافر إلى السهول .

نزل المراعي بعد المغيب . وجد جبارين يفرّك يديه فوق ألسنة النّار ويتدفأ . كأنّه لم يتحرّك من جلسة البارحة ، ولم يترك موقع اللّقاء عند حافة القبس .

بعد العشاء بدأ . داعب ألسنة النّار بيديه وبدأ :

– ألن تصير شقياً إذا سمعت منّي أمراً ؟

استفهم الرّاعي بايماءة خجولة ،ولكنه لم يجب . أطبق قبضته على لسان ناري شره فلسع اللسان راحته . أبعد يده . دسّها تحت إبطه وبدأ من جديد:

– في السنوات الماضية أرسلت وراءك رُسلاً .

ابتسم جبارين بعينيه والقى في النار بعود طلح . توجّع العود في النّار وتشكّى . بعد قليل نزّ بسائل لزج ، متخثّر ، قاني اللّون ، كأنه خيط من دمّ . لمعت مقلة الرّاعي بوميض كئيب ، ولكنه لم يستفهم ، فانطلق من جديد :

– استمعت لهمس الدهماء ، وتصنّت لوساوس الحُسّاد وأهل الفتنة فأردت أن استطلع . أرسلت لك الجواسس في ثياب العابرين

والمعتزلة .

– لا يعيب صاحب القطيع أن يستطلع حال القطيع .

– ولكن يعيب صاحب القطيع أن يستسلم للقول الجهل ويشك في أمر راعٍ كان له فالاً حسناً .

– عرفت اصحاب قطعان يرجمون الرعاة بالحجارة ويلاحقونهم بالعصا ، ويشتمون لهم الآباء والأمهات .

– يجيز الناموس للمسترعي الملاحقة بالعصا عند غضبة ، ورمية حجر إذا أضرّ الرّاعي بنسلٍ ، أو أنهك الماشية حلباً ، او تكاسل عن ردّ شاة ضالة فانفردت بها الذئاب ، ولكنك لم تنحر الجداء ، ولم تستأثر باللّبأ ، ولم تتكاسل عن ملاحقة الرؤوس الشقيّة وردّها إلى القطيع ، فكيف أبيح لنفسي الشكّ في أمرك لو لم أدع أهل الكيد يوسوسون لي بالكذب ؟

– يكفيني أنّك لم تذكر أبي بشرّ ، ولم تلاحقني بالعصا ولا بالحجارة ، واطعمتني من جوع ، وهيأت لي موقعاً من النّار ، وموضعاً من وعاء الطعام .

مال إليه برأسه . لامسه بأنفه . قال في اذنه :

– اصدقني القول : هل ادركت السرّ ؟ هل شككت في أمر

الرّسل ؟

هزّ جبارين رأسه نفياً فتنحّى الزعيم . غمغم .

- أحسنت !

تلقّف لسان النّار بقبضة خاطفة من اليمين ، ثم اطعم اللسان راحة اليد اليسرى. تطلّع إلى الظلمات ، ثم شيّع رأسه إلى السماء ليتأمل الأنواء . قال :

- لن يخلو بال الرّاعي من البلبال إذا لم يحسن ظنّاً بمولاه.

تمادى السكون كما تمادت في العراء الظلمات . امتنعت الدواب عن الاجترار ، فرّ طير الليل إلى مكان مجهول ، ولاذت الفئران بالجحور هرباً من الحيّات . واختفت الحيّات فزعاً من فناء استبدّ بالصحراء ، فتنادت الأنواء بعيداً ، وتكلّمت ، وحدها ، بالأنباء .

دسّ رأسه في زحمة الوميض وأقترب من ميعاد « أشيّت آهظ» * تصنّت للرطانة الخرساء طويلاً ، ثم عاد من هناك بالحنين . هاجم النّار بالمسعر فانهارت العيدان ، وتأجّج الجمر . اختلس نحو الجليس نظرة ، ثم ابتسم :

- اعترف انك لم تسرّ قلبي وحده ،ولكنّك أضحكتني أيضاً .

---

* الثريا .

فأنت لم تدر أي رسول نزل عليك ضيفاً في المرّة الأولى . هئ هئ .. لقد تعمّدت أن أبعث إليك برجل أكول مصاب بداء القرم . يشم رائحة الذبيحة من مسافة ثلاثة أيام ، ولا ينام حتى يدرك المكان وينزل النّجع . فماذا فعلت به ؟ ها - ها - ها .. لقد جائني بعد يومين غاضباً . قال أنك استضفته بالحليب والتّمر ، وعندما حلّ ميعاد العشاء أخرجت له قطعة خبز تفوق الصّلد قساوة . اشتكى من طول الليالي في الشتاء ملمّحاً إلى حاجته إلى اللّحم ، فأجبته بأن الاوّلين كانوا حكماء عندما ابتدعوا «إيميّآن» * وقهروا بالسير أكثر ليالي الشتاء طولاً . هئ - هئ .. قال أنه ادرك أنّك راع من فئة البلداء ، ولن ينفع مع اصحاب هذه الفئة إلاّ الاعتراف . قال لك أنه مريض بالقرم ، وسوف لن يستطيع أن ينهض غداً إذا لم يتعشَ لحماً . فماذا فعلت ؟ ذهبت إلى الطّلحة ، وعدت من المتاع بلحم ضبّ مجفّف وضعته في القدر وجلست تطبخه طوال الليل ، ولم يتناول العشاء إلاّ بعد طلوع الفجر ، فصار لحم الضّب الكريه هو العشاء وهو الإفطار . ها - ها - ها. لقد أقسم لي أنّه سوف يهجوك . قال أنه لم يجرّب الشعر يوماً ، ولم يظن أن في نيّة الزمان أن يقلبه شاعراً يرمي النّاس بـ« تير جّام »** ولكنه سيجرّب الاشعار أخيراً ، فإن لم ينل من ورائها مجداً ، فإنه سيضمن بها الولائم ، ولن يجرؤ الرعاة أن يسخروا منه فيستضيفوه بلحوم الضّباب لتكون له عشاء

---

* إيميّان : الأساطير .

** تيرجّام : الهجاء .

وإفطاراً . هئ–هئ – هئ .. كاد النّهم أن يميتني ضحكاً !

ثنى ركبتيه . شيّعهما حتى لامستا صدره . احتواهما بذراعيه . تمايل إلى الأمام ، ثم إلى الوراء . قفز إلى السيرة التالية :

– ولكن ما فعلته بالمعتزل المسكين كان أسوأ !

كتم ضحكة ورمق الرّاعي خفية . مدّ جبارين يده اليمنى حتى استقرت على المنكب الأيسر . تنفّس الخلاء صقيعاً فزحف نحو الموقد شبراً . انكب فوق النّار دون أن تتخلّى يده اليمنى عن منكبه الأيسر .

ألقى للنّار حطباً بمساعدة يده اليسرى ، فولول عود أخضر وفزّ منه نزيف . تحدّث الزعيم :

– قال أنه لم يذق لحم مخلوق حيّ ، وعندما استضفته بمسحوق الجراد ظنّه سويق نبق مخلوط بدقيق الشعير . أنت تعرف أن السحرة أنفسهم يعجزون عن ايجاد الفرق بين سويق الجراد ومسحوق النبق المخلوط بدقيق الشعير ، فأي جنّ دهاك حتى تثرثر بالسّر في الصباح ؟

– ثرثرت بالسّر لأنّي لم أظنّ أن في الأمر سرّ.

– ألم تدرك انه من أهل الإعتزال ؟

– وكيف لي أن ادرك له ملّة إذا كان النّاموس يمنعنا عن مساءلة ضيوفنا حتى لو انتموا إلى قبائل الخفاء ؟

– الناموس لا يجيز حقاً ، ولكن أين فراسة الرعاة ؟ ألم تقرأ في بشرته العلامة ؟

– العلامة ؟

– نعم . لون البشرة . لأهل الاعتزال بشرة خضراء !

– سأستعير هذه الحكمة من مولاي .

– ولكنه أصيب في جوفه بعلّة . انت قتلته بذلك السّويق يا شقي! هل تدري أنه لا يضع في فمه لقمة حتى يتقيأها منذ ذلك اليوم ؟ اللؤماء قالوا أنّك اطعمته سحراً .. ها – ها – ها !

تصنّتت الكائنات الخفيّة ، واستنكر أهل الخفاء ، اقتربت النجوم من الصحراء ، وكفّت الانواء البعيدة عن تبادل الانباء . رأت الصوت المنكر يرفرف في الظّلمة ، ويطير بعيداً في غيهب الفضاء .

٢٤- الضحك

« إيطركن إيمي تاظزاّ ، إيتيطكر ايمطاون » (*)

« آنهي »

* * *

«في الضحك يكتئب القلب وعاقبة الفرح حزنٌ»

سفر الامثال

(١٣:١٤)

* * *

« الضّحك يزعزع الجسم ، ويشوّه الخلقة ، ويجعل الإنسان شبيهاً بالقرد»

أمبرتو إيكو

« إسم الوردة »

(*) « من ملأ فمه ضحكاً ، ملاه دموعاً » ، (تماهقت)

(١)

تدلّت « اشّيت أهظ » واقتربت من الأرض مسافة . ارتفعت الحمادة واقتربت من السماء مسافة . خاض عرجون الضياء الفراغ القاتم، ونزل يسعى في الصمت . تعلّق بالعتمة ليتجسس على السكون، ويلتقط من المملكة اغنيته القديمة ، ولم يتوقّف إلا عندما غمر الخلاء بفيض أبهى من شرر الزّند ، فتألقت شعفة الرابية بالوميض الفضّي الخفيّ.

حمل الجدى ونزل الأكمة.

في السهل فوق رقعة طينيّة رخوة اجتهدت اخاديد بنات الأرض في تجميعها في مواسم السيول ، تمادت ألسنة النّار ، وبدّدت كُتل الظُّلمة. بجوار الموقد النّهم دفن جبارين رغيف الخبز في كوم رمادي استعاره من جوفٍ رملي رجراج تفترشه حبات الجمر . وقف امام اللسان اللعوب ، يلقي إليه بالعيدان ، يطعن جوفه بمسعر طويل ، يحكّ منكبه الأيسر بكعب المسعر ، يقعى على رؤوس اصابعه ليستعير من جوف اللّهب نصيباً جديداً من الملّة الرمادية الرجراجة ، يسحبها من أتون الجحيم ، ويكدسها فوق الكنز الدّفين .

وصل الزعيم . وضع الأبقع بجوار الموقد وتنحّى خطوة إلى

الوراء. انتصب الجدي . مدّ رقبته إلى الأمام . انحنى وشمشم الأرض بفضول جروٍ . تطلّع إلى النّار . في مقلتيه تألّق وميض ، ازدادت البقع البيضاء على جسمه صفاءاً ، وتبدّى السيف الناصع الذي يشطر عرقوب الظهر إلى نصفين مثل لطخة حليب . ظلّ يحدّق في لسان النّار بحدقتين غامضتين . ثم تحرّك إلى الموقد خطوة . ترنّح ولكنه لم يسقط . مضى إلى الامام . تعثّر مرّة أخرى ، غالب سقطة أخرى . تحسّس التراب بخطمه على طريقة الجراء ، ثم اندفع نحو اللّهب . هجم باندفاعه مفاجئة فلم يدركه جبارين إلاّ بعد أن غاب الحافر الامامي في حافة الموقد ، وتلقّف اللسان الشرّة الوسم الفاتن ، المستطيل، الذي يرشم الاذن اليمنى . وحتى عندما احتضنه جبارين بين ذراعيه ، واشتّم رائحة الشياط ، ظلّ يرمق اللهب بغموض وينتفض محاولاً الافلات .

تضاحك الزعيم . هدّد الوليد بسبابته معلّقاً :

– يا شقي !

ثم التفت إلى الرّاعي :

– هل رأيت ؟ لم يكفه أنه دفن أمّه من اول يوم ، وحرمنا من اللّبأ !

تسكّع في الصحراء ، وبدأ يجمّع الحجارة .

أقام حبساً مستديراً بجوار النّار . وضع الجدي داخل الحصن ، ثم

هدّده بسبابته وهمس في اذنه الموسومة بالبياض :

– يا شقي !

(٢)

اخذه من يده ودخل به الظّلمة .

سارا صامتين ، يسبقهما ظلاّن ماردان . وكلّما ابتعدا عم موقع النّار مسافة أكبر، كلما اندفع الظلاّن في العراء مسافة أبعد . ولكن الظلمات تمادت كلما توغّلا في الخلاء ، ثم ما لبثت أن ابتلعتهما فتمدّد السبيل في فراغ خفيّ أنزل السماء إلى الصحراء وجعل منهما قريناً واحداً موشىً بأنواء الجوجه ، فاتنة ، تتلاعب وتومئ بالأضواء . تكلّم صاحب القطيع :

– يسعدني أن أراك تستردّ ظلّك كما استرددت قبلها إسمك !

– هذا بفضل حكمة مولاي .

دحرج بنعله حجراً ، وتجرّع نسيماً عابراً . شبك يديه وراء ظهره كمن يستعدّ للإنطلاق في سفر طويل .همس بنبرة غامضة :

– الحقّ أني لم أجئ بك الآ كي أحدّثك بشأنه !

– بشأنه؟

– وانتهيط . خصمك القديم وانتهيط . هل نسيت ؟

لم يجب الرّاعي ، فأكمل المسترعي :

– عندما استرجعنا لك الإسم المفقود منذ اعوام وجالستك قدّام الدّاموس لا ادري عمّا إذا كنت تدري من أمرك شيئاً بعد الخروج ، ولكنّي اذكر أنّي حدّثتك كيف خرج لي قديماً ، وأغراني بعرض التّبر .

اشتعلت السماء بوهج فتّان ، شقّ العُلا بشريط كرمية سهم ناري اللون ، ومضى نزولاً إلى تخوم الجبال الزّرق ، هوى في الهاوية هناك ، ولكنّه خلّف في الفضاء ذيلاً طويلاً له لون قوس قزح .

تمتما بتميمتين . وركعا أرضاً . هدهدا التراب المفروش بالحجارة، ودفنا السوء الخفيّ مع الكائن الذي رفضته الأعالي فهوى عند تخوم الجبال الزّرق .

سارا مسافة أخرى قبل أن يتخلّص الزعيم من المأتم ، ويفرّ من مراسم الدّفن ، ويعود ، من جديد ، إلى مملكة الصّحراء :

– في المرّة الأولى شكّك في إمكان أن يأتي الرزق من سبيل شريف . قال أن عليّ أن أختار : إمّا أن أسلك طريق الادغال ، واطلب التّبر ككل الخلق ، أو أسلك سبيل التخلّي وأذهب إلى المعتزلة في مغاور

الجبال . سخر منّي كثيراً عندما قلت له أن خلقاً كثيراً قد استطاع أن يرعى رزقاً شريفاً دون أن يسافر وراءه إلى ممالك الادغال . ضحك ضحكاً كريهاً ، وقال أن هذه سيرة اوردها الناموس كي يفتن الأجيال ويغذّي الحنين القديم إلى زمان الأوّلين . لا أخفي عليك : اغواني ، في ذلك اللّقاء ، بأسخى وعد . قال أن الصحراء كلها سوف تدين لي بالطاعة ، لأن الثروة التي سيهبها لي ، إذا تبعته ، ستجعلني منافساً لزعيم آزجر في السلطان . تذكرت أهوال الطريق ، وثعابين الادغال التي تقف عسساً على كنوز التّبر ، فآثرت التسليم ، وطلبت الرزق بطريق الناموس الذي ورثناه عن اسلافنا الاوّلين . ولكن اللئيم لم ييأس . زارني مرّة أخرى في تلك السنوات التي تناقل فيها العابرون أخبار عراكة مع زعيم آزجر . لا زلت اذكر الواقعة . كنت في سفر . خرجت لاسترجاع إبل ضالّة عبرت وادي « تناورت » ونزلت « إيجيدي » (*) في الجنوب . قضيت ليلتي الأولى في الوادي ، وفي الليلة التالية أيقظني بعد أن غفوت بوقت قصير . وضع عصاته الكريهة (التي تشبه الحيّة) في حجرة وقال أنه جاءني بصفقة أخرى . فهل تستطيع أن تخمّن بأي عرض جاءني الداهية؟

ركل الحجارة بعنف لا يناسب وقار الحكماء . تدحرجت قطع الصّلد . تقافزت فوق العراء . مضت ترتطم بالألواح الأخرى وتولول

---

* إيجيدي : الصحراء الرملية .

برنين جرح السكون اللّيلي البتول . زفر بيأس قبل أن يسمع منه رواية أخرى :

– في زماني الاوّل كنت منّعماً في « آزجر » كما تنعّمت هناك قبائل كثيرة . لا أظنّ أنك تستطيع أن تتخيّل أمراً كهذا . لا تستطيع أن تتخيّل ماذا يعني أن تعيش زمانك الاوّل . لأن الناموس يؤكد أن ذلك يصير مستحيلاً عندما يفقد الإنسان إسمه أو ظلّه . وأنت لا تعرف أيضاً أن « آزجر » كان الوطن الوحيد الذي يتبدّى فيه الاسلاف ليشاركونا الحياة ، ويحملوا إلينا مع ابدانهم عطايا انفس من الكنوز ومن الناموس . هل تصدّق أن يوجد في الصحراء أمر انفس شأناً من الناموس ؟

لم ينتظر جواباً . أطلق آهة شجن ، ثم انطلق :

– نعم . يوجد في شرع الصحراء ما هو انفس من النّاموس . انفاس « واو » . الاسلاف في « آزجر » كانو يجيئوننا بأنفاس الواحة المفقودة في ابدانهم ، وفي ثيابهم ، وفي .. انفاسهم أيضاً . فكنّا نستضيفهم بولائم سخيّة حتى نثقل ابدانهم بالاطعمة . فإن هجعوا تسللنا فنتشمّم اجسادهم ونستقطع من ثيابهم النبيلة خرقاً نحرقها ونستنشق بخارها عندما يشتد بنا الحنين . أووه ، يا معيننا « تانيت» ما أبهى البخار، وما أشهى العطر ؟ إعلم ، إذن ، أن أريج زهرة الرّتم التي لا تملك إلا أن تترنّح إنتشاء ما أن يهبّ عليك شذاها ، ليست سوى محاكاة لتلك الانفاس التي كان الاسلاف يحملونها إلينا في ابدانهم وثيابهم وانفاسهم

كلما عادوا في وطنهم الخفيّ ليتبدّوا لنا في « آزجر » . ولكن مزاج الزمان ما لبث أن فسد ، والنجوم أبت إلاّ أن تتنقّل في بروجها فتزعزع الناموس الأرضي ، وتبدّل الحال . جاءت قبائل الغزاة وهبّت على الصحراء بقوّة الإعصار . عمّم الزعيم الرّسل بالنّداء ، وبعث إلى أبعد القبائل يذكّرها بالعهد ، ولكن القبائل فرّت هرباً من الإعصار وطلبت النجاة ، فوجد الزعيم نفسه يدفع عن الصحراء البلاء وحيداً . ولكن الصحراء ، التي اعتادت أن تدافع عن نفسها بنفسها عبر الزمان ، احتكمت إلى الحيلة القديمة مرة أخرى .سخّرت الجنّ والأسلاف ، فتزلزلت جبال آزجر كلّها ، وتململت المقابر على السفوح ، وألقت عن نفسها اثقال الصلد . امتلأت الوديان برجال لهم قامات المردة ، وفاضت السهول بجيوش لم ترها عين ، ومضى هذا الخلق ليضع نفسه رهن إشارة الزعيم . ولا شك أنّك عرفت من روايات الرعاة كيف استطاع الزعيم بمعاونتهم أن يطرد البلاء ، ويستردّ الصحراء من أيدي الغزاة .

اطلق أنيناً طويلاً ، موجعاً ، ثم عاد يروي سيرة الزعيم :

– اعترف لك أن قبيلتنا كانت قد فرّت من وجه العدوّ كما فرّت كل القبائل . وعندما تحسّن حال الزمان ، وخرجت الافلاك العليا من أبراج النّحس ، واستوت في بيوت السّعد ، استقرّ الأمر ، وهنأت الصحراء بزمان جديد . عدنا من جديد كما عادت كل القبائل ، ونزلنا « آزجر » طمعاً في محاورة الاسلاف ، والتنعّم بوطن الرّؤى السماوية ،

واستجداء الانسام التي افتقدناها طويلاً : أنسام « واو » . ولكن الزعيم صدنا عن النعيم وطردنا بعناد . عناد لم يختلف كثيراً عن عناده في طرد جيوش الغزاة . جمع زعماء القبائل وحكماء العشائر وكلّمهم قائلاً : «إعلموا أن شقاء الأرض إذا تنكّر لها ابناؤها ، لا يعادله إلاّ شقاء الأمّ إذا أنكرها أبناؤها . ليتني استطيع أن انتحل لكم عندها الأعذار ، ولكن هيهات أن تغفر لكم . إذهبوا ولا تنتظروا إلاّ اللّعنة» . تشتّتت القبائل إلى الأركان الأربع ، وجاءت قبيلتنا وسكنت جبال الشمال ، ولكن الحنين إلى آزجر أصاب القبائل بالعلل ، وذهب بعقول أعقل العقلاء . هل تدري أن الخلق الذي قضى نحبه حزناً على الوطن الضائع يفوق عدداً ما ذهبت به الأوبئة أو الشيخوخة او الجدب أو الهوام السامّة ؟ كان المريدون يقفون على حدود المملكة المفقودة ، يغنون لها موايل الاشجان والشوق ، أو يقولون اشعاراً في مديح المعشوقة الضائعة . حاولت قبائل كثيرة أن تجتاز الحدود ، وتدخل ارض المملكة ، ولكن جند الجنّ قاتلتهم بشراسة وردّتهم على اعقابهم . حاول العشّاق أيضاً عندما اشتدّ بهم الشجن وغلبهم الوجد . خاطبوا عسس الجنّ وطلبوا أن يأخذوهم أسرى . ولكن العسس أبوا ، وألقوا بالمريدين والعشّاق في أراضي أبعد من كل أرض . فهل تظنّ أن في الصحراء يدب مخلوق واحد لم يبكِ وجعاً عند الحدّ ، ولم يردّد اشعار الحنين ولحون الشجن وهو يرى أبهى الاوطان ، وطن الاسلاف والرّؤى السماوية ، يستلقي أمام عينيه دون أن يمتلك لدخوله حيلة ؟ أووه ، المحبوبة « تانيت» وحدها

تعلم كم بكينا في البرزخ . الرّؤى السماوية وحدها تعلم كم فاضت أنفس ، وكم صدر تخلّى عنه عصفوره الخفيّ في تلك التخوم القاسية ! لن تتخيّل أنيّ ظللت أقف في الحدّ اعواماً ، وكاد داء الحنين أن يغلبني لو لم يتدخّل السحرة ويعودوا بي عليلاً ، غائباً ، محمولاً على ناقة . لك أن تتخيّل الآن أي إغواء تعرّضت له عندما جاءني الدّاهية ، بعدها بأعوام ، ووضع أمامي عرضاً بالعودة إلى آزجر . اسمعني حجّته القديمة. قال أنه قوّة تفعل شراً لا بد أن يحوّله الزمان يوماً إلى خير سخيّ . وما عليّ ، إذا أردت الفوز بنعيم الوطن القديم ، إلاّ أن اقرع الطبول وأعدّ الفرسان للحملة على آزجر . وسوف يتولّى عنّي الأمر . قال أيضاً أنه لن يكتفي بضمان الفوز لجندي ، ولكنه سيكافئني بالمجد ، وسيجعلني اتقاسم السلطان على آزجر مع الزعيم . الحق أني لم ارفض الصفقة كما قد يتخيّل البلهاء أو معتزلة الجبال ، لا طمعاً في المجد أو سعياً وراء سلطان الزعامة كما قد يتخيّل أهل الشرّه وطلاّب الدّنيا ، ولكن لأن جذوة الحنين لم تنطفئ ، وانسام الواحة المفقودة ما لبثت أن هبّت ، ورؤى السماء تنزلّت وتبدّت ، والاسلاف لبسوا زمانهم ، وحملوا ناموسهم، واقبلوا ، ففررت . قفزت الى الوراء وركضت بعيداً . ركضت ودفنت جسدي في تراب الحمادة طويلاً . هناك عرفت ، فعدت بالحق . التّراب أنبأني بأن احترس ، لأني سأخسر الرّهان حتى لو كسبت العراك ، وانتصرت في الحملة ، ذلك أن عطايا « وانتهيط » هي فخّ حتى وإن سولّت وعداً بالعودة إلى الوطن المفقود . اخبرته أنّي لم أقبل فداعب

عصاته الكريهة بين يديه وقال لي قولاً لن أنساه : « ستقول غداً أنّك خسرت النعيم خشية من امتحان صغير يسمّيه البلهاء شراً . إمضِ . إمضِ ، فقد ظللت السبيل إذ ظننت أنّي وقفت بين يدي زعيم . ولكني ازداد يقيناً مع كل يوم أن زمان الزعماء في الصحراء قد ولّى » . لم أمضي كما شاء ، ولكني جادلته بشأن الأرزاق مرّة أخرى ، فكركر ضاحكاً وتوّعدني بالثعبان الكريه الذي يسميه عكّازاً ، وذكّرني بحديثنا القديم الذي رفضت فيه الخروج معه إلى ممالك الادغال طلباً لهباء التّبر ، ثم أنتهى إلى اليقين بأن المال نبات لا ينمو إلاّ في المستنقعات ، والرزق كائن لا يتربّى إلاّ في الاوحال ، وإذا كنت أرى غير هذا الرأي فليس امامي إلاّ أن انضمّ إلى قافلة المعتزلة وأذهب للعيش في الكهوف .

توقف فجأة . التفت إليه فرأى جبارين كيف لمعت مقلتاه بوميض تحت ضوء النجوم . أقترب خطوة فلاحظ أنه يرتجف أيضاً . حشرج بصوت مكتوم :

– أنت تعرف الآن لماذا جئت بك . أنت تدرك أني كسبت الرهان وانتصرت في عراكي مع مخلوق ندر أن تباهت المخلوقات بانتصار إذا أبتليت بمشادّة معه . أنظر إلى هذه الرقعة الظلماء ! أنظر الى هذه المساحة التي تستلقي في العراء وتتمدّد في الظلمة بلا حدّ . هل نبت هذا الخير في جدول عفن ؟ هل تربّى الثراء في الاوحال ؟ هل تكاثر القطيع في مراع انتزعناها بالسّيف ؟ هل هاجمت القبائل المجاورة،

أو جهّزت الحملات على الشمال ، لأعود بالغنائم أغناماً ؟ ألم أنل المطر من السماء والعشب من طين الحمادة السّخيّ ؟ هل يستطيع الداهيّة أن يشكّك في قدرة المال الشريف على التنامي ؟ هل يطعن في كفاءة بذار الرزق على التكاثر ؟

التفت إلى العراء وصاح بأعلى صوت :

– وانتهيط « ماجّيد » (*) ؟ ها–ها – ها .. لقد كذّبت ناموسك ! ها– ها – ها .. أنا الوحيد الذي استطاع أن يسفّه لك سيرة ، ويكذّب لك ناموساً ! ها – ها – ها .. وانتهيط ! تعال واخبرني في أي مستنقع كريه نبت هذا الخير . تعال وأنبئني في أي وحلٍ رتعت اغنامي ! تعال وقل لي أي نجم شرّير أقتات قطيعي حتى صار أكبر قطيع في الصحراء ! تعال يا سلطان العناد وأخبرني بسرّي إن كنت داهية حقاً ؟ ها – ها – ها ..

ظلّ يقهقه بصوت منكر ، كريه ، ينطلق صاخباً حيناً ، ثم يعود مكتوماً ، محشرجاً كفحيح حيّة . وكلّما نفث فوجاً امتلأ الشدقان بنصيب جديد ، فيحشرج ، ويزمجر ، ويختنق بالزبد والانفاس .

خرّ الراعي على ركبتيه. أزال الواح الحجارة عن رقعة العراء. دسّ كلتا يديه في التراب طرداً للشؤم، وانطلقت شفتاه تتمتمان بالتمائم.

---

* وانتهيط ، أين أنت ؟ (تماهق) .

(٣)

استنكر قهقهة المسترعي ، ولم يدر أن نبوءة القدماء سوف تتحقق، والنجوم قد هيأت له مصيراً مثيلاً ما أن تململ عطارد وخرج من برج الجدي ليدخل بيت الاسفار . أومأ عطارد بالبشارة ، لأنه الفلك السماوي الوحيد الذي يحمل في نفسه ضدّاً. فيومض بإيماء النحس إذا أقبل بالبشارة ، ويومئ بالبشارة إذا اراد نبأ النحس ! ولو نال جبارين نصيباً من علم السحرة في تلك الليلة ، لو أوتى علماً من لغة الخفاء لاستطاع أن يلاحق النجوم ، ويفهم أن إشارة عطارد لا بد أن تُقرأ بالمعكوس ، لأن الكوكب الممزوج لا يبشّر بالفرح إلاّ إذا صار له الحزن خاتمة ، ولا يقيم لأهل الأرض المآتم في الافلاك إلاّ لعلمه بأنها قرابين تطهّر من الدنس ، وتهيئ السبيل ليوم السّعد .

لم يفهم جبارين إيماء عطارد ، ولكن البشارة لم تتأخر.

فما أن انتهى المسترعى ، ودبّ في العراء مسافة أخرى ، حتى قال :

– لا تصدّق أيضاً أني جئت بك كي أسمعك حجّتي في الجدل مع من لم يعدم الحُجج يوماً ، ولكن أقول الحق : جئت بك لأمر آخر . جئت وفي جيبي هذا لك بشارة ! ألا تريد أن تنال منّي بشارة؟

أمسك بمعصمه كما في في المرّة الاولى عندما خرج به إلى

الظلمة . شدّد قبضته على المعصم . توقف . مال على أذنه . قال :

– ألن تكون بشارة إذا قلت لك أني رأيت أن أعطيك الصبيّة قرينة ؟

هأ هأ ضاحكاً . جرّه من معصمه ومضى ، ولكن جبارين لم يفهم . هو أيضاً ادرك أن الرّاعي لم يفهم عندما حاول ان يوضح :

– أم أنك ترى أن الحسناء كراء قليل ؟ هيّا . اعترف ! هئ – هئ – هئ .. أنت تعرف أنّها معشوقة فرسان القبيلة ، ولكنّي أعرف أيضاً أن عين الفرسان على القطيع وليس على الصبيّة . فلْيمتْ الفرسان عشقاً ، فالصبيّة لن تكون من نصيبهم ، لأني اخترتها لمن جلب إلى بيتي الفال الذي انتظرته طويلاً . فهل راقت لك البشارة ؟ هئ – هئ .. اعترف أن رجل الصحراء لا يعترف ببشارة إذا لم تكن فيها الحسناء طرفاً !

شدّد قبضته على المعصم . تباطأ . تباطأ ثم توقّف . لم يلتفت وهو يضيف :

– سيقولون أنّي رميت بالطفلة في حضن راعٍ غريب ، ولكن ما أدراهم عن ناموس الرعي ذي الأركان الثلاث ؟ وما الذي سيحمّلني على تصديقهم بعد أن همس في أذني القرين بالسرّ وقال لي أن عينهم على القطيع وليس على الصبيّة ؟

تقدّم المولى فانقاد له . ظلّ مستسلماً لقبضته طوال الطريق دون

أن يفهم . وعندما فهم شهق بصوت حيوان ، ولكن اللّسان لم ينطلق .

(٤)

هجع المسترعي فتسلل الراعي واندسّ في زحام الرعيّة . تغنّى السكون بموّاله الأبدي ، وحدّقت السماء في ظلمة الخلاء بمائة الف عين. تجسّست الكائنات على الكائنات ، وفرّت مخلوقات من رقابة السماء . بعضها ألتحم ببدن العراء لأنه رأى أن يتوارى وينزل أرضاً ، وظهر فريق كان يختبئ في الأسافل وبدأ يدبّ في العراء . زحف على ركبتيه في الزحام . تحسّس الاجرام السوداء . بحث بأصابعه عن الضرع المنفوش . ولكن رأسه لم يتخلّ عن متابعة المائة الف عين . اهتدى إلى الضرع أخيراً ، فوضع الماعون ارضاً ، وجذب اليه الشاة . استعان بركبته . ثبّت ساق المعزة الخلفية في ثنية الركبة ، وشدّ الحلمتين بالسبابتين والإبهامين . فزّت العصارة من الضرع بسخاء ، فنقرت الماعون . دمدم الخشب بصوت مكتوم ، فتوجّع السكون ، وأصيب الصمت النّبيل بجراح فقد على أثرها اللّيل سرّه .

لم يستجب لشكوى السكون ، ولم ير النّزيف الذي فزّ من ملاك الصمت ، ولم يدرك متى فقد الليل سرّه ، لأنّه تلهّى بطلب الحسناء في مائة الف عين تومض بالايماء ، ولأنّه أبتلي بالبلبال ما أن نطق المسترعي بالبشارة ، فعرفت الحسناءُ إلى البال طريقاً .

٢٥ – العَلامَة (١)

« كل إمرأة هي شرّ ، ولا تصير خيراً إلاّ مرّتين : مرّة في مخدع العشق ، ومرّة على فراش الموت »

بالأّد

(١)

توعّده الساحر بسبّابته محذراً : « إيّاك . الخفاء يحكم الأحبولة ، ويتباهى بإتقان الشرَك ، فاحترس ! » . كانت تشيّعه في الصباح حتى العرق الممدود بين الواحة ووادي الجنّ ، وكانت تهرع للقائه في المساء في حدّ العرق . القامة واعدة منذ الطفولة، والنّهد البتول انتهك الثوب مبكّراً ، وفي المقلتين الكحلاوين الكبيرتين تلامع وعد آخر أشدّ فتنة من إغواء القوام . تهشّ الاغنام وتطارد الجداء فتختلس إليه النظر ، يرجم بالحجارة رؤوساً راق لها الخروج عن القطيع دائماً ، ويركض ليردّ الجداء الشقيّة، فيختلس إليها النّظر أيضاً . تبتسم بعينيها الكحلاوين الكبيرتين وتتوقف . تتوقف عند حضيض العرق وتمكث هناك طويلاً .

يعتلي العرق بالقطيع . يلتفت قبل أن ينزل وادي الجنّ ، فيجدها تقف في نفس المكان مثل نصب . تفتن الريح بقدّها فيندفع الرسول الخفيّ ليعرّيها . يتسلل بيده السّرية ويدخل بين الثوب والجسد . يتحسّس الفتنة الخفيّة ، يزيح الثوب غيرةً فيضيق بالهواء ويصير مثل شقشقة الجمل القريع . يتعرّى الساق ، تنكشف العجيزة ، ولكن الصبيّة لا تبالي . لا ترفع يداً بإشارة ، ولا تلوّح بالعصا في يدها كي توحي بإيماءة ، ولكنه استطاع دائماً ، رغم بعد المسافة ، أن يتبيّن في عينيها الكحلاوين الكبيرتين تلك البسمة: بسمة عذراء لم تعد صبيّة . بسمة أنثى تتعلّم الإغواء .

(٢)

في المراعي أصابه المسّ .

تململ في الصدر كائن ، وشبّ في الجوف حريق . الحريق فاض في الجوف ، واستولى على البدن ، فوجد أنه أُصيب بحمّى مجهولة . تنقّل بين الماشية ، دفن جسده في الطّين ، ركض في الخلاء الأبدي ، ولكن الحريق لم ينطفئ ، والصحراء التي فقدت فتنتها ، وفرّت من الصحراء ، لم تعد إلى الصحراء . استعان بالاعشاب وحرق صدره ورأسه بالنّار . يئس من الشفاء فأيقن أن الأمر لا يخلو من سحر . اصطاد حرباء من احراش الوديان الكبرى . نحرها وشرب دمها الكريه . استلقى تحت الرّتم وانتظر الشفاء. تطلّع في الفراغ : في السماء اللامبالية، البعيدة ، الخالية ، أقبلت فلول غيم هزيل . تحلّلت الفلول وتجزّأت في غلالات شاحبة . انسابت في الفضاء المكابر وبدأت ترسم سيرة غامضة. استطال ذيل وتمدّد جنوباً . بعد قليل اعترضه ذيل آخر . ولكن الذيل الآخر لم يدرك رأس الذيل الأوّل فشق طريقه ليشطر الجسم الأوّل إلى شطرين ، واصل الطرف الاول سفره . واصل الطرف الثاني سفره. ارتسم في الفراغ القديم ، البعيد ، اللامبالي ، تقاطع نبيل . اندفعت فلول أخرى وانسابت ببطء أكبر . تناثرت حول التقاطع في اشتات يائسة لبعضها تكوين الأعضاء ؛ راحة يد بلا أصابع ، معصم مبتور ، جانب واحد من قفص الصدر ، عقب كامل التكوين ، سبّابة

هائلة تتوعّد شبحاً مجهولاً .

بدأت الاعضاء تلتئم .

تابع التكوين غائباً ففاته أن يتبيّن كيف التحم الجسم ، واستعاد المخلوق صورته الضائعة . استعاد الصورة ولكن في وضع غريب . كان يهجع على الجنب الأيمن . يضمّ ركبتيه إلى صدره ويطرح ذراعيه على فخذتيه . ينكمش حول نفسه كالقنفذ ، يتقوّس كوليد في بطن أمّه . ولكن المدهش هو الطريقة التي ادرك فيها التقاطع ، فالتفّ حوله كإفعوان الادغال ، واحتواه في الفراغ الواقع بين صدره وثنية الركبتين . توقّع أن يتلاشى التقاطع ويضيع في دائرة التكوين ، ولكن ذلك لم يحدث . بل وجد يد المجهول تتمادى وترسم معجزة أخرى . بدأ ذيل التقاطع المتجه صوب الجنوب يتلّون بخيوط استعارت الوان قوس قزح كلّها . تمدّدت الألوان في الغلالات ببطء ، وقبل أن يبلغ المدى انتقل الى التقاطع الآخر الممتد بين الشرق والغرب . مضى وقت آخر . اكتملت الالوان . اكتملت الصورة . صار التقاطع النبيل أكثر بهاء بالألوان ، وتقوّس حوله بدن المخلوق راسماً دائرة هائلة . تابع العلامة ، ولكنه لم يفهم الرسالة .

(٣)

قبيل المغيب ، ما أن يتدفق في العراء فيض الغسق حتى يعتلي

العرق . في الحضيض ينتهك الريح الحرم فيستولي على الجسد الفتّان ، ويدفع الثوب الفضفاض بعدوان مارد الجنّ ، فيأتي اللقاء بما لم يأت به سلطان الاعْشاب ، بما لم يأت به لسان النّار ، بما لم يأتِ به دم الحرباء . ينطفئ الحريق ، ويبتعد البلبال ، ويستعيد الخلاء فتنته الضائعة . يرتجف شوقاً وهو يفزّ إلى الأسفل . يتدحرج عبر السفح . يركض . تخذله قواه فيركع ويتمرغ . ولا يرتوي من داء الظامئين إلاّ عندما يجد نفسه تحت قدميها . يرفع رأسه إلى أعلى فيجد في العينين الكحلاوين الكبيرتين نفس التساؤل ، نفس البهجة، نفس الايماء ، نفس الغموض ، نفس الفتنة، نفس النّداء ، نفس التعبير الذي تستعيره العين من الشفة ، وتخفيه الحدقة في بسمة الإغواء .

يتمادى الريح غيرةً فيتكشّف شقّ الكُمّ الطويل عن كنز جعله الإخفاء الطويل سرّاً يعيد إلى البال البلبال ، ويشعل الحريق ، ويختلس من الخلاء فتنته الخالدة . يرتجف ، وتقبل الحمّى ، ويكتشف انه عاد إلى الوراء . إلى الرقعة القاسية التي تستلقي خلف وادي الجنّ ، فجرّب . جرّب أن يحاكي أهل الوجد ، ويستعير من مراسم القِران التميمة النفيسة التي تخاطب بها الحكيمة عرش القرين قبل أن تسلّمه قرينته البتول . مال على أذنها وتمتم : « نوضد نفّود » (*) لم تفاجأ . لم تبتسم بالشفتين . ظلّت بسمة العين تتألق والعين لم تطرف . لم يرف لها جفن.

---

* نوضد نفّود : وصلنا وبنا ظمأ . (تماهق) .

تخيّل ، حسب ، أن السواد في المقلتين تمادى واستبّد . سمع جواباً جواب القرين المتربّع على عرش القران : « أسْوَتْ » (*) . رفرف العصفور في الصدر . زغردت الجنيّات في سفوح الجبال الزرق ، وطار الحضيض ما أن تدخّل الجنّ .

ضرب العرق زلزال ، وفرّ المارد بالحضيض إلى وطن آخر لا يعرف المراسم ولا يعترف بالنّاموس . في تلك المملكة التي تتمدّد في حضيضها أرض أخرى ، وتضلّلها سماء أخرى ، صرعة وجد آخر فرفع صوتاً :« نوضد نلّوز » (**) .

ولكنه لم يشك في أنه سمع الرّد كما لم يشك في أن الشفتين لم تتحرّكا : «أكشت» (***) . ترنح ومدّ يداً جسورة . إذ لا مكان للحياء في وطن لا يسكنه الناموس . امتدّت اليد وامتدّت . تسلّقت الأعالي ، وتطاولت في ممالك أبعد من السماء . سلكت سبيل الرسول السّري ، واقتفت خطوات الرّيح . اندسّت في الشّق المجهول وبلغت أول برزخ . تباطأت ولكنها لم تتوقف . تمهّلت ، ولكنها لم تتراجع . دخلت الخفاء ولكن فحيح الحيّات ووعيد أهل الخفاء لم يخفها ولم يثنها عن السّفر . أخيراً بلغت ارض الميعاد . لامست نعيماً أملس الملمس فتعلقت بالحلم .

---

* أسْوَتْ : إرتووا .

** نوضد نلّوز : وصلنا وبنا جوع .

*** أكشت : كُلوا .

تسلّقت النعيم الشهيّ ومضت في السبيل الأعلى . أنتهى السبيل إلى صدر الأعالي . في الصدر تمّرد القُلاع وتكوّر الكنز كقطعة ترفاس . تحسّس الكنز ومضى يتسلّق الأرتفاع . نفثت الحيّة فحيحاً كريهاً ، ولكنه استهان بالخطر . بلغ رأس الكرة الصارم . داعب فتيل السّراج بأصبعين. ثم رأى أن يتنقّل في النعيم ويستكشف البستان القديم . مضى في السبيل الأسفل فاشتدّ فحيح الحيّة . قطع مسافة أخرى فوجد الطريق إلى الوادي. نزل الوادي . غاب في الوادي . ابتعله الوادي . اعترضته احراش لئيمة ، خشنة ، مجهولة . اشتدّ الفحيح . توغّل في الاحراش . لم يعد يُسمع صوت في المملكة كلّها غير الفحيح الكريه . استمرّ المسير واستمرّ الفحيح . ضاق الوادي . اشتدّ الوعيد . ضاق الوادي أكثر . صار مضيقاً . ازدادت كثافة الدّغل . ولكنه مضى . تسلّل عبر المجاهل . أنشقّ الأخدود . بين ضلفتي الاخدود وقف على النّبع . النبع . أقدم نبع . أكثر ينابيع الممالك فتنة وإغواء وغموضاً . أشدّ غموضاً من مملكة الخفاء، من واحة «واو» . ولم يكن من مشيئة المصادفة أن يقرن الحكماء أمره بأمر الواحة المفقودة . النّبع الذي اختلف السحرة في أمره كما لم يختلفوا في أمر . شهد له فريق بالسلطان . وتوعد فريق الخلق وهدّدوا من أقبل عليه بالشقاء وبئس المصير . مدحه المغنّون وقال فيه الشعراء أنبل الاشعار ، وحمل عليه أهل الاعتزال وعشاق الآفاق فانتهوا إلى أنه سبب كل بلاء . نودي به إماماً للحياة ، ورُجم بالشّر والسمّوم وهاوية الظلمات .

هذا هو النّبع .

هنا سيركع . هنا سيرتوي . لن يرتوي من ظمأ أصابه عندما تململ العصفور في القفص واستجاب لنداء العين الكحلاء ، ولكنه سيرتوي من ظمأ جاء به إلى الصحراء . ظمأ أقدم من الزمان ، وأبعد من « واو» منذ أن فقدت الذاكرة عليه السلطان ، وصار مملوكاً في ملكوت النسيان. سينطفئ الحريق ، وستبرد الحمّى ، وسيتبدّد البلبال . الصحراء ستعود إلى مملكة الصحراء ، وسيرجع إليها من غربته في فراغ التّيه . أصاب المملكة زلزال . تواصل الفحيح الكريه في صيحة جنونية . أختفت المملكة الأخرى ، ومزّق الدنيا برق الجنّ . رمى المارد بالرقعة أرضاً ، فعاد العرق ركناً بائساً يرقد على شطّ وادي الجنّ . استلقى الحضيض في الحضيض الموازي للعرق البائس . فوق الحضيض انتصب مفتون شقي يلمع في وجهه نصل المعشوقة .

انقلب الأمر بضربة واحدة ، وخرّب الفلك الزلزال ، توارى الدغل الخفيّ ، وطار النبع الأبدي إلى الأبد . لم تتبدّل البسمة في العين ، ولم يحتقن الخدّان بدم الغضبة المسعورة ، ولم ينطق الملمح بغير التسامح فكيف تزلزلت الافلاك في مّرة ؟ متى امتدّت الكف الجذّابة لتسحب المدية الشريرة من كُمّ الثوب الفضفاض ؟

فزّ برأسه إلى الوراء فتفادى اللسان الشّره . رآه يسطع أمام عينيه برغم العتمة . بل طرف اللسان المدبّب ، طرف النّاب المسموم ، لأمس

أهداب العين اليمنى .

لم يتخلّ عن الكنز في الطُرفة المناسب ، فجذب إليه الثوب عندما فزّ إلى الوراء. لاحقته الحية بضربة أخرى من ناب أشد عدواناً وشراسة فأصابته إصابة في الموقع الذي استهدفته الحيّة الخالدة ، ونكأت فيه الجرح الموجع الذي أودى بحياة الأجيال . نالت الفراغ الخفيّ الممتد بين فتحة الأنف ، وشق الشفتين ، لأن الحية الداهية التي وقفت حرساً خالداً على الأخدود الأسفل ، على النّبع ، على السّر ، عرفت أيضاً أن الفجّ الممتد بين الشفتين وفتحتي الأنف ، ليس تجويفاً من تجاويف البدن ، ولكنه «إدبني» (*) ، « آبَتُول » (**) يخفي سرّاً لا يقل شأناً عن سرّ « آبتول » السفلي . لأن القرينين عندما أقبلا ودخلا في البدن خرجا من فتحتي الأنف . بدأ النّفس ينفخ الحياة في البدن في حين حفر الضّدّ لنفسه فجّاً وهجع هناك محذّراً قرينه أن يوقظه قبل أن يدخل زحل في بيت الأعداء، وتهب ريح النحوس على الوعاء المنفوش ، (فيتزعزع حفظة البيت ، وتتلوّى رجال القوّة ، وتُبطل الطواحن ، وتُغلق الأبواب في السوق)(***) ويتوقف الزمان ، لأن أوان المعاد قد حان . عندها فقط يأتي دور الضدّ ، فيهب القرين من رقدته ، فيسدّ الفتحتين بيديه ، ويمدّ قدميه إلى الاسفل ليسدّ بهما شق الفم ، فيكُفّ القرين عن التنفّس في

---

* إدبني : قبر القدماء .
** آبَتُول : الحفرة .
*** سفر الجامعة .

الوعاء ليتولّى الضّدّ الأمر وحده . فهل يشكّ بأن الداهية ، بتلك الضربة الموجعة، لم تسع لإيقاظ الضّدّ من غفلة الحين ، واستفزاز قرين الأبد لينهض ليتسلّم زمام الأمر ؟ بل لماذا استنكرت اللّعوب لعبة العاشق مرّة إذا كانت قد استسلمت لألعاب الريح ألف مرّة ؟ ألم يذهب إلى المملكة استجابة للنّداء ؟ أم أن « آنهي » لم يخطئ عندما قال أن في صدر الانثى ينام سرّ شاءت النجوم أن تخفيه عن الانثى نفسها ؟

(٤)

لسان المدية ، ناب الحيّة ، لم يُطل « ابَتول » نفسه ، إنتهش لحمة من الضلفة اليمين ، ولحمة أخرى من الضلفة الأخرى . ولكن النزيف كان مخيفاً . النزيف كان نصيباً سخيّاً ، في هول مجازفة انتهكت حرمة الضّد ، في جسامة حمق مسّ حرم الغول . ولو لم ير العلامة في نجوم الليل ، لو لم يتخذ القمر من بيت الطالع رفيقاً ويدخلا بيت السعادة معاً، لتململ القرين في الحال ، واستيقظ الغول من رقدة الازل . في البدء حاول أن يوقف النزيف برماد الدّمن ، بتعويذة الاسلاف ، ولكن النزيف تمادى فأدرك أنه ارتكب إثماً مجهولاً أبطل عمل التميمة . استعان بالأعشاب وطلب العون من عيون السماء ، من عراجين الأنواء . سار القمر في بيت الطالع ، وعندما دخل بيت السعادة كان قد نام . استيقظ مع ميلاد القبس الفضّي الأوّل فقرأ في الفيض البشارة .

تجّمد الدّم بموازاة الشفة ، ولم يكتشف العلامة السريّة إلاّ بعد أيّام. سقطت قطعة الجسد (*) التي استوت فوق الشفة ، تحت فتحتي الأنف ، وتشبّثت بحرم الحفرة طويلاً . بعدها بأيام أُخر التأم الجرح وأسقط جلدة فضية هشّة تشبه غلاف الحيّة عندما تبدّل الدّاهية جلدها .

استولت على النبع ودفعت به الى الفراغ الموحش . نالت الحياة وضربته بالنّاب المسموم . تنعّمت بفردوس البستان وطردته من مملكة التّيه والضياع والمنفى . أخذت ظلّه يوماً ثم وشت به لـ « وانتهيط» فجاء وأخذ إسمه . بل سلبته ظلّه ثم تنكرت في مسوح « وانتهيط » لتقايض إسمه بالسبيل . فأيّ لعنة حلّت بالصحراء وبخلق الصحراء منذ نصّبتها الأقدار قدراً على الصحراء ؟ وهل يوجد في الصحراء ساحر واحد يستطيع أن يجد له مفرّاً من قدر الصحراء ؟

لعنها بكل طريقة ، في السّر ، بالصوت المسموع ، وذهب يصب لنفسه ماء . هنا تبدّت له العلامة . انكفأ على الوعاء فارتسمت صورته في الوعاء ، في السلسبيل النبيل . اعتاد أن يتأمّل السائل دائماً قبل أن يتنعّم بجرعة . يقرأ تمائم قصيرة في مديح الينابيع الخفيّة ، ويتمتم بحمد الخفاء لأنه أغدق عليه بالبهاء ووهبه جمال الصورة . ولكن العلامة افزعته فرمى بالوعاء وهبّ واقفاً . تطلّع إلى السماء فوجدها بعيدة ، قاسية ، لا مبالية . تسكّع في العراء وبحث عن الجواب في الأفق الفاجع

* الجسد : الدّم اليابس .

ولكن الأفق الفاجع ، كوعاء الماء ، ينضح بما حواه ، فنطق بالفجيعة . عاد وملأ وعاء آخر . لم يشوّه التقاطع الوقح الذي تمدّد فوق الشفة صورة الوجه وحده، ولكنه أفسد السلسبيل وأهان سلالة الماء . داس على قلبه وتوقّف عند الصورة مليّاً . كان الامتداد العاري يشطر مثوى القرين ضدّاً ، فيبدو قاسياً ، قبيحاً ، مثيراً للإشمئزاز . أقبح من .. من كعثب الأنثى ، وأقسى من السيماء على افخاذ الإبل . السيماء ؟ علامة «تانيت » التي تكلل أبدان البعائر وتجعلها مخلوقات مقدّسة نذرها أهلها للسماء ؟ التقاطع الجليل الذي ينقذها من اللصوص ، ويحميها من قطّاع الطريق ؟ أجل . أجل . هذه علامة « تانيت» تتقاطع في حدّين صارمين فوق شفتيه ، فما معنى الرسالة ؟ ماذا أراد الخفاء أن ينبئ برسم العلامة ؟

(٥)

احكم اللّفام (*) حول أنفه ونزل عرق الميعاد . هناك وقفت الحسناء في الانتظار . انتصبت بنفس القامة ، في نفس المكان ، ينفخ الريح ثوبها الفضفاض ، ويدس يداً نزقة ليعبث بالقوام ويتنقّل في سبل الوعد ، يدخل الاحراش والادغال . يمضي ولا يتوقّف إلا عندما يبلغ الحرم ، ويجد نفسه يقف فوق النّبع الضائع . يمكث اللئيم في بستان

* اللّفام : هو اللّثام إذا غطّى الأنف .

النعيم ، لا يصمّه فحيح الحيّة ، ولا يتهدّده النّاب الخالد الذي يتنكّر في نصل مدية نحاسية .

لم تقف بنفس البهاء حسب ، ولكنها احتفظت أيضاً بنفس البسمة في العين . والبسمة تكلّمت بنفس النّداء ، والنّداء وعد بنفس السبيل . أُصيب بالبلاء . أُصيب بالعماء . لأنه فقد الذاكرة وأُبتلي بالنسيان . تقدّم من الحرم . مدّ في السبيل يداً ترتجف، و.. مضى . تسلّل. تتبّع نفس الطريق الذي سلكه في المرّة الأولى . اشتدّت الرجفة . قطع مسافة أخرى . تمادت الحمّى . لم يصعد الأعالي . هبط الأسافل . دخل الدغل . اعترضته الاحراش . انطلق اللهاث . سمع الفحيح . اندفع بجنون الظامئين الأبديين . إنشقّ الأخدود . و .. سقط الحجاب . تبّدت العلامة عميقة ، كئيبة ، صارمة ، يمتزج فيها نبل الخفاء بقبح الوعاء، بهاء السماء بخشونة الصلصال ، غموض السّر ووقاحة البدن . إيماء الاضداد هو ما يستفزّ ويقود إلى الإغواء . هو النّداء . هو السّم الذي يصيب الذاكرة بالبلاء فتقع في أسر الظلمات والنسيان .

سقطة الحجاب كانت رحمة . استرخاء اللثام ، وانكشاف العلامة أعاد الحياة للذاكرة ففزّ في الحال وابتعد . التقط « امَوَال » (*) بيد اربكتها الرجفة ، وستر العلامة باللّفام . أحكم الزمالة حول الأنف دون أن يتوقف عن متابعة البسمة في العين . لم يبدُ أن أمراً تبدّل في

* أموال : الطرف السفلي من اللثام .

مسلك الصبيّة . لم تتسع الحدقتان ، لم تنطق المقلتان بدهشة . لم يتكلّم السواد بالعار ولا بالشماتة . رأى نفس الإيحاء القديم. نفس النّداء الأبدي حتى أنه أيقن أنها لن تتنازل عنه حتى لو دخل زُحل الكريه بيت الأعداء ، وولول النذير بالنّداء ، وهرع النّادبون إلى الخباء ، واستلقت في النّاووس لتذهب إلى بيت الأبد .

ادرك حمقه ، وفهم أن السّحر نفسه سيعجز عن رمْية في دغل الخطر لو لم يصب بالبلاء ويفقد البصر . نعم . نعم . الأعمى ليس من فقد نعمة البصر ، ولكن من فقد الذاكرة أكثر عماء وشقاء لأنه لن يعرف السعادة .

(٦)

كتب له الساحر رموزاً مجهولة على رقعة غزال . ثناها في قطعة مربّعة ورسم عليها العلامة بالنار . علّقها في رقبته وعاد يقول كأنه يكلّم نفسه : «إيّاك . الخفاء يحكم الأحبولة ، ويتباهى بإتقان الشرك فاحترس!» . ثم تكلّم عن حيل الخفاء طويلاً ، وحثه على الفرار كثيراً . وعندما استيقظ في الصباح وجد أن العابر قد اختفى . فلم يعرف عما إذا كان ساحراً من أهل الصحراء، أم كاهناً من كهّان قبائل الخفاء .

وفَى بالعهد ، وحاول أن يعمل بالوصيّة ويبتعد . لم يعد ينزل

العرق في عودة المساء . تعمّد أن يسلك طرقاً أبعد ، تلتف على الروابي الوعرة ، وتطوّق الخلاء الذي يتمدّد شرق الواحة . كما تعمّد أن يبدّل سبل الخروج . فيهش القطيع قبيل طلوع القبس ، ويعتلي بها المرتفعات الشمالية . يقطع مسافة شاقّة كي يعود بالقطيع غرباً حيث تنتظره المراعي السخيّة . يترك الاغنام في المراتع ويخلو إلى نفسه ليتفقّد الوسم. يملأ الوعاء سلسبيلاً ، يزيح طرف اللّفام عن أرنبة الأنف ، ينحني على الوعاء. يستمّر الماء يتموّج ويتململ ويجود بالدوائر . يستعيد السكينة ويهدأ فيصير عيناً وديعة غامضة ترنو بحزن إلى السماء . تتألّق بوميض كأنها مقلة تترقرق بالدّمع . تتأهب للقِران ، تبدأ طقساً مجهولاً ملفوفاً بسّر يفوق الأسرار التي تتغنّى بها مواكب النساء في مواسم القرانات . تتلقّى إيماء ، وتهرع لقبول الصورة الخفيّة . ولكنه يتدخّل قبل أن يفوت الأوان. يتدخّل قبل أن تستولي السماء على عين الماء . يتدخّل ليمنع القِران قهراً لأنه يعرف أن السلسبيل الذي تلقّف صورة السماء لن يتقبّل صورة لمخلوق أرضي . ولم يكن الإبقاء على الوعاء تحت الأعالي البعيدة، الوحيدة ، اللامبالية ، سوى حيلة لاستحضار الصفاء ، فخّ لتهيئة الاستسلام ونيل الصورة . الناقة لا تجود بالحليب إذا لم يستعن الرّاعي بالحوار في استدار الضرع . الماء مثل الناقة ، لا يصفو ولا يرضى بتقبّل الصورة إذا لم يتحوّل عيناً ساكنة مفتوحة على السماء ، محدّقة في السماء ، مفتونة بالسّماء ، لأن الماء كمسافر تاه واغترب عن الوطن ، لا

يعترف بالأرض إذا لم تكن الوطن الاوّل ، ولا يرى بهاء غير بهاء السماء الأولي.

والماء يخونه الإلهام ، ويعجز عن التلقّي عندما لا يستدرج بالسماء . الماء يفقد موهبة العين السريّة ، ويبقى جرعة شقيّة ، بائسة ، صغيرة ، ترقد في قاع الوعاء ، عندما يفقد عون الفراغ اللامبالي ، المعاند، المعتزل ، عندما تتخلّى عنه المتاهة الزرقاء . في الماضي ، قبل أن تخرج له البليّة ويتلقّى الضربة بالنّاب المسموم ، كان السائل له قريناً أليفاً، يهرع للقائه بعين أشدّ صفاء ، ولا يتمايل كثيراً لإستدراج الألق كما يفعل اليوم. لم يجهل السّر . يستطيع أن يعترف بجهله بحيل وانتهيط ومكائد الساحرة « تيرزازت»، ولكنه يستطيع أن يتباهى أيضاً بأنه لم يجهل مسلك الماء . في تلك الأيام كان يمتلك صورة أخرى لم تشوّهها العلامة ، ولم تتقبّح بالوسم البشع ، المقزّز ، الذي يتقاطع مع مرقد القرين القديم ، ويتشبه بكعثب الانثى .

كان يمتلك صورة بتولاً سمع كثيراً كيف تغنّت بجمالها أسراب الطير ، وتعشقتها حسان الجنّ . قبل البليّة كان يهرع لملاقاة القرين في الوعاء فيتبسّم له السلسبيل ويكشف له عن قلبه ، عن نفسه ، عن عصفوره الخفيّ البعيد ، فيعرف حالاً . يعرف نفسه . يبتسم أيضاً . يغمض عينيه منتشياً ، يترنّح وجداً وعشقاً ، يحجل على رجل واحدة

محاكيا مجاذيب الاغاني ، يغنّي بأعلى صوت :

أسوض تينيري ،

وَجَّعْ آهُو سَيَغْ إِيُهودْ ؟

أهُوسيغ آدْ كسُوضَغْ تهوط إنكيل أسُوف .

جبارين يكسوض ..

جبارين يكسوض اتغهلنت تيشاغتين نالهينن (*) .

يطوف حول أشجار الرّتم راقصاً ، يعانق سيقان الطلح المكابر ، يقطع الوديان قفزاً على رجل واحدة ، يعتلي الروابي والأكام ، يتمايل ويترنّح ويغنّي حتى تستولى عليه الحمّى ، ويلفظ مع اللّهاث والانفاس زبداً كثيفاً ناصعاً . يسقط ويتدحرج ويغيب في ممالك لم يدخلها إلاّ المعتزلة ، ولم يعرفها إلاّ من امتلك الغناء على افئدتهم سلطاناً .

كان اللقاء مع القرين في الوعاء ينتهي بالسفر الطويل دائماً .

ولكن النجوم تنقلت في البروج ودخلت بيوت النحوس ،

---

* اشهدي يا صحراء ..
ألست بهيآ ؟
أخاف على بهائي من عين الخفاء ،
جبارين خائف ..
جبارين يخاف على نفسه من عشق صبايا الجنّ !

فاكتأب الزمان ، وتبدّل الحال ، وخرجت له البليّة من جوف المجهول ، واتخذت من حضيض العرق وطناً لها ، ولم تتزحزح من المكان إلاّ بعد أن أصابته باللسان ، وطبعته بالشؤم ، وسرقت منه البهاء إلى الأبد . فكيف سيكشف الآن اللّفام ؟ وبأي وجه سيقابل القرين ؟ وهل يستطيع بعد اليوم أن يتغنّى بالبهاء ؟

(٧)

اعتاد أن يستدرج القرين بالسماء كثيراً ، ولكن القبح الذي استبدّ بالصورة ، التبدّل الذي أصاب البهاء بعد ضربة النّاب ، جعلته يتجنّب الميعاد ، ويقلّل من اللقاء الحميم حتى أقلع أوكاد . غاب القرين فخرجت الجنيّة مرّة أخرى .

بعد أسابيع وجدها تنتظره على السفح الشمالي ، تتستّر بلحاف كئيب ، زادته عتمة الفجر قتامة وظلمة . ولكن بسمة العين لم تنطفئ ، والنداء لم يختفِ ، والألق تمادى ونطق بحرف جديد ، برمز جديد ، فهل هو استهزاء بتدابير الساحر ؟ هل هو استخفاف بالتميمة المزعومة ؟ أم أنه مكيدة أخرى من مكائد الخفاء ؟ شرك جديد من شراك الأنثى ؟

في اليوم الاول أخرج التعويذة الجلدية . لوّح بها في وجهها في

تحدٍّ ، فرأى ، في العتمة ، كيف وَمَضَ الألق ، وتبّدل الاستخفاف في العين فصار استهزاء واضحاً . في اليوم الثاني أتى بحرباء من الوديان وشرب دمها في الصباح قبل أن ينطلق لصعود الجبل . وجدها في نفس المكان ، بنفس القامة ، بنفس البسمة ، بنفس الاستخفاف ، بنفس التحدّي ، فلعنها جهاراً ، ورجمها بالحجارة . في اللقاء الثالث فرّ من وجهها كأنّه يفرّ من لقاء « تيرزازت» ، فعاودته الحمّى في المراعي بعد أيام . حرق قلبه الحنين ، ونسى العلامة ، وبطُلت التميمة ، فكان أول من هرع إلى سفح الجبل . سبقها إلى المكان ، وانتظر هناك طويلاً ، انتظر حتى اشرقت الشمس ولكن الجنيّة لم تأت . لم تأت بعد ذلك اليوم أبداً.

هام طويلاً ، إحترق بالحمّى ، وتسقّط أنباء السحرة واصحاب القوافل ، ولكنه وجد نفسه يتسكّع على السفح ليلاً كشبح الجنّ ، ويتسلل عبر الظلمة ويطوف بجدار البيت المحفور في الجبل . لم يفهم أين أخطأ ، ولم يتخيّل كيف تستطيع صبية عذراء أن تتدبّر سرّاً يبطل سحر الساحر ، ولم يهتد إلى السبيل فجدّ في طلب اللقاء . وكان عليه أن ينتظر طويلاً ، ويهيم طويلاً ، ويفقد الوقار والكبرياء والحياء حتى تظهر من جديد . ظهرت بصورة أخرى : أشتدّت الاستدارة في العجيزة ، وعظُم نفور الصّدر ، وازدادت الجدائل سواداً وسمكاً وكثافة ، واكتسب الوجه استطالة ونضارة وحُسناً ، وفي العينين تمادى

السّر القديم ، واستعار أمارة جديدة . استعار ، إلى جانب النداء ، كبرياء، فأدرك أن الوصول إلى السما أيسر من نيل الكنز ، وقرأ في العينين رسالة تقول أن الرّاعي يتطاول على أركان الناموس ، ويعتدي على الأعراف ، عندما يتجاسر ويعشق إبنة المسترعي . قرأ رسالتها القاسية كما قرأ قبلها في عين الماء الرسالة التي أنبأته بزوال الحُسن ، وحلول القبح ، ما أن تلقّى الضربة، واستقرّت العلامة بين فتحتي الأنف والفمّ .

نزل فيه شقاء ، وفاض قلبه بالتّيه . تيه أقسى من تيههِ الاوّل عندما شجّ رأس أخيه بالحجر ، ووأده في التّراب .

٢٦ ـ العلامة «ب»

« وجعل الرَّبّ لقايين علامةً لكي لا يقتله كل من وجده »

التكوين (٤: ١٥)

قبل أن يتبّدل الأفق ، ويكتسح القوس فيض إسمانجونيّ ، كان نجم الجنوب قد تمادى في السخاء فتدفّق فيه الشعاع الأخضر في وميض لجوج . اكتملت الدائرة ، وعاد به المسترعي من السّفر . دخل القطيع ليجلب للرضيع حليباً فاستلقى المولى بجوار موقد النّار . جلب من متاعه عهناً . غمر العهن في وعاء يفيض بالزّبد . رفع العهن المبتلّ عاليا . فتح فمه للسماء الظلماء كأنه يستجديها زخّات المطر . سقطت قطرات سخيّة في فمه ، على شفتيه ، حول رقبته ، فوق لثامه . تلذّذ وتبسّم في الظلمة . تقدّم خطوتين . انحنى فوق الحبس الحجري المستدير . أمسك خطم الجدي بيسراه ، رفع الخطم إلى أعلى . فتح فكيه بمساعدة السبّابة. غمر العهن في الوعاء باليمنى . شيّع القطعة المبلّلة فوق رأس الرّضيع. تململ الشقيّ وتملّص ، فتساقطت القطرات على الارض ، على الذراع اليسرى ، فوق رأس الجدي . استعان بركبته لتثبيت رأس الجدي . همّ بإغراق العهن في الوعاء من جديد ، ولكن الشقيّ تخلّص من قبضته ، وهجم على الوعاء . غاب الرأس في الوعاء ، غاب الخطم في كتل الزّبد . بدأ يتجرّع بنهم جرو . ضحك بصوت عالٍ . رمى بقطعة العهن واستمرّ يقهقه بصوت منكر . ابتعد خطوات . هجع . تمدّد . هرعت لملاقاته الانواء . أومأت « أشيت أهظ » . فاض ملك الجنوب بالسيل الأخضر . تلوّن الأفق واستعار القوس الصارم حياء القبس الأوّل .

اشتدّت الرجفة في شعاع ملك الجنوب ، ازداد تجّمع « أشيت أهظ » التئاماً . في المملكة دبّ الرُسل . تسلّل « إيدي» (*) ودخل بيت النساء خلسة . رآه «آمنار» (**) من عرشه الأبعد فرأى أن يفسد عليه الامر ويدبّر له مكيدة . تنقّل في البيوت متنكراً . دخل بيت المال أولاً ، ثم عبره ونزل بيت الإخوة والاخوات ، بدّل ثيابه هناك فلبس أسمال أهل السؤال. ثم خرج ومرّ في طريقه ببيت الولد عابراً ، ومكث في بيت المرض طويلاً . انتظره أهل السّر والاستطلاع حتى أصابهم الدوار . اغفوا فغافلهم . حام حول البيت السابع في غفلة من كل ذي أمر . ولكن «آمنار» لم يطرق للبيت باباً. بل خالف الناموس واجتاز إلى بيت الموت والخطر . تنقّل في بيوت أخرى ، ولم يتوقف حتى بلغ بيت الأعداء . أتقن رسم مكيدته في الطرفة التي تبّدى فيها الرأس النبيل من قوس الأفق الصارم . انطفأ سراج ملوك ، وتوارت الممالك خجلاً . في المدى الابدي الموجع حصحص وعد بهيج وتزعزت أركان الظلمة . بدأ الفراغ يشهد الميلاد المبهم . تراجع الفيض الملكي الأخضر ، ولكنه لم ينطفئ . من خلاء الشرق تولّد الشّبح . أقبل يجر ذيلاً من قبس الخفاء . في نفس الطُرفة رأى كيف تبّدل الحال في فيض الجنوب . التأمت خيوط الشعاع في ذيول طويلة ، كثيفة ، مثل ضفيرة ، مثل حبل نالت منه كل الألوان نصيباً . تمدّد الذيل المفتول من ألوان قوس قزح ، واتّجه شمالاً .

(*) «إيدي» : الكلب (وهو عُطارد) .

(**) «آمنار» : زُحل .

قطع عليه شبح الشرق السبيل واستوقفه في العراء الرمادي . فوق رأسه. أنفصل عن ذيل الجنوب شبح قصير القامة ، يتلّحف برداء داكن ، يخفي يديه في ثنايا اللّحاف . يخفي الاعضاء كلّها ، ولايبدو منه إلاّ الوجه . في نفس الطُرفة تبدّى شبح الشرق . كان اطول قامة ، أكثر نحولاً ، يضع على كتفيه رداء أزرق ، يسلّط عليه قبس الذيل ضياءً باهتاً فتتبّدى على الرّداء تلك البقع الشاحبة التي تصيب الأردية النبيلة الزرقاء بسبب الاستعمال الطويل . تقدّم المارد خطوات بطيئة ثم توقّف . تقدّم القزم الأسود خطوات ثم توقّف . وَقَفَا متقابلين . وقفا طويلاً جداً . أيقن أن رُسل الخفاء فقدوا اللسان منذ عهد لم يعرفه أحد ، ولكن القزم همهم اولاً . همهم بمقطع له إيقاع غنائي شجيّ ، فظنّ أنه لا يتقن إلاّ الغناء . ولكن المقطع استقام في اللّفظ ، واللحن استقّر في حروف الأرض ، والصوت أكتسب لغة أهل الخلاء :

– آوَزلّو . ما يْجَا آوَزلّو ؟ (*) .

هزّ المارد عمامته . همهم أيضاً . همهم بأنين موجع طويل . أنين حمّله همّاً وحنيناً وفجيعة مّا . طاف الانين طويلاً قبل أن ينفصل عن الخفاء ويعود ليصير لغة أرضية . استقام اللحن في ثلاثة كلمات :

– أما هال . إيكم أما هال (**)

طأطأ القزم . اقترب برأسه حتى كاد أن يصدم ركبة المارد .

(*) الحاجة . أين حاجتي ؟

(**) البلاغ . خُذي البلاغ .

انطلق الصوت مّرة أخرى . بدأ خافتاً ، بعيداً ، وديعاً ، مثل نغم مرسل من وتر « إمزاد » المزموم ، ثم بدأ يقترب ، ويعلو ، ويتضخّم حتى زلزل الخلاء كلّه . وحتى عندما سكت لم يتوقّف اللحن . مضى يتردّد في الفراغ شجيّاً ، فاجعاً ، يفيض شوقاً غامضاً ، ويجود بالحنين . انتظر أن يتحوّل إلى لغة الخلق ويصير كلاماً ، ولكن النغم الخفيّ لم يستقم في اللفظ أبداً . بقي معلّقاً كإيماءة ملوك الفلك ، وظلّ أغنية حتى تلاشى في الفراغ واختفى . ساعتها رأى الإشارة . رفع المارد كلتا ذراعيه عاليا . ظلّتا معلقتان طويلاً . كانتا عاريتين، بائستين ، نحيلتين كعودين من الحطب . بعدها مدّ الذراع اليسرى أمام وجهه. أبقى عليها في الوضع الافقي أمداً طويلاً ، ثم رأى العمود يزحف من جهة اليمين . زحف ببطء، وجلال ، ويقين ، حتى استقّر فوق الامتداد المسجّى في الوضع الافقي . تقاطع الذراعان وأكتمل رسم العلامة . شيّع القزم رأسه وتعلّق بالرسالة . من الأعماق المجهولة انبثق الصوت . انطلق خافتاً كطنين ذبابة، ثم بدأ يعلو حتى زعزع الخلاء . سلك نفس السبيل الذي شقّه قرينه منذ قليل . فلم يستغرب أيضاً عندما تلاشى دون أن يتحوّل إلى لغة الخلق . ولكن القزم همهم بنغم آخر ما لبث أن استقام في كلام :

– ادنسمللي تاغرا ؟ (*)

هزّ المارد عمامته علامة الايجاب . اجاب إيماءاً دون أن يمحو العلامة المرسومة بذراعيه على رقعة الفراغ . عاد القزم يغمغم :

(*) هل وجب علينا أن نقلب الأمر ؟

– تالغا تغهد ؟ (*) .

هزّ المارد عمامته مرّة أخرى . استمرّ يطبع الفضاء بالتقاطع ، ولكنه رأى أن يتمتم :

– آواد يويْد مسّينغ . (**) .

عاد القزم يئن . تراجع إلى الوراء خطوات . ارتفع الأنين في حنجرته وصار عويلاً . نحيباً . اغنية حنين مستعارة من الممالك الأخرى. اوقف الأنين رويداً ، ثم تمتم بهمس مسموع :

– آواد يواي إدْيجْ . (***)

بدأ يبتعد . انطلق ليواصل وجهة الضّدّ . اتجه شمالاً ، جرّ وراءه الذيل المفتول من ألوان قوس قزح . انتظر المارد قليلاً . تابع الذيل وهو يخرق الفراغ . استدار حول نفسه ، رسم ببدنه دائرة صغيرة قبل أن يتحرّك . انطلق ليواصل سبيله المتجه غرباً . جرّ ذيله الفاتن وابتلعه الفراغ .

فوق العراء الأبدي ، الصارم ، تمدّد التقاطع الغامض ، اعتلى الفضاء ، وتعلّق بالفراغ .

في غموضه قرأ وعيداً مكتوماً .

(*) هل فسد الحال ؟

(**) هذا ما رآه مولاي .

(***) ما رآه سوف يكون .

٢٧ - الوَبَاءُ

« وكان بعيداً منهم قطيع خنازير كثيرة ترعى . فالشياطين طلبوا إليه قائلين : إن كنت تخرجنا فأذن لنا أن نذهب إلى قطيع الخنازير . فقال لهم إمضوا . فخرجوا ومضوا إلى قطيع الخنازير . وإذا قطيع الخنازير قد اندفع من على الجرف إلى البحر ومات في المياه » .

إنجيل متّى (٨: ٣٠ ، ٣٢)

(١)

منذ أن استيقظ ووجدها تقف فوق رأسه بذلك القدّ المشدود ، بتلك المقلة الخفيّة ، أدرك أن المُلْك تبدّل ، والزمان أكتأب ، والحظ استدار وأعطاه القفا ، والرّخاء سلك سبيل الأبد . ادرك أن الدّور سينقلب ، والبكرة على البئر ستنقصف ، ونذير الشؤم سيطوق المدى مناديا ، لأن البلاء يقرع أبواب الخلاء . أدرك أن الأجل حلّ ، لأنه يعرف، كما يعرف كل من رضع حليباً من ثدي الصحراء ، أن «تيرزازت » لا ترد النجوع ، ولا تدخل دائرة الدّمَن ، ولا تقرب من مواقع الإبل ، ولا تقف على رؤوس الرعيان لتوقظهم من النوم ، إذا لم تأت بالخبر ، إذا لم تحمل في عينيها الخفيتين ، المخيفتين، رسالة الوعيد من ظلمة الخفاء .

أغمض عينيه في ذلك اليوم ، ودعكهما بيديه . دعكها طويلاً . تمتم بالتمائم كلها وهو يدعك العينين . تهدّل اللثام اثناء الليل فتمدّد القرين في رقدة الأزل ، وهبّ امتداد آخر شقّه لسان النّاب ، ليرسم بعدوانه أخدود المكيدة ، ولكن اليد لم تمتد لتستر العلامة ، لأنه لم ينسَ العلامة حسب ، ولم يتجرّد من الاحساس بالعار وحده ، ولكنه تمنّى أن تستمر الظلمة ولا يفتح عيناً على صحراء امتلكها كوكب النحوس ، وآل فيها السلطان إلى الشريرة « تيرزازت» .

ولكنه لم يركب جناح الدائرة ، ولم يرافق الجنّ إلى ممالكهم ، ولم تطر صورة الصحراء من الصحراء ، بل ، ويا للبلاء ، لم تختف قامة الساحرة ، عندما توقّف عن مطاردة الرّؤى ، وفتح عينيه لينعم برؤية الفردوس القديم : العراء ! .

كانت تنتصب على قائمتيها الخلفيتين ، تضم يديها الاماميتين على صدرها ، من اليد اليمنى تبدّى مخلب أزرق كسبّابة وعيد . تبدّى وتمدّد حتى لامس شعرة شرّيرة من شوارب نادرة ، طويلة ، متناثرة حول خطم كريه يزمّ شفتين غليظتين على هاوية بشعة فيها تختفي أنياب أشرس من أنياب السّباع .

الاذنان مسترخيتان ، مستلقيتان إلى الوراء ، والعينان جاحظتان ، ساخرتان ، لئيمتان ، تخفيان الأمر ، وتتبسّمان بالشّر . كانت ككل السحرة القدماء تتبدّى وديعة، بائسة ، تفرّ من غول مجهول ، ترتجف وترتجف بحثاً عن عون ، طلباً للحماية من ضحايا جاءتهم بالبلاء .

ضحايا أنزلت على رؤوسهم اللعنة منذ أن وسوس لها الشّر ونقلت لهم بشارة «آمغار» معكوسة . يوم استثارته بفعلها القبيح فنالها بالمسعر في خطمها . أنشقّت الشفة إلى ضلفتين ففرّت من « آغرم نودادن » لتنقل دمغة الزوال إلى مخلوق الصحراء . نال الإنسان ختم اللّعنة ، وتمدّد القرين في عرين محفور بين الأنف والشفة . واليوم جاءت تتلحّف بالزغب الإسمانجوني المستعار من فيض القبس حاملةً نفس النّبأ .

أقبلت بالنّداء راجفةً ، تتلمّس غفران الضحيّة ، لأن حكمة السّحر تقول أن البلاء لن يتسلّط ، والفعل لن يأتي مفعولاً إذا فشل الجلاّد في استعارة دور الضحيّة ، ولم يستطع أن يتنكّر في جلدته . هذا الاستجداء في عينيها علامة، وهذه الرجفة في هيئة البدن أمارة . فلماذا التمهّل في أمر قدّره الخفاء ؟ لماذا الإبطاء في مصير لن يتأخر به الزمان ؟ لماذا الخوف والتردّد في بلاء لن يكون منه بدّ ؟ وهل يقدر الظلّ البائس أن يتدخّل في إرادة السماء ، ويغيّر احكام النجوم ، ويقلب حركة الفلك رأساً على عقب ، إذا أنتهر الرسول وأصاب « تيرزازت» بالمسعر ؟ هل ينقلب زُحل على عقبيه ، ويُدخل المشتري في بيت السعود ، إذا شقّ للساحرة الشفة السفلى أيضاً ؟ ثم مَنْ مِنْ السّحرة خالف الناموس وضمن نهاية الأمر ؟ مَنْ مِن السّحرة يستطيع أن يجزم أن الخبر الأسوأ لا يتحوّل في نهاية الطواف إلى خير سخيّ ؟ من تجاسر وأخبر أن الأمر لا ينقلب ضداً عندما يستوي الأمر للدائرة ويحكم الزمان ، في سيرورته ، بناموس الخفاء ؟ ألم يخبره « وانتهيط» بالسّرّ عندما قال أنه لا يفعل خيراً أبداً حتى لا يتحوّل إلى شرّ ، ولا يفعل إلاّ شرّاً لأن ما نظنّ أنه شرّ هو الفعل الوحيد الذي ينقلب بمشيئة الزمان ، كما ينقلب الذهب في جوف الأرض ، ويتحوّل خيراً إبريزاً ؟

شيّع الغطاء . فتح لها سبيلاً إليه . فقزت إلى الجوف . احتواها بين ذراعيه . تحسّس زغبها اللّميس بوجنتيه . سرى فيه الدّفء . سرى فيها

الدّفء . احتضنت الضحيّة بدن الجلاّد . احتمى الجلاّد ببدن الضحيّة . دسّت خطمها في صدره . بحثت عن السّر لتبوح له بالسّر . بحثت عن بقعة ضوء لها بدن عصفور لأنها تعرف أن العصفور هو الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يلتقط الاغنية ويفهم إيماء الخفاء . قالت باكية أن الخلق لا يعرف أن حامل نبأ الخفاء أشقى من ضحية ينالها البلاء ، لأنه رسول يضيق بوباء الاقدار ، ولا يملك من قدره خلاصاً .

انتفضت بعنف . اطلقت أنيناً مزموماً ، موجعاً . تحسّسها بوجنتيه. لامس الزغب الكثيف ، اللّميس ، بشفتيه . همس في أذنها الطويلة بتمتمة شجيّة . تمتمة تحوّلت إلى اغنية من أغاني أهل الاعتزال . في الأغنية الشجينة الشهيّة التقط لحناً بعيداً ، غريباً ، تخفّى في الإيقاع . كان لحناً داخل لحن . . كان وحياً . كان .. نواحاً ! .

(٢)

لم يصدّق مارآه بعد يومين .

لم يصدّق أن تتساقط الماشية بالعشرات ، والعشرات ، والعشرات، في كل يوم، دون أن يجرفها السيل ، دون أن يحلّ في المراعي الجدب ، دون أن تختلي بها الذئاب . لم يصدّق عندما استيقظ في اليوم الأوّل ، ووجد الموقع مفروشاً بالجثث . جثث ، جثث ، جثث .

استبدّت به الحمّى طوال النهار ، وتولّته « اللّهاهت» (*) فلم يفهم ، ولم يصدق ، ولم يتحرّك ، ولم يهرع بالنّبأ إلى الجبل . في الليل اشتعل بالحمّى ، ولكنه ظلّ يزحف على أربع داخل القطيع الليل كلّه كشبح الجنّ . حرث الموقع ببدنه ، ولامس أجرام الدواب ، وعانق رقاب المعز ، وتمسّح بالجداء ، وتنفّس فحولة التيوس ، واجترّ علّيقاً مريراً ، ولكن يقظة الظلمات وحرص الليالي تبدّدت بضربة واحدة من فجيعة النهار . انشقّ الأفق بالقبس الاسما نجونيّ النبيل فاستبشر خيراً ، ولكن الأمل تبدّد مع ميلاد الشعاع . دبت الحياة في الخلاء فاستجاب القطيع للنداء . تحرّك القطيع إلى المراعي فاكتشف أن قطيعاً مهيباً تخلّف في الموقع . تفقّد الأجرام فوجدها جثثاً تفترش العراء في استسلام أبدي . لا أثر لأنياب ، ولا جراح لعراك ، ولا وجود لنزيف الدّم . غيّبه دوار ، وغصّ الصدر . ارتفعت في الحلق كتلة مريرة . انكفأ وتقيّأ . ثم تحامل وزحف . قطع العراء زحفاً إلى الجبل . سلخت الحجارة يديه ، وأكل التراب ركبتيه ، وتقاسم جلده مع انياب السبيل ، فلم يعرف ، ولم يعِ كيف بلغ الواحة . ولكنه تذكّر استجواب المسترعي ، ولم ينسَ ضحكاته الكريهة إلى الأبد .

في الفراغ الممتدّ أمام الكهوف دلق العبيد على رأسه ماء سخياً ، وأجبروه أن يتجرّع مراهم نتنة ، ثم أمره المولى أن يتكلّم . لم يمتثل

---

* « اللّهاهت » : ضرب من الفزع يشلّ البدن ، وينزع اللّسان ، ويقعد صاحبه عن الحركة .

للأمر ، ولم يتكلّم في الحال ، لأن العقدة لم تنحلّ ، اللّسان الذي نزعه الهول لم يعد إلا بعد أن أذن الخفاء ، واستجابت الافلاك ، وحكمت النجوم بالاوان . غالب « اللّهاهت» طويلاً ، ثم خرج البيان في كلمة واحدة :

– الوباء !

تبادل العبيد نظرة حائرة ، وتناطح الأكابر فضولاً ، وتضاحك الاطفال باستهزاء قرأ فيه حقداً واستفزازاً ، ومال المسترعي على رأسه حتى تلامست قطع الكتّان على رأسيهما ، فوجد نفسه يعيد النّبأ مثنى وثلاث ورباع . أعاده تمتمة مجهولة . أعاده حتى استوقفه المسترعي بإسم ناموس الرّعي . استوقفه بإيماءة صارمة ، وهأهأ بضحكة قرأ فيها إهانة . اشتعل بالكراهية ، وبذل جهداً كي يتكلّم بالبلاء :

– القطيع ..

ازدرد ريقاً مريراً ، واختنق بالغصّة . ألقى بالبلاغ أخيراً :

– القطيع هلك !

بعدها خطفته يد مارد . نزلت ظلمات واختفت الصحراء . ابتعد اهل الفضول ، وارتفع اللّحن المبهم في مملكة السكون . وكان يتوق للتنعّم بالأغنية طويلاً لو لم يخلف المسترعي وعداً ، ويكسر ركن الناموس ، ويزلزل السكون في مملكة السكون بتلك القهقهة التي كُتب

له ألاّ ينساها إلى الأبد .

انطلق الزعيم يكركر بالضحك . ضحك مُنكر ، قبيح ، مقزّز ، لم يسمع أكابر الصحراء له مثيلاً ، فأحسّ نحو المسترعي ، في ذلك اليوم ، بالكراهيّة لأوّل مرّة .

(٣)

– هذا الدّاء من تلك العنز !

لم ينتظر حكيم الحيوان إشارة الزعيم . فرغ من تفحّص الأجرام. حدّق في الفراغ بعينيه الفارغتين المستورتين بغلالة من البياض . ألقى بالعبارة بلا مبالاة قاسية تحاكي لا مبالاة الصحراء . أحكم عباءته الصوفية حول صدره الهزيل ، ركب ناقته العجفاء . دمدم بلحنٍ غامض. انطلق غرباً . تابعه الزعيم طويلاً . ثم تسكع في العراء زمناً آخر. ركل الحجارة بغلّ . ثم توقّف وطارد شبح الحكيم وهو يعاند الأفق، ويراقص أسمالاً هزيلة لسراب كسول .

في الغد جاء بالسّاحر .

الساحر أيضاً كان غريب الأطوار .

تفحّص ميتةً واحدة ، وألقى نظرة عابرة ، شاملة على القطيع .

شبك يديه وراء ظهره . تابع الإمتداد الفاجع احتدَّ في المقلتين بريق خفيّ . همهم بصوت ليس أغنية وليس تعويذة . من الفراغ الخالد عاد بالنبوءة : « إذا تمكّن الدّاء لم ينفع الدواء » .

تقدّم منه الزعيم . سكت طويلاً قبل أن يحتكم إلى الحجّة :

– سأنحر من الرؤوس سبعاً . ألن يشفع دم الرؤوس إذا بلغ العدد سبعاً ؟

– لقد دخل الوباء واستفحل الدّاء .

– اعترف الآن أن الامتناع عن النحر كان تساهلاً منّي منذ أوّل يوم ، منذ حدثتك النجوم بالإشارة .

– فليسمح لي مولاي : لم يكن ذلك تساهلاً منك ، ولكنه كان استهتاراً بالناموس . لماذا لا نسمّي الاشياء بأسمائها الحقيقية ونقول أن ذلك كان استهتاراً لا يليق بزعيم ولّته القبيلة أمرها وجعلته على نفسها سلطاناً ؟

– اعترف أن ذلك كان خطأً ، ولكنه لم يكن بُخلاً بالقربان .

– ناموسنا لا يغفر الاستهانة بالإشارة !

– من اعترف يأثم كمن لا إثم له . أليس هذا عُرفاً في الناموس أيضاً ؟

– لناموس السّحر ركائز أخرى . هل غاب على مولاي أن لناموس السّحر ركائز أخرى ؟

– كلاّ . ولكن أعرف أيضاً أن ناموس السّحر مستعار من ناموس الصحراء أيضاً.

– مهلاً . مهلاً . ناموس الصحراء يقول أن الاعتراف بالإثم فضيلة نبيلة ، وناموس السحر يقول أن من استهتر بالعلامة سعى إليه الجزاء . ناموس السّحر في هذا الشأن أكثر صرامة من كل ناموس .

– ولكن ألا يمكن إنقاذ القطيع ؟ ألن تجد حيلة في الناموس تصلح لاستعطاف الخفاء ؟

– هيهات . إذا تمكّن الدّاء لم ينفع الدواء .

– يليق أن أسمع هذا من عطّار ، فأين حكمة السّاحر ؟

– تطبيب الأجرام أيضاً سحر ، وأصحاب العشب علماء .

– لو كان أصحاب الاجرام علماء بالأبدان لنلت النفع من حكيم الحيوان . هل تصدّق أن حكمته لم تهده لشئ أبعد من القول : « هذا الدّاء من تلك العنز » ؟

– السّر الكبير في القول الصغير .

– السّرّ الكبير في القول الصغير ؟

– لقد أخبرك بكل شيء .

– الحق أني لم افهم .

– ألم تنزل علامة الخفاء في العنز ؟ ألم أقرأ لك الإشارة بنفسي ؟ ألم أحثّك على تجريد المدية من الغمد ؟

– ها أنذا الآن أبدي الاستعداد لتجريد المدية من الغمد .

– هيهات . إذا تمكّن الداء لم ينفع الدواء .

– لو انقذت القطيع لنلت منّي أجزل عطاء . تمهّل قليلاً . لا تستعجل الفجيعة . أنت تعلم ما حدث بيني وبين وانتهيط . أنت تعلم أنّي رفضت له العرض مرّتين . أنت تعلم أنّي عاندت دهراً لأثبت للداهيّة أن الإنسان يستطيع أن يربّي الرزق الشريف دون أن يضطّر للسفر وراء التّبر ودون أن يضطر للإغارة على جلالة الزعيم في «آزجر». تمهّل ولا تتخلَّ عن القطيع . تمهّل . لا تتخلَّ عنّي . لا تتخلَّ....

– ليتني استطيع أن أهرع لنجدة مولاي . ليتني أستطيع أن أخالف ناموس السّحر . ولكن عفوك يا مولاي ، فأنت تَعرف أن السّاحر الذي لا يريد من الدنيا إلاّ السكينة ، لا ينتظره إلاّ البلبال إذا تجاسر وخالف النّاموس .

(٤)

يَسْكَفْكَفْ . يسكفكف . يسكفكف (*) .

غاب السّواد من المقلتين ، وتسلّط البياض . تهدّل اللثام وسقط عن الشفتين ، فنفث الفم مزيداً من الزّبد . تسكّع في العراء ذهاباً وإياباً . تسكّع بخطوات مزمومة ، ممسكاً بعمود شرس ، غليظ ، في حجم جدع طلحة ، يتخذه عكّازاً يستعين به على البلاء ، ويدق به عنق الأرض في ضربات تهوي إلى الأسفل مع كل خطوة .

استحقّ منه شفقة ، ولكن قلب الرّاعي يتحجّر أيضاً ما أن تتلف الرعيّة . قلب الرّاعي يتحجّر ويعود في النجع غريباً كما كان ما أن يستهتر المسترعي بأركان الناموس ، ويزلزل «واو» الخفيّة بقهقته الكريهة. قلب الرّاعي يتحجّر ما أن يتنزّل الضّحك ويستولي على السلطان في الصحراء . فالرّاعي يستطيع أن يتنكّر لناموس الرعاة، ويستعير التساهل من أهل العزلة ، ويغفر للمسترعي رمية الحجر ، أو حدفه العصا ، أو حتى سبّة الأمّ ، ولكنه لا يستطيع أن يغفر الاستخفاف . لا يستطيع أن يغفر الاستهزاء . لا يستطيع أن يغفر المُنكر . لا يستطيع أن يتساهل إذا تعلّق الأمر بالضّحك. أم بلغ الغُشم بقبيلة الجبل حداً سلّمت فيه أمرها لسلطان يجهل ناموس النواميس ، ولا يعرف شيئاً عن حقيقة الضحك ؟ زعيم لايرى عاراً في أن يتعلّم السّر من مخلوق أخذه

---

* لفظ زبداً . لفظ زبداً . لفظ زبداً .

من يد « وانتهيط» وأخرجه من ظلمات النسيان ، وأسكنه الأرض من جديد عندما خلع عليه إسماً ؟ هل على الرّاعي أن ينتهر المسترعي بالصوت المسموع دون أن تنشق الأرض عن هاوية ، ودون أن تفرّ السماء من موقعها في السماء، ودون أن يفسد الدّهر وينقلب على عقبيه ؟ هل يتجاسر العبد ويرفع صوتا لإسماع المولى بحقّ غاب عنه ؟ هل يملك من تلقّى الأمر الحق في أن يشدّ وليّ الأمر من أذنه ويخبره بسّر الضحك ؟ أم يكتفي بالتفرّج على أمرٍ رفضته الأرض ، وتنكّر له الزمان ، وخرّبه بلبال الدّنيا ؟ هل يعقد يديه حول صدره ، ويقف جيداً ليرى ما تفعله علامات الخفاء بمن لا يُحسن قراءة علامات الخفاء ؟ هل يقف بعيداً ويتعلّم أن الدّائرة حق ، والاطمئنان إلى الزمان خَبَل ، وتربية الرزق الشريف خرافة ، و«وانتهيط» كان أحكم عقلاً عندما رمى الكنوز بألف لعنة ، وأخذ على عاتقه أن لا يفعل خيراً مدى الحياة ، لأن ناموس الدائرة هو الذي سيّر النجوم ، وسخّر الأفلاك ، فتحوّل المسيرة الخير إلى شرّ ، كما حوّلت الشّر إلى خير ؟

وقف بعيداً حقّاً . وقف بعيداً يرقب العلامة . يرقب بؤس الحال عندما ينقلب الأمر ويؤول الأمر إلى الزوال . يرقب السلطان وهو يتخلّى عن السلطان ، فينقلب الكبر ذُلاً ، والنّبل وضاعة ، والبأس يأساً، والعقل جنوناً ، والحكمة استهتاراً .

تذكّر يوم سلّمه القطيع أول مرّة ، واستعاد عندما أخبره أنه إنما

يسلّمه قلبه إذ رضى به راعيا . لم يستعد القول وحده ، ولكنه استعاد الصورة . بل صورة الشيخ ذلك اليوم كانت أهم من كل قول . لم ير حرصاً في عينيه عندما تلفّظ بالقول ذلك اليوم ، ولكنه رأى طفولة . طفولة لم يخرّ بها الحرص ، ولم ينل منها إثم الضّحك .

صورة الطفولة وحدها استطاعت أن تهزّه ، وتنتزع من صدره أنبل عاطفة عرفها الإنسان : الشفقة .

(٥)

قال السحرة أنها أنبل من المحبّة ، لأن في المحبّة انتظار لمحبّة مقابل المحبّة . قالوا أنها أنبل من الجُود ، لأن الجُود صيت ، والصيت نفوذ ، والنفوذ دائماً سلطان السلاطين في كل زمان . قالوا انها أنبل من الفضيلة، لأن الكثيرين من أهل الاعتزال رأوا فيها زُلفى لسلطان الخفاء ، والزُّلفى رياء حتى لو كانت قرباناً لسلطان الخفاء .

قالوا أنها أنبل من النّبل ، لأنها نواحٌ لا يُرجى من ورائه رجاء ، وصلاة بلا غفران، وحنين بلا وصال .

قالوا أن النُّبل لم يسمَّ نُبلاً إلاّ عندما وُجدت الشفقة ، فلم تكن نعتاً لهذه الخصلة الجليلة ، ولكنها صارت هي النّبل ، كما جبّت قبلها بقية الفضائل ، فصارت محبّة ، وجوداً ، وفضيلة ، وكل أمر كان ناموس الاسلاف به مبشّراً ، وله داعية .

٢٨- الجَدْيُ

«كل ما ليس أرقط ، أو أبلق ، بين المعزى ، وأسود بين الخرفان، فهو مسروق عندي».

سفر التكوين

٣٠:(٣٣)

(١)

بدأ بالحرباء.

دخل احراش الرّتم ، وخرج بالطريدة . يغلب في جرمها اللون الأخضر ، ولكن العرقوب مشطور بشريط أصفر ملتوٍ كبدن حيّة . نحرها في ميعاد الغسق ، وترك الساحرة تنزف الدّم في الوعاء طوال الليل . في الصباح تجرّع السائل المتخثّر . ألقى بالرأس إلى الجمر ، وتحمّم بالبخار الكريه .

في المساء تسلّل إلى الواحة . في قلبه شفقة ، وفي يده فخّ . اصطاد فأراً بحبّة تمر ، وترك الفأر طُعماً للسّنور في الفخّ . ولكن السّنّور الذي وقع في الفخّ لم يكن أسود كلّه . في رقبته تألقت رقعة كبيرة من بياض . فهل يتساهل الخفاء مرّة ، ويغضّ الطّرف عن البقعة المشؤمة ؟ الخفاء مثل الزمان ، متقلب المزاج أيضاً . يروق له كثيراً أن يتساهل في وقت لم ينتظر أحد منه هذه الهبة . كما يظهر مُستفزاًّ في وقت توقّع فيه الخلق منه التساهل . فأي حيلة تقود للفوز باللّين ، وأي تدبير يستطيع أن يستعطف الخفاء؟

نحر السّنور في وادي الجنّ . اشعل ناراً . وضع الرأس على الجمر . تحمّم ببخار الشياط، وأكل لحم الرأس ومخّه وعينيه وأذنيه .

أكل كُلّ قطعة تعلّقت بالرأس كما قضى النّاموس .

بعدها جاء دور البحث عن الجلاّد .

جاد دور الجلاّد الذي استعار منه دور الضحيّة وأختبأ بين يديه يوماً . جاء دور الرّسول الذي أقبل عليه بالنّبوءة فلم يتأخّر نزول البلاء .

نزل الوادي ما أن استعار الافق لون السماء ، واغدق القبس فيضاً اسما نجونياً على الخلاء. بدأ المسيرة في المكان الذي استسلم فيه السّهل، وتخلّى عن شعفة المرتفعات . تعرّج الوادي في إنحداره نحو الأسافل ، وفصّل من بدنه شركاً لئيماً للإستخواذ على المطر .في الأعالي طلع اللّعاع ، وتعلّق العشب بأرض كستها حجارة جرفتها السيول من الشعاف ، وشذّبتها ألسنة المياه بمشيئة الزمان . ولكن « آشك مقرّن » (*) استأثر بالأعماق مع امتداد الوادي وإتّساع ضفتيه ، فتكاثف الرّتم في المجرى ، وتنافس السّدر مع البطم لإحتلال الشطآن .

تلوّى مع السبيل ، وتوغّل في سفر الوادي إلى الاسافل المجهولة . كانت قساوة الأرض تلين وتتساهل ، والعرض يتسامح ويتسع كلما مضى الوادي إلى الأمام وأقترب من السهول السّفلى . في الأحراش رفرف الطير ، ولكن الكائنات لم تجرؤ على تدنيس النّداء ، فمضى السكون النّبيل يتغنّى بلحنه القديم.

---

* الشجر .

على تجاعيد الرمل زبرت مخلوقات اللّيل رسوماً وعلامات ، ولكنه لم يجد وقتاً لقراءة الرموز . قطع مسافة أخرى . أحتلّ الرقعة رسم جديد . وجد مخلوق جديد سبيلاً إلى أرض الدائرة . أكتمل نصاب المجلس في قبيلة الظلمات ونال تدبير الدّهاة مُصابٌ . كفّ القنفذ عن ملاحقة الجُعل المقدّس ، وتراجعت الحيّة عن مكيدتها لاستدراج الفأر ، لأن « تيرزازت » عندما دخلت الحرم ، تبدّلت المملكة، وأصاب الدهاة تحوّل ، ونزل إلهام كان قبلها من نصيب النسيان ، واستيقظت في صدور المخلوقات عداوة الأزل . سعت الحيّة إلى الجُعل المقدّس ورمته بالفحيح لتذكّره بصفقة العهد القديم ، قفز القنفذ إلى الحيّة ليعلّم أحيل حيوانات البرية أن فوق كل ذي علم عليم ، ولا وجود لسلطان مالم يمتلك السلطان على الزمان .

دخلت « تيرزازت » ارض الدائرة فدبّ الخلاف ، واستيقظت العداوات ، وحلّ في المملكة الخراب .

(٢)

لم تندس في ادغال الرّتم ، ولم تجاور أعشاش الطير في أحراش السّدر ، ولم تسع وراء الحيّة وتتخذ من ظلمات التراب وطناً ، ولكنها أختارت جنّة تليق بالجنيّة . انكمشت في تجويف شقّة السيل في حضيض

أكمة في قامة « أدبني » . غابت الأرجل في نعيم الزّغب الفضيّ ، انكسر كبرياء الشارة التي تتوّج الرأس كرمحين من رماح الاعداء ، وغابا أيضاً في الدّغل الفضي الوتير . تحلّق البدن وانكمش في دائرة حكيمة، وديعة ، نالت من صرامة النّاموس نصيباً ، ومن سكينة السماء نصيباً ، ومن لا مبالاة الصحراء نصيباً .

الانفاس وحدها تكلّمت . الانفاس وحدها أفشت السّر وقالت أن الدائرة ليست صحراء ولا سماء ، ليست كنزاً وليست وصيّة تخلّفت عن الأسلاف . الانفاس وحدها أخبرته أنه عثر على كنز أنفس من كل الكنوز ، لأنّ فيه من السماوات سرّ، ومن الصحراء سرّ ، ومن الوصايا سرّ ، ومن كنوز السحرة القدماء سرّ وسرّ والف سرّ . بالأمس فرّ من وجهها الخلق الصحراوي لأنّها قلبت الوصيّة وبشّرتهم بالنبأ الأسوأ فرجموها بالشؤم ، وقالوا أنها سبب كل بلاء . بالأمس وقفت فوق رأسه ترتجف لأنها ضاقت بحمل أنباء السّوء ، واحتمت به فراراً من عبء المهمّة الخالدة . ولكن البلية لم تتأخر . واليوم تتحامل الضحيّة على نفسها ، تدبّ في العراء طلباً للجلاّد ليردّ إليه العطيّة ، ويبعد عن القطيع الوباء . والضحيّة لا بد أن تقتفي أثر رسول السّوء لتحتمي به من السّوء . والأسلاف هم من وضع العُرف عندما ذهبو إلى « تورها » (*) ليستقطعوا من اعرافها عوداً يحتمون به من شرّ قرأه العرّاف في عظام

* تورها : شجرة بريّة سامّة .

القرابين . الأسلاف هم من سنّ الناموس ، واقترنوا بنساء الجنّ ، لأنهم عرفوا أنهم لن يستطيعوا أن يحاربوا عدوّاً يسكن الخفاء . والضحيّة لا بد أن تشرب الدّم من النحر ، وتعلّق اليد في الرّقبة ، إذا جاء الميعاد الذي يجب أن تتحوّل فيه إلى جلاّد .

(٣)

شرب دم النّحر ، وعلّق اليد في الرقبة .

تدلّى اليد الخفيّ على الصدر العاري فداعب المخلب التندأة . تلقّى البدن ضربة الجنّ. دبّ الشّر في العروق ، وتدفّق المسّ في سبل الدّم . تلوّى كمجذوب الوجد ، زفر صهداً حارّاً كنار القبلى ، لفظ زبداً كثيفاً ، ناصعاً كزبد القريع ، توجّع بعواء فاجع ، تلوّى . لاحق بعينيه الجاحظتين عدوّاً مجهولاً . ثم .. ثم خرج من الاحراش زحفاً على أربع. برطم بلغة أهل الخفاء . غنىّ اشعار الجنيّات . جادل سحرة الاسلاف بوقاحة الدهماء . قطع الوادي طويلا. اقتربت الالتواءات العنيدة من رأس النبع ، فتراجع البطن عن اللّين عندما تجّهم المرتفع وتوعّده بالصّلد والأحجار . لم يخفه الوعيد . المخلب المسلّط على التندأة ، والنّار التي تشتعل في القفص ، استهانا بالوعيد ، واستخفافاً بكل تهديد يأتي لنيل الجرم .

قطع مسافة أخرى زحفاً .

أعتلى المرتفع . اقترب من جمع كان بالأمس قطيعاً لا يستطيع أن يعدّه رجل واحد في يوم واحد . قطيع يحجب الخلاء إذا سكن أرضاً ، ويرفع في الفراغ عجاجاً من غبار اذا انطلق الى المرعى . وإذا تحرك تحرّك الأمتداد كلّه وعام الأفق ورقص بالرؤوس كما ترقص السنة السّراب . وإذا نزل المراتع السخيّة ، المفروشة بعشب السيول الموسميّة، تسابق رعاة القبائل المجاورة في وصف الحال مجازاً ، وقالوا بلغة الأشعار، أن جراداً يأكل الشجر ويلحس الحجر ، غزا المراعي ، وقضى لهم على كلأ المراتع . كان رقعة تماثل الخلوة الرمادية التي تمتد في الصحراء وتتمدّد إلى الأبد . ولكن أي ساحر ذاك الذي نزل عليه ضيفاً وجاءه بوصيّة من ناموس الخفاء ؟ أي ساحر ذاك الذي قال له بلسان الاسلاف الاوّلين أن رأس الحكمة أن تعتدل في كل أمر ، وتعرف نفساً أقرب لك من حبل الوريد (وإن كان الوصول إليها دائماً أصعب من الوصول إلى « واو ») ، وأن تتعلّم ألاّ تضمن أمراً لا تدري كيف سيجري به الزمان ؟ يستطيع ان يستعيد بُنيته النحيلة ، وبشرته النحاسية، وذلك الوميض الذي تألّقت به المقلتان عندما استولى عليه الحنين فذكّره بالألق الذي تفيض به عيون المعتزلة . توجّع بأنين الحنين طويلاً ، ثم انطلق يروي السّير. روى له سيراً ممتعة عن مسلك الزمان . وعندما أستيقظ في الفجر، وجد مكان العابر فارغاً . قرأ تميمة ، وتحمّم بنسمة سخيّة من

الشمال ، ودبّ في الأرض .

نسى سيراً كثيرة رواها لعابر عن حيل الخفاء في تلك الليلة ، نساها لأنه تعلّم أن للحكمة خصال الكنوز التي تستحيل إلى رماد الدّمن إذا لم ينحر على الموقع قربان . الحكمة أيضاً تتفسّخ وتصير من نصيب النسيان ، إذا لم يهرع إليها الزمان بتجريب ، أو قساوة ، أو إمتحان . ولكنه لا يعرف لماذا إنتزعت حكمة العابر من قبله مكاناً برغم أنه لم يخضع بشأنها لتجريب ، ولم يرمه الزمان بقساوة ، ولم يخض وحل الإمتحان . إذْ ما يدرينا لماذا يروق للخفاء أن يثبّت أمراً في قلوبنا نراه في البداية أقل شأناً ، ولا ينكشف لنا سرّه إلاّ إذا أذنت النجوم ، واستوت الأفلاك في الأبراج ، واتخذ « آمنار » من بيت الأعداء وطناً ، فينزل المصاب ، وتحل على الاسافل البلوى ؟

ركن للزمان ، وظنّ أن القطيع إذا تكاثر ، وصار بعدد احجار الخلاء ، أو حبّات الحصى في الوديان السفليّة ، نجا من سلطان الزمان ، وبقى نعيماً أبديًّا . ضمن أمراً جرى به الخفاء لسرّ لا يلعمه سواه ، وهنّأ نفسه على نعيم لم تزرعه يداه ، ونال وعداً بحسناء المستحيل ففرّك يديه، واخفى العلامة باللّفام ، وسال من فمه لعاب القِنيَة ولذّة الفوز . ولكن البنيان تزلزل بضربة المجهول في ليلة . استيقظ فإذا الجمع دِمَن ، والرؤوس رماد ، والقِنيَة هباء ، والحسناء وهم نسجته جنيّة خفيّة بخيوط الدّخان . لاحق الدخان ، وأخفق في أن يقبض الهباء، فابتلي بغصّة،

وتقيّأ وزحف نحو جبل الشمال . بالأمس امتدّت يد الخفاء وأصابته بامتحان النّبوءة . بالأمس قطب في وجهه «آمنار» فرماه الزمان بالقساوة التي انتظرها منذ زيارة العابر الخفيّ . بالأمس استيقظ من النوم فوجد «تامغارت» (*) تكشف عن انفه اللّفام ، وتداعب وجنتيه بشفتيها المتدليتين ، الخشنتين كشفتي ناقة . احتضن عنقها بكلتا يديه ، ولكنه فزّ واقفاً عندما رأى البلاء في العينين . من الفم سالت خيوط من لعاب لزج، صقيل . البدن ارتجف واحترق بحمّى . في المقلتين إرتسمت علامات قانية ، غامضة ، كأنها رموز السّحرة . تشهق بين حين وحين ، تجاهد لالتقاط الانفاس ، وتحاول أن تأخذ من الهواء سرّاً خفيّاً تستردّ به الحياة . من العين فزّت دمعة حزن ووداع .ركع على فراش الحجارة . واخذها بين يديه ، تعانقا . سقطت خيوط اللعاب على يديه ورقبته ووجنتيه . أحسّ بيدنها يرتجف بين ذراعيه كعصفور يحتضر . تلقّى كائن النّور أمارة المعاد، فتململ في إجلال ، وهبّ لتشييع عابر دخل سبيل السفر . ولكنه لم يتعرف بإيماء كائن النّور ، لأنه لم يعترف بأن «آمنار» يستطيع أن يأخذ منه «تامغارت» حتى لو تسلّل وسكن في بيت الأعداء . لم يعترف بسلطان الزمان ، لأنه سكن في حضنها ، واعتادا ان يلتحما ويتعانقا كلّما جاءت تحدّثه عن ناموس الاركان بلسان القطيع. انجبت له التوائم في كل بطن منذ أول يوم عرف فيه الطريق إلى القطيع الذي

---

* «تامغارت» : الجدّة . العجوز .

يعترف المولى نفسه بأنه لم يكن قطيعاً في ذلك الزمان . انجبت له التوائم في كل بطن ، واكتنز فيها الضرعان باللّبأ في الأيام الثلاث الأولى كما أكتنزا بالحليب في الأيام التالية . أقتسم اللّبأ مع الرُّضّع ، واستأثر بالحليب كثيراً . صنع الشكائم للجديان من أعواد الرّتم ، ونال منها الرّزق عندما حان وقت الفُطَام . لم تجُد عليه بالحليب السخيّ الذي لم يعرفه في أيّ عنز أخرى ، ولكنها سعت وراءه ، وحدّثته عن الناموس بلسان القطيع . قالت له أن الرعيّة وجدت لقية أنفس من مراعي الكلأ عندما وقف على أمرها من لم يمدّ يده إلى المديه لينحر ، ولم يبخل بردّ الرؤوس الضّالة إلى السبيل ، ولم يهنأ بنوم حتى يداوي العليلة ، ويجدّ في طلب عقار لمعاناة أُخر ألمّ بها جرب ، ولم يأخذ حليباً لم يجد به الضرع طوعاً . فيقول لها أنه كان إبناً من أبناء الضّلال لم يهتد إلى أهل إلاّ عندما اهتدى إلى رعيّة صارت له أباً وأمّا وأهلاً وقبيلة . بحث عن الأصل الضائع في قبور الاسلاف ، وسقى العظم الظمآن بدم الوريد ليجد السبيل إلى الوطن الزائل ، ويعرف في التّيه أباً آخر لم يزحزحه من دفء الرّكيزة ،ولم يأت للصحراء بمخلوق أخذ منه الغزال ، وقالوا له أنّ المخلوق الشرّير له أخ وقرين ، ولم يلقِ به في الوحشة ، ويتركه في الخلاء وحيداً . وحيداً . وحيداً . قال لها أن الرعيّة لا تعرف ما معنى أن يجد المخلوق نفسه مهجوراً ووحيداً . فقالت له أن المخلوق القويّ هو المخلوق الوحيد . ضحك وتوعّدها بالسّبّابة مداعباً ، ثم قفز إلى سيرة أخرى . اشتكى فقال أن المسترعي أرسل وراءه جواسيس الاستطلاع

في أسمال العابرين والمعتزلة ليقف على أمر الرعيّة . فقالت له لا تبال . قال لها أن المولى يردّد من مقامه في البُعد :« حسناً يفعل الرّاعي إذ يُحسن رعي رعيّة مولاه » .فسخرت منه وقالت : لا راعي غيرك، ولا مولى في الصحراء سواك . ثم سألت : كيف تريدنا أن نعترف بالمسترعي سلطاناً إذا كنّا لا نراه ؟ ألا يعرف المكابر أن المحبّة لا تستقيم بغير رؤيا العين ؟ ألا يدري الحكيم الذي أتخذ من الخفاء وطناً أن المملوك لا يعترف بأنه نفس مملوكة إذا ابتعد السّيد ، واختفى المولى ، وآثر أن يعتزل في الخفاء كما يفعل من تراه سلطاناً ومولى ومالك الملك؟ إسمع النّبأ من فم الطّير ، وخُذ الحكمة من لسان « تامغارت» . نعم . سمع النّبأ اليقين من فم الطير ، وأخذ الحكمة من لسان « تامغارت » قبل أن تبلغ من العمر عتياً ، وقبل أن يصيرها الزمان جدّة القطيع . نفس الزمان الذي غدر بأمرها وصيّرها عجوزاً عجفاء ، انقضّ عليها اليوم ، ونالها بضربة الوباء. فأي تدبير يستطيع أن يدفع المشيئة ، ويبدّل البلاء ؟ لماذا لا يجود عابري الخفاء بتعاويذ ضد غدر الزمان بدل الوصايا القاسية عن الاعتدال ومعرفة الأنفس ، وتجنّب الايمان بالخلق ؟ أم أن السّر ليس في مكان آخر، ولكنه يكمن في الوصايا ؟

(٤)

حملها بين ذراعيه وسار إلى المرتفعات . انبثق من مقلتيه فيض كالنّار ، لمع السلسبيل المجهول في خيط شمس القيلولة كما يلمع حدّ

السيف عندما يتحمّم بشعاع النّهار . سار إلى المرتفعات الغنيّة بقبور الأجداد ، وسار السلسبيل المجهول حتى وجد سبيلاً إلى الشفتين ، إلى الفم ، إلى طرف اللسان . تذوّق طعماً من مرارة الحنظل ، وجرّب ملحاً كأنه سُمّ . غصّ الحلق بجسم غريب ، فشهق بصوت موحش . صعد المرتفع . وضع الجثمان على حجارة ضريح ، واختار مكاناً يتوسّط المقابر . بدأ يحفر . حفر بيديه ، بأصابعه ، بأظافره . لم يستعن بالمدية ، لم يحتكم إلى حجر . لم يضرب التّراب بحربة أو رمح . ولم ينته إلا عندما تخلّت الشمس عن السماء وبدأت تحتضر وتلوّن الأفق بالدّم . قام وأنزل الجثمان في الهاوية . تربّع وقرأ التعاويذ ، ثم انتهى وأهال التّراب في الهاوية. انطلق يجلب الحجارة ويقيم بنيان الضريح . لم ينته إلاّ في آخر الليل . توسّد الضريح ورأى أن يتمدّد . في تلك الاغفاءة سمع النّداء . كان ثغاء بعيداً. شكوى فاجعة . شكوى الرعيّة إذا رأت لسان المدية يطلع من الغمد . ولكن الشكوى لم تتحوّل لغة إلاّ بعد وقت طويل . قالت بلغة السّحرة إذا حملوا النّبوءة :« في نحر الشّريرة خلاص الرعيّة، وباليد يأتي النّبأ » . تكرّر القول ، ولم يتوقّف النداء حتى عندما استيقظ ووجد نفسه في الصحراء ، على رأس المرتفع . أزاح عمامته وهرش رأسه بكلتا يديه . حدّق في الظلمات وبحث عن الإيماء الليل كلّه . يئس وهجع مرّة أخرى . ولكن الإلهام لا يتنزّل إلاّ في ساعات الاسترخاء واللامبالاة . هبّ واقفاً . جرّد المدية من الغمد وركض نحو الوادي قبل أن يستعير الأفق البعيد لونه الاسمانجوني من

مملكة السماء .

(٥)

مضى في طريق السّرّ . أصاب الدّم السرداب ، وفتحت يد الرقبة باب الظلمة . رمى به الحنين في كل أرض فترنح وتمايل . اعترضته « تاملالت » (*) فتجاهلها وزحف إلى الأمام . سار في طريق السّر ولاح في نهاية السرداب قبس دمدم في الصدر لحن ، فسمع أغنية لم تترنّم بها شفتاه . اشتعل الجوف بشجن أهل العزلة ، واستحال القبس ضياء . انتهى المطاف بالسرداب ، وتبدّى في حزمة الضوء شبح . قادته يد الرقبة مسافة إخرى ، ووجد نفسه مع الجدي وجهاً لوجه .

لم يكن الجدي ذلك الكائن الأبلق الذي حمله بين ذراعيه وتناول الحليب الطازج من يديه . حتى البقع البيضاء تبدّلت . اختفى الوسْم الناصع الذي يطوّق الساق اليمنى ، شحبت البقعة المستديرة التي تتوّج الرأس ، بهت البياض الممتد كسيف على امتداد الظهر .

لم يتبدّل في الشقي اللون وحده ، ولكن المسلك أيضاً تبدّل . مدّ اليدين إلى الأمام ، وتوتّر الظّهر وأنشدّ ، وحدّق في وجهه بعين التحدّي، وصار شبيهاً بذئب يتوثّب ويستعد للانقضاض . جاء أهل

---

* تاملاّلت : البقر البري .

الخفاء ليلاً واستبدلوا الأبقع بجدي آخر من جداء القطعان الخفيّة . رأى أن يتجنّب كائن الخفاء ، ولكن الجدي توعّد بصوت كصوت الكلب الشرس ، وتأهّب لغزوة . في تلك الطُرفة أبصر النّاب . أبصر ناباً . نابين. أربعة أنياب . نابان شرهان ، معقوفان ، لهما لون السماء ، مثبّتان في الفكّ العلوي . ونابان شرهان ، معقوفان ، منتصبان ، إلى الأعلى مثبّتان في الفكّ السفلي . نبت في البدن شوك ، ونزل في القلب قبس السّر. سمع صوتاً يردّد : « أنت ؟! أنت ؟ أنت ؟» كان صوته . لم يكن صوته أيضاً . ولكن الألتحام ألهاه عن كل شئ . انقضّ عليه بقفزة غادرة أسرع من رمية السّهم ، ولكن يد الرقبة التي قادته في الظلمات ، وهدته إلى النّور ، أمتدّت الآن ايضاً ووضعت له من الإلهام حرزاً . وجد الغول يجثم على صدره ، ولكن يديه مطبقتان على عنق الكائن المُنكر . مدّ عنقه فتمدد واستطال وكاد يبلغ أنفه ، فشدّد قبضتيه على النّحر وجاهد لإبعاد الأنياب الكريهة عن وجهه . سمع خواراً بشعاً . لا . لا . لم يقدّر له أن يكون خُواراً أبداً .إنه .. فحيح . فحيح . فحيح . اكتسى الجرم شوك أقوى من كل شوك ، وأصابه الغثيان بدوار ، فصرخ بأغلى صوت . صرخ وهبّ واقفاً بوثبة واحدة . تخلّى عن البدن الكريه ، وتخلّى عنه البدن الكريه . تراجع إلى الوراء ، فتراجع الكائن المنكر . تراجع وتراجع ، ثم رآه يغيب في سواد القطيع .

ركع تحت عليّقة وبدأ يتقيّأ . تقيأ خلطاً ومرارة وسحراً أكثر

سواداً من الظّلمة .

(٦)

خرج المسترعي من حفرة الجبل بوجه مكشوف . شيّع طرف اللّثام السفلي وألقى به فوق العمامة التي تلتفّ حول الرأس كما اعتاد أن يفعل في حال الإسترخاء ، فتبيّن ، برغم رجفة الحمّى وهول الالتحام ، كيف نحُل الوجه أيضاً وهزل ، فتعلّقت اللّحية بالفكين العاريين ، فهزُلت أيضاً وإن ازدادت طولاً وبياضاً . اليد اليمنى أمسكت بالمنسأة ، في حين تلقت الكفّ اليسرى كتلة الذّيل الكثيف كلّما هوى بالمنسأة إلى أسفل ليسكت النّداء ويقمع القرين . استفهم بإيماءة صارمة ، فغمغم بلغة مجهولة ، ثم جاهد ليقول :

– الشقيّ !

استفهم المسترعى بإيماءة أكثر صرامة ، فغمغم مرّة أخرى بنفس اللّغة . ولكن لسان المسترعي سبقه إلى « تماهق » (*) قبل أن يجد إليها سبيلاً مرّة أخرى :

– هل أصابه سوء ؟

* « تماهق » : لغة الطوارق .

- « موخامّد » ! (*)

- موخامّد ؟!

- في فكّي الأبقع أنياب ذئب !

ضرب المسترعى راحة يسراه بالمنسأة ، وتابع جبارين بفضول ودهشة . تكلّم الرّاعي :

- هاجمني يا مولاي . هاجمني واراد أن ينهش أنفي !

اقترب المسترعي خطوة . خطوتين . ثلاث خطوات . ضيّق عينيه، هجم إليه بوجهه حتى أحسّ بأنفاسه تلفح وجنتيه ، وسمع التنفّس فحيحاً غزا بدنه بالشوك . تراجع خطوة فتكلّم المسترعي :

- ألم تأكل من الرّتم زهره البارحة ؟

هزّ رأسه نفياً . ولكن الشيخ لاحقه مرّة أخرى :

- ألم ينزل عليك نجع الخفاء ضيفاً ؟

هزّ رأسه نفيا ، فألقى بسؤال آخر :

- ألم تجدب وجداً ؟

نفى بإيماء ، ولكن الوميض في عيني المسترعي أشتدّ . لاحقه

---

* موخامدّ : إسم مستعار يطلق على الذئب .

بخطوة أخرى. سأل بصوت مكتوم كأنه يبوح بسرّ :

– ولكن ماذا عن الألحان يا شقي ؟ تتغنّى بأشعار الأولين ، وتذهب بك الغيبوبة إلى أبعد من « واو» كما يفعل كل الرعاة ، فتقلب الاغاني فيك الاعيان ، ثم تأتيني لتقول لي أنك رأيت في فلكّ الجدي انياباً. فهل تحلف بـ« تانّيت » أنّك لم تتغنّ البارحة بأشعار الاوّلين ؟

– البارحة لم أتغنّ بالألحان يا مولاي ، لأنيّ ..لأنّي أنشغلت بدفن « تامغارت » يا مولاي .

– تامغارت ؟

– تامعارت تازّا رانغين آكْذَنّتَا (*)

انتصب . إختفى الوميض . توقّفت اليد عن معاندة القرين . أنزل طرف اللثام على الوجه . أحكم « أماوال » حول الوجنتين . تطلّع إلى الفراغ الصارم وهو يستلقي ويتمدّد شرقاً . في المدى البعيد ما زال يتسكّع السراب .

---

* « الجدّة سبقتنا أيضاً » .

٢٩- المسْخ

« فتقدّم إليه المجرّب وقال له إن كنت إبن اللّه فقُل أن تصير هذه الحجارة خبزاً . فأجاب وقال مكتوبٌ ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ، بل بكل كلمة تخرج من فم اللّه. ثم أخذه إبليس إلى المدينة المقدّسة واوقفه على جناح الهيكل ، وقال له : إن كنت إبن اللّه فاطرح نفسك إلى اسفل لأنّه مكتوب أنّه يوصي ملائكته بك . فعلى أياديهم يحملونك لكي لا تصدم بحجر رجلك . قال له يسوع : مكتوب أيضاً لا تجرّب الرّبّ إلهك . ثم أخذه أيضاً إبليس إلى جبل عالٍ جداً وأراه جميع ممالك العالم ومجدها . وقال له : أعطيك هذه جميعها إن خررّت وسجدت لي . حينئذٍ قال له يسوع : إذهب يا شيطان . لأنّه مكتوب للرّب إلهك تسجد وإيّاه تعبد . ثم تركه إبليس واذا ملائكة قد جاءت فصارت تخدمه » .

إنجيل متّى (٤:١ ، ٩)

« زعم الشرقي بن القطامي أن رجلاً من أهل الشّام أطّلع على جرذ يُخرج من جُحْر ديناراً، فلّما رآه قد أخرج مالاً صالحاً استخفّه الحرص فهمّ بأن يأخذها ، ثم ادركه الحزم ، وفتح له الرّزق باباً من الفطنة ، فقال : « أنا أُمسك أن آخذها ما دام يُخرج ، فإذا رأيته يدخل ، فعند أول دينار يغيبه ويعيده إلى مكانه أثب عليه فأحترف المال . قال : ففعلت ، وعدت إلى موضعي الذي كنت أراه منه . فأقبل يخرج ما شاء اللّه تعالى ، ثم أخذ ديناراً فأدخله ، فلّما عاد ليأخذ ديناراً آخر فلم يجد الدينار ، أقبل يثب في الهواء ، ثم يضرب بنفسه الأرض حتى مات » .

ابو عثمان الجاحظ

« الحيوان»

(١)

استلقى المعز في كل مكان ، فصار السّهل رقعة مفروشة بالجثث. توسّدت رؤوس الآكام ، وهجعت رؤوس أخرى في الخلوة الرمادية ، وارتمت البقية الباقية على شطوط الوديان ، وفي مسارب حفرها الماء ، وتحت انصاب الحجارة ، وفوق العلّيق الشاحب الذي أماتته قساوة الشمس ، واختلس الجدب منه الحياة . بعض الجثث تعفّنت ، وانتفخت، ودبّت فيها الديدان . وجثث أخرى جحظت فيها العيون ، فحدّقت في فراغ السماء بأحداق تتألّق بالغموض والتسليم ، واللامبالاة . جثث كثيرة ظلّت تجاهد لالتقاط السّر من الهواء ، تطلق خواراً موجعاً ، تعرّي الأرض من الاحجار والحصى ، وترتجف بحمّى النّزع الاخير .

« تاملاّلت » أيضاً توجّعت بالحمّى .

ركع بجوارها فرفعت رأسها ، سحبت نفساً أليماً بالمنخرين فسمع خواراً موحشاً . زفرت في الحال فتدفّق المخاط من الفكّين ، ومن المنخرين . حدّقت فيه بعينين فارغتين ، واطلقت شكوى طويلة ، فاجعة. اسند رقبتها بركبته ، تحسّس البدن المحموم. هدْهَد الرأس ، القرنين الطويلين الشبيهين بقرون الأبقار البرّية ، الجيد المكابر الذي ينافس جيد الغزال بهاءً ، الصدر الدّافئ ، المنفوش بخصلات الشّعر . اليد الأمامية

الرفيعة . البطن الضّامر ، الضرع الثري بألذّ حليب . حلمة الضرع .. حَلَمة الضّرع .. الحَلَمَة ..

لامس السائل اللّزج ، ووجد أن الحلمة تنزف بدم طازج لم يتيبّس بعد . تفحّص الضرع . كان مضروباً بالنّاب في أكثر من مكان . النّاب . تذكر النّاب . قفز يجري . ادرك المسترعي الذي هاله البلاء فركن إلى شجيرة بريّة مجهولة . غالب الغثيان . قال لاهثاً :

– تاملاّلت !

حدجه الشيخ بنظرة لامبالية فأوضح :

– ضرع تاملاّلت مضروب بالنّاب !

– مضروب بالنّاب ؟

– الضرع ما زال ينزف . النّاب الذي رأيته بين فكّي الشقيّ هو الذي أصاب الضرع !

هبّ الشيخ . تناول من متاعه رمحه . أنطلقا في طلب الجدي . قال المسترعي :

– النّاموس يقول أن الأسماء لا تُطلق بلا سبب . والمخلوق لابد أن يحمل سرّ إسمه . ألم إسمّه شقياً في ذلك اليوم الذي ذهب فيه بأمّه الشقيّة ؟

(٢)

لوّح بالحبل عاليا ، ثم رمى الوهق على رأس الجدي . ولكن الشقيّ وثب إليه وكشف عن الأنياب . نابان سفليان ، ونابان علويّان . كانت أنياباً طويلة ، معقوفة ، كَريهة ، تميل في اللّون إلى الزرقة . صرخ المسترعي بلا وعي . لوّح بالرّمح في الفراغ وصاح بالرّاعي :

– إحترس !

تراجع جبارين خطوات ومد يده إلى رقبته وتحسّس التميمة . اقترب المسترعي وجاهر بالتحذير :

– ألا ترى أن في فكّيه أنياب ثعبان ؟

ردّد جبارين بذهول :

– أنياب ثعبان ؟

ولكن المسترعي استعاد بطولات الغزو ، فاطلق صيحة فروسية قبل أن يرمي بالرّمح . في تلك الطُرفة جثا الدّاهية أرضاً فأخطأه الرّمح وغاص رأسه على مسافة عقلة إصبع من خطم الجدي . أمسك الفارس بيد جبارين وتراجع به خطوة ، خطوتين، ثلاثاً . انحنى وتناول حجراً . حَشْرَج :

– إحترس ! سوف يثب الآن .

شدّه من يده ومضى يتراجع . أطلق الدّاهية صوتاً ليس بخوار ، وليس بعواء ، وليس بفحيح . صوت فيه خوار ، وفيه عواء ، وفيه فحيح. حشرج الفارس مّرة أخرى:

– إنطلق ! هات السيف من المتاع ! هات السيف! .

انطلق جبارين . انطلق الدّاهية أيضاً ، ولكن في الاتّجاه المضادّ .

(٣)

استبقى جبارين مع ما تبقّى من القطيع . وجدّ وراء الدّاهية مسلّحاً بالسّيف والرّمح .

تدلّى قرص الجلاّد فوق الروابي البعيدة ، فتمدّدت الظّلال وتمادت قامات الشّجر ، وصار للحجارة اجراماً تسعى ، واستعار العلّيق الوضيع أبداناً من الخفاء . تنادت كائنات الغسق والتحمت في جيش مارد . زحفت طلائع الجند شرقاً ، وبدأت الحملة على بلاد مجهولة تتخفّى وراء الافق الذي يتمدّد ويتوالد إلى الأبد .

نزل مع الوادي مهرولاً . رأى أن يهتدي إلى الأثر قبل أن تدركه العتمة ، ويشتدّ في الأسافل سواد الظّلال . وقع على الحافر فوق كوم رملي يستلقي عند حضيض احراش الرّتم . فوق الرقعة اللّميسة رسمت كائنات الليل رموزاً مجهولة بأرجلها : عظّاءات ، فئران ، خنافس بلهاء وجُعلان مقدّسة .

إنتهك المخلوق الذي لا يملك من قبيلة الحوافر الاّ رسم الحافر حرماً سخيّاً من الرّموز . داس ختم الجُعل ، واقتحم نبوءة الفأر وتوقّف عندها قليلاً . ثم رأى أن يمحو علامة لم ترق له كان الخنفس الأبله قد احترف حفرها في كل موقع ، لأنها تكشف حيل الحيّة ، وتستنكر خرقها لميثاق العهد القديم . بعد أن تحقّق له التخريب جاور جُحر الفأر ، وبرك ليستريح .

ولا يعرف كيف استطاع المشئوم أن يبتعد مسافة تسمح له بتفقّد الاركان ، والتجوال في حقل الإيماء ، بهذا الاطمئنان الذي لا يليق بكائن يفرّ من مطاردة . فأي مخلوق هذا الأبقع إن لم يكن داهية من دهاة الخفاء والظلمات ؟ ولكن ها هو يفرّ بمسلك غزال ، وينطلق من جديد . فهل اشتّم له رائحة بخياشيم غزلان ؟ أم أنه اشتّم رائحة النّصل عن بعد بخطم الوحوش ، ففرّ من اللّقاء كما يفرّ اشباهه من سكّان الخفاء من لسان المدية ؟

لزم بطن الوادي ، فلم يجد عناء في الاهتداء إلى الأثر . لزم الشقيّ الوعوثة ، ولجأ للمساحات الرخوة التي تشقّها سيوف الرملة في سفرها الخالد نحو الشمال ، كأنّ اللئيم يتعمّد استفزازه بحافره الكريه . كأنّ مسخ الوباء يبحث عن البهاء ووعثاء المكان ليتحدّاه بنوايا الخفاء ، ويستدرجه الى المصير المجهول .

اكتمل نزول العتمة ، فاحتمى بطلحة الوادي ليستريح .

(٤)

اسند ظهره إلى الجذع . غرس الرمح بالجوار . وضع في حِجْره السيف المغمور في غمد امتصّت الشمس منه اللّون فامتقع وشَحُب وأبْيَضّ . تابع امتداد الوادي . تباعدت الضّفتان فاتّسع العنق وازداد البطن عمقاً . تمادت الأشجار طولاً في الأسافل ، فاكتأب الشطّان ، وارتفع الحدّان بصخور رمادية ، صارمة ، أكبر حجماً . اشتدّت حملة الظّلمة ، فانتظر ميلاد القبس من المشرق . أقبل السّكون بأغنية الباطل ، فتصنّت . علا إيقاع اللّحن ، واشتدّت نبرة الباطل . الولادة باطل . البطولة باطل . العشق باطل . السعي إلى الرزق باطل . تربية القطعان باطل . الغزوات باطل . التخلّي باطل . واللّذة باطل . والتسليم باطل . لأن للخواء الكلمة الأخيرة ، والسكون في الصحراء هو الغالب ، فلم المجاهدة والمعاندة والشقاء ؟ . قالت الأغنية بلحن فتّان يليق بأن يرمي في الغيبوبة بألف الف معتزل ، وألف الف عاشق . اغمض عينيه ليتلذّذ بأرق حركات اللّحن ، ويستمتع بأبعد وقفة من وقفات النغّم . سمع صوتاً يردّد الايقاع الأخير . أعاده مرّتين ، فتعرّف إلى حزن التّيه في لغة أهل الوجد . لوعة المعتزلة في لهجة كل غناء تُسمعه الصحراء للعابرين . فتح جفنيه فرآه يقف فوق رأسه . نبيل القامة، ضامر البدن ، يرتدي لثاماً معتماً متوسط الحجم ، في يده عصا ، أو عكّاز . وخُيّل له أنه سبق

وعرف هذا المهاجر ، ولكن سلطان النسيان تدخّل فنسى . دمدم صدر المهاجر بحفيف غامض، ولكن السكون ابتعد بأغنية الأبد . تبدّلت الضّفة الشرقية ، وتخلّل الفضاء قبس سماوي إيفاء بالوعد . رفع المهاجر عصاته إلى أعلى ، وأومأ إلى فروة الطّلحة . أعاد الاشارة مرتين ، فرفع رأسه أيضاً إلى شعفة الشجرة . هناك رأى الأفعوان . كان في حجم أفاعي الادغال ، يلتفّ على النصف العلوي من الجذع ، ويتخفّى في دغل الفروة ببدن يفوق في السُّمْك حجم الجذع . مكسوّ بزغب كثيف. ليس زغباً ، ولكنه شعر أسود ، كريه ، كشعر العنز . في عتمة القبس تبيّن مقلتيه العسليتين ، الكسولتين ، الناعستين . تنّحى عن الجذع، وجاور المهاجر في وقفته . اشتدّ القبس ، وغمر الوادي بضياء سخيّ . ارتفع فوق الحدّ قوس فضّي نحيل الطرف . انشغل بشعائر الميلاد ، وعندما التفت وجد المهاجر يشتبك مع الافعوان في عراك وحشي . انقضّ عليه بالعصا الخفيّة ، وشرع يدق رأسه الوديع بضربات عنيفة ، متتالية ، ولم يتوقف حتى سقط البدن المخيف المغمور بالشعر القبيح أرضاً. لم يتململ . لم يُسمع فحيحاً . كأنه أصيب بشلل . كأنّ في العصا سحر السحرة ، كأنّ سمّ السّحر غلب سّم الافعوان . هنا دسّ المهاجر يده في كُمّه ، وأخرج مدية . لمع النصل في ضياء الإله السّخيّ قبل أن يغرس اللسان في بدن الأفعوان . نحر طويلاً جداً ، ونزف الدّم كثيراً ، قبل أن يتمكّن من حزّ الرأس عن الجسد . حفر حفرة على مسافة خطوات ، ودفن فيها الرأس . أشمأزّ لمرأى النزيف . خاطب

المهاجر لأوّل مرّة :

– الناموس يقول : لا يضر الشاة سلخها بعد ذبحها .

أطلق المهاجر ضحكة إستخفاف . ضحكة سافرة لئيمة بل شريرة. تكلم لأول مرة أيضاً :

– الناموس قال أيضاً : « قول الجهل من كثرة الكلام » (*) .

– لم اخاطبك بكلام إلاّ مرّة واحدة !

– سترى بعد قليل وصايا النّاموس فعلاً وعملاً ، لا قول الجهل .

– هل أنت ساحر ؟

– إذا كابر الصحراوي وأبى أن يعترف بالجهل ، رمى المهاجر بعمل السّحر !

تزلزل الوادي . واصابته لطخة دم في وجهه ولثامه . فزّ إلى الوراء ، فصرخ المهاجر الغامض :

– تقبّل الآن آي الناموس ، واعرف الوصايا .

استعاد البدن عنفوان الافعوان ، تلوّى ، وانشدّ ، واستدار في كرة مزمومة . ظلّ يتخبّط ويتلوّى ويزحف إلى كل الجهات كأنّه يبحث

---

* « قول الجهل من كثرة الكلام » سفر الجامعة .

عن العضو المفقود ، عن دليل الهداية ، عن الرأس . هرس اعشاباً وعليّقاً، وبلغ الجذع فتعلّق به . تلوّى على ساق الشجرة . بدأ يصعد . ينزف دماً ويصعد . بلغ الشعفة . نفس المكان الذي تخفّى فيه قبل أن يسقطه المهاجر بعصا السّحر . بدأ يعارك الاعراف العالية المسلّحة بأقسى الأشواك . انكسرت الاعراف . تساقطت وتداعت . حدّث المهاجر بذهول :

– بدن بلا رأس ويقوى على عمل ما يعجز عن عمله مردة الجنّ!.

– ألم يتكلّم هذا اللّسان منذ قليل عن الشاة التي لا يهمّها سلخها بعد ذبحها ؟

تابعه بفضول ، ثم أضاف :

– الناموس يقول : لا تثق بحيّة حتى لو كانت حبلاً بلا رأس ، فكيف إذا طرحتها أرضاً وأبقيت الرأس ؟

تراجع إلى الوراء خطوات . وضع عصاته فوق منكبيه، وسار مع امتداد الوادي . أرتفع البدن الفضّي فوق الحدّ الشرقي ، فتدفّق الضياء في الوادي ، واستعادت الصحراء صفاء النّهار . رأى أن يستوقف المهاجر ، فتهيّأ لإطلاق النّداء . ولكن البدن البشع الذي طحن رأس الشجرة محزوز الرأس ارتمى عليه فجاءةً ، ففزّ ، وهبّ واقفاً .

(٥)

انطلق يهرول عبر الوادي . هرول مسافة طويلة . توقّف . أحسّ باللّثام مبتلاً بسائل لزج ، ولكنه لم يستطع أن يتحسّس الوجه ، لأن اليد اليمنى كانت تمسك بالسيف ، والأخرى تتشبّث بساق الرّمح . سمع صوت المهاجر كصدى بعيد : « لا تثق بحيّة حتى لو كانت حبلاً بلا رأس ، فكيف إذا طرحتها أرضاً وأبقيت الرأس ؟ » بدأت انفاسه تنتظم . تفقّد امتداد الوادي فتبدّت الطلحة ، في ضوء البدر ، بائسة ، هزيلة ، حاسرة الرأس . فقدت قامتها المكابرة البهاء ، وبدت ، في الفيض غامضة مثل شبح الجنّ . فكّر أن يعود إلى الوراء ، ولكن دفعة تلبّسته بالشوك ، فسدّت البلعوم غصّة ، وأصاب الرأس دوار .

حاول أن يتبيّن الأثر على ضوء القمر . أنحنى وتسكّع . رأى علامات الرّيح مرشومةً على عروق السيوف الرمليّة ، ووجد رسماً حَفَرَه ذيل عظّاءة على مسافة خطوات . في حضيض أكمة اعتلتها شجرة يابسة لم يتبين هويتها استقرّت قدم مارد . لم يكن أثراً لنعل ، ولا وسماً لخفّ جمل ، ولا رسماً لحافر حمار . ولكن شبَهُهُ بحافر الحمار أقرب ، برغم أن الحجم يفوق حافر الحمار بضعفين أو يزيد . ركع وحاول أن يتبيّن خفايا الوسم . ولكن رخاوة الأرض جعلت الحافر يغوص عميقاً في التراب الرّملي ، فغيّبت الوعوثة حواف الأثر وسترت الخفايا والخطوط . سار مع الأثر مسافة أبعد، ولكن الحافر اللّعين لزم

عروق الرمل ، فاستقرّ الأثر على الوعثاء مهيباً ، عميقاً ، مُنكراً وخفيّاً . تذكّر حيل المسخ الكريه فعاوده الغثيان . جثا على ركبتيه ليقيس حجم الأثر بكفّ اليد . كان أكبر حجماً من كفّ اليد بعقلة إصبع . كان يمكن أن يكون أثراً لقدم رجل من العماليق الاوّلين ، ولكن الرسم المقسوم إلى شقّين يوحي بأن التكوين لحافر حمار، ولكن الحجم لا يناسب إلاّ حمار من حمير الجنّ . أم أن الساحر تنكّر بحيل السّحر ولبس حافراً ليضيّع الأثر كما يليق بالسّحرة ؟

تمتم بتعويذة . قطع مسافة أخرى .

بدأ الأثر يفقد حجمه ويتضاءل . تضاءل حتى صار في حجم الحافر المعتاد . تضاءل أكثر ، وصار في حجم معزة .. خطوة أخرى . تضاءل مرّة أخرى ، وصار في حجم .. جدي .

لم يصدّق . جلس بجوار الأثر ، وتطلّع إلى الدائرة الفضيّة المزمومة المعلّقة فوق رأسه . استولى إله الليل على عرش جلاّد النهار ، فاستوى السكون ، وتمدّدت تخوم المملكة ، وأكتمل في الخلاء السّحر. عندما يستولي الإله على عرش الفراغ ، ويستوي السكون في المملكة ، وتشمل الخلاء اسحار الخفاء يصير كل شيء مباحاً في الصحراء . يصير الخلاء خفاء ، ويخرج الخفاء من وطن الخفاء ، يستعير الجنّ أبدان الخلق، ويتنقّل أهل الصحراء في المجهول بلا أبدان . يدخل الساحر في بدن الحيّة ، حتى إذا تزحزح الإله من الطالع وسكن بيت الجدي ، قفز

الساحر وتنكّر في جلد الجدي أيضاً . يخرج الإله من برج الجدي ، ويدخل « آمنار» بيت الاعداء ، فينتقل أهل السّحر كلهم ليسكنوا ظلالهم ، لأن الدّهاة أوّل من يعرف الخبر عندما يكتئب الزمان ، ويتخلّى كدخداي (*) عن ظلال الأرض ، وتشيح هيلاج (**) بوجهها وتختفي ، تنتقل السماء لتقف فوق أرض أخرى ، وتنتقل الصحراء لتحتمي بسماء أخرى . فهل يجرؤ الرجل ويدّعي الحكمة إذا استنكر أمراً صغيراً مثل تنقّل الساحر في الأبدان ، أو تنكّر الحيّة في بطن جدي شقيّ ، وهو الذي وقف كثيراً على افعال الاجرام ما أن يستوي الإله على عرشه ، ويتنقّل في منازله ؟

(٦)

تراجع الليل ، وهبّ نسيم الفجر ، فخرج له في المكان الجليل الذي ضاق فيه عنق الوادي ، وارتفعت على ضفتّيه جبال مكابرة ، ظلماء، موحشة . خرج فجأةً كأنه نبت من التّراب ، أو سقط من عتمة السّماء بعد أن تخلّى عنها إلاله . تبّدى له مواجهة كأنّه توقّع مجيئة ، فوقف في إنتظاره . شلّته الفجاءة أيضاً فجمد في المكان ، وشدّد القبضة على السيف في اليمنى ، وضمّ الرمح إلى صدره بأصابع

---

* كدخداي : دليل الأعمار .

** هيلاج : أمّ الحظوظ الدنيويّة .

مزمومة، ولكنه لم يشيّعه إلى أعلى ، ولم يسدّد السلاح للرماية . حدّق في الشبح الطريد فلم يتبيّن العينين ولم يستطيع أن يقرأ نوايا الدّاهية . علّمته الغزوات أن يتجنّب الفجاءة دائماً . الفجاءة تربك الخصم ، وتشوّش العدوّ وتفسد عليه المكيدة . الآن صار هو الطريدة ، وهو ضحيّة الفجاءة . وإذا لم يبادر في الحال فقد الزمام ، وانتزع الخصم منه السلاح . في تلك الطرفة غمغم المسخ بذلك الصوت الموحش الذي يختلط فيه الفحيح بالخُوار بالعواء . ركن إلى اسفل كما فعل عندما لاحقه جبارين بالوهق ، وقبل أن يحترس ويستعد لصدّ الهجوم ، كأن الشبح يطير إليه بسرعة السّهم . لا يعرف عما إذا كان بدن الوحش هوالذي اسقطه أرضاً ، أم أنه تعمّد السقوط احترازاً وتجنّباً للناب . ولكن اليقين أنّه اصطدم بجسم أثناء الدفاع . ثم وجد الداهية يجثم علِى صدره ، ويلاحقه بالنّاب الرهيب . تحرّرت اليمنى من السيف دون أن يدري متى حدث ذلك ، فتلقّف الرقبة الشعثاء وشدّد على العنق قبضته. تمدّدت الرقبة فرأى الأنياب الأربعة في ضوء القبس . كانت معقوفة الى الداخل ، دقيقة التكوين ، طويلة . طويلة جداً . ادهشه أن يضم جدي يبن فكيّه أنياباً بهذا الطول . استولت عليه حمّى أهل الوجد ففزّ بقفزة بطولية ، ورمى بالبدن الكريه بعيداً . صاح بصوت عالٍ فردّدت الجبال المكابرة صيحته كأنّها تستجيب بنداء خفيّ . سددّ الرّمح ورمى . رمى بغلّ من وقع في كمين المكيدة وصمّم أن يأتي البطولة إنتقاماً . ولكن الشبح اللئيم هوى إلى الارض ، والتصق بالتّراب على طريقة الشّريرة «

تيرزازت» فسمع رنين الرّمح في صلد الصخرة التي تشرف على عمق الوادي ، وينتهي عندها حضيض الجبل الجنوبي . اطلق الوغد صوته القبيح مرّة أخرى، وقفز إلى أعلى . بدأ يصعد الجبل . رأى شبحه الاشعث وهو يتنقّل بين الصخور . التقط السيف ، وهرع إلى الرمح . ولكن الرمح انكسر ، وفقد الساق سِنّهُ النحاسية . رمى بالعصا بعيداً ، وانطلق وراء الشّبح .

(٧)

ادركه في الشعفة . ادركه في المكان الذي يكابر فيه الصّلد ، ويتنكّر للأفق ، ليأخذ وضعاً آخر ، يختلق به صروحاً تقترب به من السّماء . جاد الافق بفيض جديد ، فتألّقت الشعاف بلون اسما نجوني غامض مستعار من سخاء السماء ، ومن فيض القبس البتول . في هذه الجولة اكتشف السرّ ، وانكشفت السيماء على وجه المسخ . تبدّل خطم المعز ، واستوى الرأس كلّه في رأس أفعوان بشع . شحبت البقع البيضاء، ولكنها لم تختف تماماً . في العينين تمادى الألق القديم ، وومضت الحدقتان بإغواء حقيقي . تمدّدت الرقبة واستطالت ، وتدلّى الشعر الأشعث . تضاءلت قامة الجدي ، واقتربت من الأرض اشباراً أخرى . حاول أن يتبيّن الأرجل ، ولكن فحيحاً كريهاً أنطلق فغمر بدنه بالقشعريرة ووخزه بإبر كشوك الطّلح . اختفى الخُوار وتبدّد العواء ،

واستعاد ربيب التّراب والظلمات صوت التّراب والظلمات . استفزّه الصوت فوثب إلى الأمام بلا إرادة ، وبلا خطّة ، وبلا نيّة . ادرك أن الفحيح حقّق مكيدته ، لأن غايته أن يفقد الخصم صوابه . كشّر الشرّير عن النّاب ، فهوى بالسيف . هوى بالسيف من الجانب الأيمن بضربة هواة ، فمزّق الهواء شطرين ، واشعل في الفراغ ناراً ، ولكنه أخطأ الهدف . استدرك بسرعة الرّيح ، وسافر في الاتّجاه المضاد وشقّ الفضاء يساراً كما يليق بالفرسان، فتمزّق الهواء ، وتوجّع السكون ، وارتطم النصل بالصّلد، في رنين حمل نبوءة قاسية .

لم تتأخر النبوءة .

انكسر السيف ، وانقسم النصل إلى شطرين . ولكن العدوّ لم يمهله . طار في الهواء بقفزة أسرع من قفزة الجولة الأولى ، فوثب وقفز إلى الأسفل . ارتطم بصخرة ، وتدحرج على حجارة لها أنياب الوحوش . سمع وعيداً كريهاً ، فقام بجهد بطولي حتى استطاع أن يقف على قدميه من جديد . وقف ولكنه لم يتوقّف . قفز إلى الصخرة التالية في الحال . أحس بسائل يتدفق على بدنه ، ولكنه لم يشعر بألم . سمع همهمة وهو يركض ، ما لبثت أن تحوّلت إلى بلبلة . سقط مرّة أخرى . ارتطم بحجر شرس فانكفأ على وجهه . تهدّل اللّثام وبدأ يتخلّى عن الرأس . جنحت به الحجارة وتدحرجت إلى الأسافل في انهيار رهيب . لم يدر ما حدث بعدها . سمع الفحيح ، ولكنه لم يبصر شيئاً ، لأن

ظلمة جهمة زحفت والتقمت ذلك الفيض الاسمانجوني النّبيل .

(٨)

فتح عينيه فوجده ينتصب فوق رأسه بالتحديد . يضع لفافة «تجولموست » (*) شاحبة فوق لثام أمتصّت شمس الاسفار بياضة فتبدّل وبهت أيضاً . يمسك العكّاز الذائع الصّيت بيد موسومة بالعروق ، ويضع عقفة العكاز على منكبه الأيمن . كان يراقب خلاء صافٍ مغمور بضياء مُطفأ بحياء البكارة الاولى . قال دون أن يلتفت إليه :

– ها نحن نلتقي أخيراً !

حاول أن ينهض ، ولكن الوجع ذلّه وجرّده من الخجل الكاذب . جرّده من الاحساس بالعار فصرخ بلا حياء ، اتّكأ على صخرة . سأل بدهشة :

– أنت ؟

لم يجب الساحر ، فتأوّه ألماً ، وأعاد :

– أنت ؟ هل يعقل ..

* « تجولموست » : قطعة زرقاء من لباس الأكابر والنبلاء .

قاطعه المهاجر الخالد دون أن يتراجع عن ملاحقة الخلاء :

– ناموس الدائرة لابد أني يغلب ويدبِّر للخلق ميعاداً مهما تباعدت بهم المسافات.

– ولكن أين الجنّ ؟ أينَ المسخ الكريه ؟

ابتسم الساحر باستخفاف . رمى ببصره مسافة أبعد ، فقالت العينان أنهما تبصران ما لا يبصره خلق ، ولا يخطر في بال بشر . قال :

– لا مكان للصغار في حضور الكبار . رسالة المسخ انتهت عندما ألقى بك بين يدي بعد فراقنا الطويل .

– ولكن هل هو حيّة شعثاء أم جديٌ شقي ؟

– وماذا يهمّ أن تكون الصورة صورة حيّة أم صورة جديّ ؟ أما زلت تظنّ كما يظنّ كل البلهاء أن للصورة سرّ ؟

– ولكن العراك مع جديّ حقيقي ليس كالعراك مع جنّ أو ثعبان أو أي كائن آخر يتخفّى في بدن جدي .

– لم يدخل الجدي لك قطيعاً إلاّ لسبب أراك له ناسٍ ، كما لم يفرّ الجدي هارباً إلاّ لكي يقودك إليّ . فهل تصدق ما قلته لك في ذلك الزمان أن خيري يتحوّل إلى شرّ وشرّي يصير إلى خير ؟

– ما أقوى حُجّتك !

– أرأيت كيف أصابك السّوء إذ أبيت أن تقبل العرض ، فكيف انتهى بك الحال؟

– القطيع هلك .

– ألم تعاندني وتتباهى بقدرتك على تربية الرزق الشريف ؟

– أنت اهلكتني . أنت اهلكت قطيعي .

اختنق بصوت كنواحٍ مكتوم ، ولكن الساحر لم يتراجع :

– امازلت تؤمن بأن المال يمكن أن يتربّى بلا غشّ ؟

– أنت لن تنكر أنّي افلحت . جاهدت وافلحت . أنت اهلكتني لأنّي كدت بعملي أن أفسد عليك حجّتك . انت ساحر . انت قادر على إنجاب جدي شقي من عنز شقية . انت استدرجت العنز واصبتني من هناك . انت اهلكتني لأني انتصرت . اعترف يا مكابر . اعترف إنّك تموت من الغيرة عندما تتبسّم هيلاج لمخلوق وتغدق عليه بالعطايا ! اعترف بأن الحقد شريعتك !

– مهلاً . مهلاً . استطيع أن اعترف بكل سوء ، ولكنّي لن استسلم بقوّة تريد تضليلي . فالقطيع لن يجديك نفعاً حتى لو تركته لك، لأن السّر ليس في المال كما ظننت ، ولكنه في الامتلاك . كل من لم يفهم سّر الملكية ضل السبيل ، ووقع في قبضتي !

– لن اقع في قبضتك أبداً .

– أنت لم تقع في قبضتي فحسب ، ولكنك خسرت الرّهان إلى الأبد . ألا تريد أن تعترف حتى وانت تتأهب للسفر إلى المملكة الأخرى التي تظلّلها سماء أخرى ، بأنّك مخلوق خسر الرهان ؟

توجّع مرّة أخرى . حاول أن يغلب الألم ، فهجع على الجنب الأيسر . رأى امتداد الخلاء فتملّكه الحنين النّبيل . الحنين الخالد إلى مكان أخذه سلطان النسيان . قال:

– استطيع أن اتباهى بأنّي لم أتبعك . يكفيني هذا فخراً !

لوّح الساحر بالعكّاز في الفضاء فتألقت اطواقه النحاسية تحت الضوء . سرح في الفراغ الأبدي ، وتكلّم من هناك :

– مرّة واحدة غلبتني وكدت تصل إلى السّر ، ولكنّك توقفت عند الباب كحال الخلق دائماً .

– توقفتُ عند الباب ؟

– نعم . جاءتك الترفاسة هبة من كدخداي فغسلتها بالدمع ، وبكيت ، ولكنّك لم تجد السبيل إلى الباب إلاّ بعد جهاد طويل . وعندما وقفت على الباب لم تدخل برغم غياب العسس . هذا حالكم كلّكم . تندبون ، تبحثون ، تجدّون في الطلب ، تشقون ، تموتون حنيناً ، وعندما

تحين الساعة ، وتجدون انفسكم على الباب ، ترجعون . ترجعون إلى الوراء ، لتبدأوا السّفر من جديد .

– يكفيني فخراً أنّي لم أتبعك !

– هيهات أن يفيدك الفخر بعد اليوم .

زحفت الظلمة ، واقتربت كآبة ، قال بصوت أبتعد كثيراً :

– لن يجديني الفخر ، ولكن يكفيني أن تقول الأجيال أنّي لم اتبعك !

– امازلت تراهن على الصيت ؟

توغّل بعيداً ، فجاء الصوت مثل نداء ناءٍ :

– جئنا لنراهن على شيء مّا ، حتى اذا خرجنا صار لنا الرهان ذِكْراً . ألا ترى في هذا برهاناً على أنّنا مررنا بالصّحراء يوماً ؟

ابتعد الساحر في رحلة الفراغ . قَبَّل الشعاع اطواقاً على العكّاز ، فالتمع الألق فجاءةً ، ثم اختفى في الحال .

تكلّم من وطن صار مُلْكاً للفراغ :

– تراهنون على الذّكر وانتم أعلم الخلق بأن لا ذكر للأولين عند التّالين . فماذا يفيدك ألاّ تتبعني وانت أعلم الخلق بأن الزوال هو نسيان

أبدي ؟

- آثرت التسليم عندما رجعتُ ولم أتبعك . فهل التسليم شيء صغير ؟ ألم يكن التسليم رأس الحكمة دائماً ؟

ابتسم الساحر باستخفاف . تساءل :

- هل تسمي امتلاك القطيع تسليماً ؟ ولكن انتظر فأنت تعلم أننا لن نتّفق أبداً إذا مضى بنا الجدل في هذا السبيل . لأنّك أول من يعلم بأن لكل إمرءٍ حجّته . ولكن أجبني على سؤال صغير قبل أن نفترق : هل نلت المخلوق الخفي التّائه في البريّة منذ الأزل لأنّك لم تتبعني ؟

أطلق المُصَاب أنيناً موجعاً . غمغم بإعياء :

- المخلوق التّائه في البريّة ؟

- هل نسيت أنّي لم انزل الصحراء إلاّ لغاية ؟ هل نسيت أن الخير حرفتي حتى وإن بدا لكم شرّاً ؟ هل تشكّ أن الخير مخلوق خفيّ تائه في البريّة ، إن لاقاك طائعاً نلته، وإن خرجت في طلبه ، ووضعت له الأشراك تخلّى عنك وأختفى ؟ أنتم تخرجون في طلبه وتضعون له الأشراك بالشرائع والنواميس فينفر منكم لأنكم لم تفهموا سره . لم تفهموا السّر . السرّ . .

تنهّد المصاب ولم يجب . عاند وجعاً واقبلت عليه الرّؤى . ردّد

بصوت من يكلّم نفسه :

- رغم كل شيء جئنا لنراهن على شيء مّا ، حتى إذا خرجنا صار لنا الرّهان ذِكْراً ..

قاطعه ساخراً :

- الذّكْر . الذِّكْر . لا تمل التغنّي بالذّكْر وأنت تعلم بأن النّاموس هو الذي قضى بألاّ يكون لمخلوق ذكْر إذا أضاع يوماً إسمه .

عاد من رحلته في الخلاء . اختلس للصريع نظرة . تساءل بخبث الدّهاة :

- أم ادركك وباء النسيان قبل أن تبدأ الرحلة فغاب عنك أنّك بلا إسم ؟

تمتم الزعيم :

- بلا إسم ؟

- ألم تفقد إسمك أبداً ؟ ألم تغدق على الضّالين وأهل السبيل بالأسماء في حين أنستك الدّنيا أنّك مخلوق ضالّ لا إسم له ؟

نهض الصريع مستعيناً بمرفقيه . اسند رأسه إلى الصخرة . حدّق في الشبح الذي يقف على رأسه ، ولكن البياض تمادى في مقلتيه . تهدّل اللثام وانحسر عن شفتيه الشاحبتين . جاهد الظّلمة فأغمض عينيه . اطلق زفرة موجعة قبل أن يتكلّم :

– تستطيع أن تخدعني دهراً ، وتدس في غنمي حيّة في جلد جدي أبلق ، ولكنك لن تقنعني بأنّي ضيّعت إسماً !

– هئ –هئ – هئ .. هل يستطيع جلالة الزعيم أن يتنازل ويخبرني عن إسمه ؟

– إسمي ؟! إسمي .. هل تظن أنّي نسيت ؟ ألا ترى أنّي متعب ؟

– أرأيت ؟ أنت لم تنسَ لأنّك متعب . أنت نسيت قبل حلول النسيان بأمد طويل . أنت نسيت أن الإسم هو الانسان . نسيت أن لا أمل للإنسان إذا أضاع إسمه.

انطفأ البريق في مقلة الزعيم . اسبل جفنيه في تسليم فأكمل السّاحر بحماس الشعراء :

– فهل يطمع في بقاء الذّكْر من استهان بالإسم ؟ ماذا ستقول عندما يسألك حاجب البستان ؟ بم ستجيب عندما يقول لك : « ما إسمك أيها الغريب ؟» . أم أنك ستجيبه كما يجيب كل الحمقى ، كما يجيب كل أهل الطمع : « نسيت» ؟ سيقول لك الحاجب : « أمرني السلطان ألا أفتح باباً لتائه لم يحدّثني بكلمة السّر » . سوف تحتار طويلاً. ستعض بنان الندم . ستبكي كما بكى كثيرون من قبلك ، وسوف تتعذب طويلاً بحثاً عن كلمة السّر . ولكنّك لن تجد سبيلاً إلى السّر ، إلى كلمة السّر ، لأنّ كلمة السّر ليست شيئاً آخر سوى إسمك الذي

نسيته . الإسم هو كله السّر التي ستفتح لك باب الواحة المفقودة . ها أنت تسمع الحقيقة أخيراً . ولكني اتساءل أيضا : ماذا يفيد أن تسمع الحقيقة إذا كان النسيان قد حلّ ، والاوان قد فات ؟

تمتم الزعيم بيأس :

– اعترف أنك عرفت كيف تنتقم . ولكن يكفيني أن الرواة سيذكرون في الملاحم أنّي لم أتبعك . لقد أغضتك كثيراً لأنّي لم أتبع سبيلك .

– لا يليق بحكيم أن يخدع نفسه وهو على الباب ، والشعراء لن يردّدوا سيرة مخلوق لم يعرفوا له إسماً .

قهقه الساحر بصوت عالٍ . قعقعت الضحكة المنكرة في صخور الشعفة فتزلزل الجبل بدمدمة خفيّة. ساعتها تبّدى وطنٌ فتمادى الصمت. اقبلت الرؤّى فابتعد في الوطن مسافة . اكتمل نزول الظّلمة ، وغزا الفراغ عطر التّرفاس .

في الفراغ الآخر ، الممتد وراء الوادي ، ارتفع نواح السكون .

٣٠- الرُّقْعَة

« أمرّ من الموت المرأة التي هي شباك ، وقلبها أشراك ، ويداها قيود »

سفر الجامعة (٧:٦)

* * *

« من سيأتينا بإنسان يحمل السّراج ، قبل حلول المغيب ؟».

غوته

« حكاية »

(١)

بعد رحيل المتسرعي بأسابيع تلقّى من الحسناء رقعة .

حملها إليه مهاجر عابر، ولا يعرف لماذا اختارت العابر الغامض ليكون لها رسولاً . وسْوَس له الهاجس كثيراً ، ولكنه لم يقف على السّر. اقبل عليه في المساء ، فرأى أن يستبقيه حتى الغد . أعدّ له خبزاً في جوف التّراب ، وحاوره على ضوء البدر . تحدّثا عن البلاء أوّلاً ، فأوحى له العابر بأن الخفاء لم يكن ليعطيه الحسناء لو لم يأخذ منه القطيع. استمع لحجّته طويلاً . أوْمأ بعمامته طويلاً ، قبل أن يحتكم إلى سيف المخالفة :

- سمعت من يقول أن الحسناء شرّ .

تضاحك العابر استخفافاً . أحكم اللثام حول وجهه حتى صار لفاماً يخفي كل الوجه ، ثم احتضن ركبتيه بذراعيه وتحدّث :

- إذا كانت الحسناء شرّاً فما هو الخير ؟

- الخير في الفرار.الخير في الابتعاد عن الحسناء !

- لا تردّد هراء أهل الاعتزال .

- ولكنّي جرّبت .

– لا تقل جرّبت.

– مددت يدي يوماً فنهشتني بالنّاب !

– النّاب ؟

– في فمها ناب أشرس من ناب الحيّة ، من ناب الجدي الذي ذهب بالقطيع .

– هذا سحر المعتزلة . تجنّب مخالطة أهل الاعتزال إذا رأيت أن تحيا.

حدّق فيه طويلاً . بحث عن حدقيته الغامضتين فتصدّى له اللّفام . مال إليه برأسه، ولكنه لم يجد أثراً للعين ، اعتدل في جلسته . مدّ يدا راجفة إلى اللّثام . لامس «آماوال » . تشبّث بالطّرف . انزله إلى اسفل . نزّ عرق حار ، ورفرف مخلوق النّور في الأعماق ، ولكنه لم يتوقّف عن سحب السّتار . تبدّى القرين . تمدّد تحت أرنبة الأنف في سباته الخالد . في سباته المريب . في سباته المزوّر الذي يراه أهل الغفلة رقْدة خالدة . سحب اللثام أكثر . تبدت العلامة . تبدّى أثر موحش ، تقاطع مع ضريح القرين فرسم تحت الأنف العلامة الخفيّة . مدّ يده الأخرى إلى الجليس . جذب لثامه بحزم ، فتكشّف الوجه ، ورأى في عين العابر إيماءً يكاد يكون غضباً . مال على أذنه . همس :

– هل رأيت ؟

عاد العابر يحكم اللثام حول انفه . قال بصوت آخر :

– أعلمُ أن الفوز بالحسناء يترك في المخلوق علامة . ولكنّي أعلم أيضاً أن لافرار من الحسناء .

رفع رأسه إلى البدر . ضمّ ركبتيه إلى صدره . احتضنهما بين ذراعيه . تمايل شمالاً وجنوباً .

– لو جاءني عابر برقعة من الحسناء لكنتُ أسعد الخلق . ولكن المخلوق لا يعرف أن السعادة في الحسناء إلاّ عندما يقف أمام الموت .

– يرى الكثيرون أن لُعاب الحسناء سُمّ.

– أعرف كثيرين أيضاً نالهم ندم عندما سمعوا نداء النذير ، وتأهبوا للسّفر ، لأنهم لم ينهلوا من رُضاب الحسناء . الحسناء هي الحياة!

غنّى الزوال في السكون . استلقى العابر . راقب البدر طويلاً ، فتساءل الرّاعي :

– هل انت ساحر ؟

العابر لم يجب ، فظنّ جبارين أنه غفا . هجع بجواره . تسلّى بمشاهدة الإله الفضّي الأعلى . رآه يعبر الاشراك ، يتوارى وراء غلالات شقيّة ، فلا يلبث أن يظهر ، ويتطهّر ، ويستدير ، ليدرك ، في مسيره العنيد ، ممالك السّعد . هناك تخلّص من البتور، واغتسل من السّاهور ،

وصار ناصعاً ، جذّاباً ، مدوّراً ، كرؤى الوطن البعيد .

زفر بشوق المجاذيب ، وابتلع ريقاً شحيحاً ، وبدأ يحلم بالوطن البعيد . وجد نفسه يتساءك :

– السحرة اجمعوا أن ساحراً عابراً أخذ الزعيم من يده وذهب به إلى الوطن البعيد .

تضاحك العابر باستخفاف مرّة اخرى . سكت طويلاً ، ثم قال بصوت ناله استرخاء :

– أعرف أن الزعيم وقع في خصام مع « وانتهيط». حدّثنا الناموس فقال أن الخسران من نصيب كل من خالف الساحر القديم ، فاحترس !

– اعرف خلقاً كثيراً يتحدّثون عن ناموس يحذّر من الاعتراف بـ« وانتهيط » .

– تجنّب أهل العزلة إذا أردت ألاّ يسوقك إليه الجدي !

– الجدي ؟

– ألم يكن ذلك المخلوق الذي قمت بتربيته جدياً ؟

– نعم . ولكن لم أعلم أن بين فكّيه ناب مسموم .

– ناب الذئب سيكون من نصيب كل قطيع رأى صاحبه أن

يكون له حُجّة في رهانه مع « وانتهيط» .

– هل كان الجدي ذئباً ؟

– ذئب أو حيّة . ليس مهماً في أي فك خرج ناب القدر ، ولكن على الرّاعي أن يتأمل الدرس ، ويتجنّب نسباً يفقد به ظلّه كما فقد الزعيم إسمه !

– يُقال أنّي فقدت ظلّي يوماً ، كما فقدت إسمي في تلك الرحلة، ولكن الزعيم دسّني في الظّلمة حتى استعدت ظلّي ، وأخرجني من الظلمات ليصرخ في أذني بالإسم . لولا الزعيم لما عرفت من أنا .

– ولكن ما جدوى أن يعيد للخلق ظلالاً ، ويهب الضالّين الاسماء إذا كان لا يدري أنه فقد إسمه منذ زمن بعيد ، بعيد ؟

– اعترف لك : لم أعرف له يوماً إسماً . كما اكتشفت أن القبيلة كلها لا تعرف له اسماً !

– لم يعرف له أحد إسماً ، ولكن لا أحد أيضاً يعرف أن ذلك كان قصاصاً .

– أي قصاص ؟

– هل تظن معاندة « وانتهيط » أمر سهل ؟ لا تدري أن زعيم «آزجر » الجليل نفسه يحسب له حساباً ، وعانى طويلاً (وما زال) عندما خانته الحكمة ، واستمع لصوت أهل السّوء فافتنوا ، ووقعت

خصومة رددتها الملاحم ، وعانت منها الأجيال ؟

– سمعت كما سمع غيري عن الخلاف ، ولكنّي لم أجد أحداً يعرف السبب .

– الحديث عن السبب يطول . ولكن تذكر الوصيّة : لا تصنع من « وانتهيط » خصمك إذا أردت ألاّ تقع في الشّر !

– هل يتنازل الساحر القديم فيخاصم راعياً شقياً؟

– الساحر القديم لا يستهين بالرعاة مهما كانوا صغاراً لأنه يعرف أن السّر في اصغر الأشياء . الساحر القديم لم يكن ليكون ساحراً قديماً لو انتحل مسلك البلهاء ، واستهان بالناموس الذي يقول أن الوصول إلى الاشياء الكبرى مستحيل إذا لم تطلبها في أصغر المواقع . وانت تعلم أن بنات الأرض الصغيرة أكثر سخاء ، لأنها هي التي تزوّد الوديان الكبيرة بمياه لا تلبث أن تتجمّع وتفيض وتصير سيولاً جارفة . فلا تتشبّه بالبلهاء ، وتذكّر أن في صدر المخلوق يرقد سلطان أقوى من سلطان زعيم «آزجر» ويتخفى سرّ ضاقت بحمله الصحراء .

– هل انت ساحر ؟

لم يجب العابر .

في الفراغ تمادى سلطان الضياء . رافق الطالع . دخل كل بيت.

توعّد كدخداي مداعباً . أبتسم في وجه الفاتنة هيلاج . تلذّذ بالبقاء في ارض الوطن البعيد .

تابعة جبارين طويلاً حتى أنه لم يدر متى غفا . استيقظ في الصباح فوجد الصحراء عارية ، فارغة ، تمضي إلى الأبد ، ولا توحي بغير القساوة واللامبالاة .

بحث عن العابر ، فوجد أنه قد اختفى.

(٢)

لا يذكر السّحرة للرُّقع تاريخاً ، ولكن أُكابرهم الحكماء احتكموا إلى الناموس الضائع فقادهم « آنهي » إلى الأثر . هبّ رُسل الخفاء على الصحراء كما يهبّ القبلي . أقبلوا بكنوزهم من مملكة المجهول ، ورفعوا في أيدي الاخيار الرُّقع الموسومة سرّاً . لم يعرف لهم أحد هويّة ، ولم تقف لهم القبائل على غاية ، لأن أهل الخلاء تعلّموا أن الظّمأ لمعرفة الملّة ، والمغالاة في الطّلب فضول وضيع مفسد للسّر ، كما جرّبوا أنهم ما حاولوا أن يخالفوا ويدركوا للرسول سرّاً إلاّ وأصيبوا ببلاء، أو نالهم قصاص الخفاء . توقفوا عن الطّلب ، وقنعوا بالكنز.

ظلّوا يتلقون الرّقع ، ويعكفون على فكّ رموزها الغامضة زماناً طويلاً .

في البدء أنهمك في قراءة الرُّقع كل من ناله الفراغ ، أو عانى من الوحشة ، ولكن أهل العقل أكتشفوا أن الدّهاة لم يكتفوا بالمحاججة ، والمجادلة وتأويل نصوص السماء بالقول الجهل ، ولكنهم تباهوا بالحكمة ، وادّعوا امتلاك السّر ، وصنعوا لأنفسهم شأناً لم يلق بهم يوماً ، ما لبثوا أن مشوا في الأرض بخيلاء الأكابر ، وتطاولوا على النّاموس ، ورأوا أنهم أقدر الخلق على تغيير الأمر ، فاستباحوا بجسارتهم المسافة ، ورأوا أن بوسعهم أن يضعوا للصحراء ناموساً لم تأت به السماء ، فافسدوا كثيراً جداًّ ، لأنهم لم يدركوا سرّ الرّقع التي بين أيديهم ، ولم يقرأوا فيها الوصيّة التي تقول أن الحكمة ليست في تغيير مجرى الوادي ، أو تبديل وضع الناموس ، ولكن في مجاراة المجرى القديم ، وإتّباع الناموس الأوّل.

لم يستغرب أهل العقل أن تعم الفتن، وتكثر العداوات ، وتتناحر القبائل ، طوال الزمان الذي دانت فيه الدّنيا لأولئك الادعياء . ولكن الأمر ما لبث أن استقام ، وعادت السيول تجري في الوديان القديمة ، واستعاد الناموس مجده الأوّل ، ما أن استأصل الأخيار سيرة الرعاع، وانتزعوا من أيديهم الرّقع ليضعوها في أيدي من عرف للسّر شأناً، ورأى في الناموس قدراً ، وقرأ حساب الخفاء كثيراً كثيراً ، وتجنّب أن يرفع إلى الأعالي عيناً ، حياء وخشية من سلطان يتخفّى في لامبالاة السماء .

احتكر السحرة أمر الرقع الخفيّة منذ ذلك اليوم .

ويُروى أن الرّقع لم تُصنّف وتنقسم إلى اركان ثلاث إلاّ بعد أن تولّى أمرها السّحرة . بعدها ، فقط ، ظهرت الرّقع التي دلّت المهاجرين إلى الآبار ، فانقذت خلقاً كثيراً من الظّمأ، وتناقلت سيرتها الملاحم ، وتنافست شاعرات القبائل في التغنّي بالهبة السماوية ، فزُبرت على الصخور ، وحُفرت في قطع الصّلد ، وحملها العابرون كتمائم، ودسوها في بقاع شتّى انتشرت في كل الصحراء .

ثم توصّل الدّهاة إلى الينبوع الأقدس ، واستخلصوا من الرّقع كنز الاخيار ، ووضعوا الوصايا النّاهية عن كل أمر كريه ، والدّاعية إلى خصال جرى بها الخفاء ، فوجدوا السبيل إلى العُرف ، ووضعوا ناموس الحياة . ثم اطلقوا على رُزمة الرّقع إسم «آنهي» .

ولكن الرّكن الثالث من الرقع هو الذي أصاب الخلق بالبلبال ، وجاء لأهل الصحراء بالبلاء . ولا يعرف حتى السحرة أنفسهم لم شاءت مشيئة الخفاء أن ترميهم بالرّقع التي روجت للذّهب ، وأشارت ، في رموز أخرى أكثر غموضاً من كل الرموز ، إلى معدن له مسلك الغبار شكلاً ، وله سلطان الجنّ سطوة ، أُطلق عليه فيما بعد إسم «التّبر». ويقال أن الخلق لم يكن ليلوموا في هذا الاكتشاف الذي قلب حياة الصحراء ، أحداً سوى انفسهم ، لأنهم اخطأوا في قراءة الرسالة قبل أن يخطئ أولى الأمر في فكّ الرّمز ، لأنّ ساحراً خرج على السحرة ، ورأى أن يدبّر شركاً للإيقاع بالمخلوق التائه في البريّة ، ويقيم له من

حبّات الثرى قريناً يقف له ضداً فكان أن صار في يده التّبر علامة إغواء اذلّ بها البلهاء ، وخدع الخلق ،ونال بها الحسان، واستدرج معتزلة ، واوقع بسلاطين ، وقلب أمماً ، وسلّط قبائل على قبائل ، وأنزل على الأرض بسببه ما لم تره عين ، ولم تسمع به أذن، ولم يخطر ببال مخلوق.

ولكن الرّقعة في اصلها جاءت للتّبر بقدر غير القدر الذي أراده له « وانتهيط» . فقيل في الناموس أن المعدن الأصفر كان ذرّة نبيلة الأصل ، لأنها تهدي إلى طريق السّر. وورد أيضاً أن في المسافة الاولى إلى السّر تقف الحيّة على باب التّبر عسّاساً لأنّ التّبر أنبل من أحيَل حيوانات البريّة ، وفي المسافة الثانية تتوارى الحسناء ، وخلف الحسناء يظهر الكنز الحقيقي . يظهر الظلّ موسوماً . في الوسم يُقرأ الإسم . ومن أدرك هذا الحدّ في دهليز الظلمات نال السرّ الذي لم تظهر الرقع في الصحراء إلاّ لتهدي الخلق إليه .ولكن الخلق سلكوا السبيل الأسهل ، لأن السبيل إلى الحيّة مقطوع إذا لم يستوحش من انتوى الطلب ، ولم يركن للاعتزال طويلاً . كما استحال الوصول إلى التّبر دون قطع الوصال بالدّنيا إلى الأبد ، وهو شرط رآه الخلق أكثر تعجيزاً . أماّ الظلّ الموسوم بالإسم فصار مستحيلاً مرتين إذا لم يجد من طلب في نفسه الشجاعة للفرار من وجه الحسناء . فكيف لا ينحرف البلهاء بالرسالة ، ولا يضلّون سبيل السّر إذا رأوا أن نيل التّبر يكفيهم شرّ الطلب ، ويأتيهم

بالمجد والسلطان والحسناء ، ظنّاً منهم أن نيل السلطان هو رأس الحكمة ، والحسناء هي الكنز الموعود ، والمجد ألذّ من الوصول إلى مخبأ الظّل ، وأنبل من الإسم ، وأبهى من السّر البعيد.وتحجّجوا ، أخيراً ، بأن التّبر يأتي بكل الاشياء التي يذهب بها الموت ، فكيف لا يُنصّب إلهاً للسماوات ، وحياة لكل أرض ؟

هذا الاعتقاد هو الذي أصاب الصحراء بالبلاء . فما أن أنتشر الخبر ، وبلغ أبعد الأمم ، حتّى تقاطر على الصحراء الباحثون عن الكنوز. جاءوا من كل فجّ ، واقبلوا من أبعد الممالك . ركبوا البحار ، وشقّوا الانهار ، وعبروا الخلوات ، وعجز حتى الظّمأ في منعهم من الوصول إلى الصحراء . فكان أن شهدت الواحة الخالدة الغزوات، والغارات ، والنهب والسلب ، والمكائد ، وعرف قاموس الصحراء القتل والغدر والخداع لأول مرّة .

حاول سحرة كثيرون أن يقوّموا الأمر ، ويقنعوا الخلق بالخطأ الذي وقع في القراءة الأولى فأساء للنص القديم ، فقالوا أن الأركان الثلاث هي واحدة بالأصل ، وما الماء والتّبر والناموس سوى شيء واحد مسخّر لسبيل السّر ، ولكن عبثاً . لأنهم ذهبوا بعيداً ، ورأوا في التّبر إله الحياة ، ما دام قادراً على أن يعيد لهم تلك النعم التي جربوا أن الموت لا يأتي إلاّ ليأخذها منهم .

(٣)

حملها أيّاماً .

كلّما أقترب منها ، وهمّ باستخراجها من خرقة الكتّان ، ارتجف وخاف من المجهول ، وكلّما ابتعد عنها حرقته حمّى الفضول . ادرك أن للرقعة خصال السّر الذي لا يجعلك تنام إذا لم تقف له على أمر ، وإذا نلته تفسّخ كما يتفسّخ كنز تبرٍ لم يسق بدم قربان ، فيخلّف في القلب ندماً غامضاً ، ويزرع في البال بلبالاً .

جرّب هذا الإغواء كلّما وقف أمام ضريح « إدبني » طلباً لعظمة القَدَر ، وكلّما رأى الأرض تتشقّق ، وتكتب بألواح الطّين سرّاً بعيداً ، بعيداً ، قبل أن تهبه قطعة التّرفاس . وعرف هذا الإغواء أيضاً كلّما وقف حائراً أمام رموز « تيفيناغ » المحفورة في الصّلد دون أن يتوصّل لفكّ الرمز أو فهم الوصيّة . لهذه الاركان لغة أقوى من كل لغة ، ولكنها لغة بعيدة ، خفية ، تخبر بالجزء إماءاً غامضاً ، وتتعمّد أن تُبقي على الاعشار التسعة الباقية خفيّة ، فتحاكي في مسلكها ثمرة التّرفاس نفسها التي لا تُخرج من الأرض جانباً من شعفتها إلاّ لتتباهى بإخفاء باقي البدن كلّه في جوف الطين .

ولكن السّر يبقى أكثر جاذبية من كل سّر ، ويبقى الإغواء الذي يشدّ إلى رقعة السّر أقوى سلطاناً من كل خوف ، ومهما خادع صاحب الإرادة ، وحاول أن يقنع نفسه بالحجج التي ترى في البُعد سكينة وراحة

للبال ، إلاّ أن القوّة المجهولة التي تجبر الفراشة أن تُقبّل لسان النّار لتموت، ما تلبث أن تغلب هنا أيضاً . ذهب ودفنها في «إدبني» عظيم الهيكل ، مشيّد من الحجارة السوداء المستعارة من جبال النّار ، فيقف كعسّاس أبدي على حافة وادي الجنّ . ثم قطع الوادي غرباً ، وقضى ليلته في أرض استعادت فيها الحمادة السلطان من جديد ، فتمدّد العراء فسيحاً ، سمحاً ، خاليا، ولم يتوقّف ، أو يتسامح ، إلاّ عندما اخفته المسافة ، ونال مجد التلاشي في أفق امتلكته سماء عالية ، مكابرة ، وحيدة ، لا مبالية ، ككل الآلهة .

في تلك الليلة لم ينم . ولم يكن السبب جُند الجنّ الذين سمعهم يتهارجون ، ويتبارون بالاشعار ، ويتنابزون بالألقاب ، طوال الليل . إذ إعتاد على هرجهم كلما قضى ليلته بجوار الوادي في السنوات التي كان يحوش فيها القطعان في المراعي الغربية . ولكن سبب الأرق كان الرّقعة .

رأى أن يبتعد عن موقع الكنز فسلك سبيل الجبال الزرق . مشى طوال اليوم ، ولكنه لم يعرف أبداً كيف طاف به المطاف ، واستدارت به الدّائرة ، ليجد نفسه يقف أمام الضريح قبل حلول المغيب .

جلس أمام البنيان الحجري الجليل ، وتلذّذ بتجرّع الماء . تمتّع بالغروب ، وعندما أكتمل نزول الظّلمة توسّد حجارة الضريح ونام .

في قلب الليل زاره السّلف . استيقظ فوجده يقف فوق رأسه . كان ملفوفاً بالثياب الزرقاء كلّه فلم يتبيّن له طرفاً . وقف طويلاً قبل أن ينحني . انحنى وفي يده اليمنى حبلاً جذّاباً ظلّ يومض بأضواء نهمة كأنّها ألسنة النّار . ولكن ألوان الإشعاع لم تستعر لونها من النّار وحدها. كانت ألواناً مختلفة ، شرهة في بريقها ، تحاكي الشّرر في وثبها ، ولكنه أحسّ أن سرّ الجاذبية لم يكن في شدّة البريق ، ولا في تعدّد الألوان ، ولكنه في إيماء آخر وراء هذا كلّه ، إيماء له مزايا الاشعار التي تحرق البدن بالأشجان إذا استقامت في اللّحون ، ويزداد سرّها غموضاً كلما حاولت أن تجتاز عتبة الإيماء ، وتصل إلى الضريح حيث يتخفّى الكنز، في تلك الهاوية التي لم تعترف بسطوة المكان ، ولم ينلها سلطان الزمان.

ولكن الوهج بدأ يخبو ، والإيماء تراجع وابتعد . ابتعد طويلاً قبل أن تبتلعه الظلّمة وينطفئ . في الصباح قفز إلى البنيان ، واستردّ الأمانة من يد السّلف .

(٤)

أعتلى أكمة ، وشرع يتفحّص الرسالة : كانت مدسوسة في ثنايا قطعة شاحبة من كتّان اعتاد أهل الخلاء أن يقتنوه من اصحاب القوافل ليخيطوا منه أكفان موتاهم . ولكن ربّة الصحراء سلّطت عليه شعاع النّار فامتصّ منه البياض وفقد القماش لونه النبيّل . تمزّق منها طرف فتبدّى جلد الرقعة . بدأ يجرّدها من الستار . فكّ الرّباط فتعرّى الكنز

وتخلّص من الكفن . رفع القطعة إلى أنفه فغزته نكهة غامضة . لم تكن رائحة جلد أبداً ، ولا رائحة لحاء الدبّاغ أيضاً . بل فيها رائحة مريبة ، قديمة ، خفيّة . فهل هي رائحة تراب ؟ أم هو ترفاس مجفّف ؟ أم .. أم رائحة العظام التي طوّقتها حجارة النّار دهراً ، وعاندت شراهة ذرّات التراب دهراً ، وعرفت سطوة الغبار دهراً ؟ أم أن النكهة مزيج من ترفاس مجفّف ، وعظام صارت طعاماً للتّراب منذ أمد لا يعلمه أحد ؟ أم أن للأشياء الخفيّة إيماء واحد ، وطعم واحد ، ونكهة واحدة ؟ ولِمَ صار الترفاس المجفّف الممزوج بفتات عظام نالها التّراب هو الإيماء ، وهو الطعم ، وهو النكهة ؟ أم أن الترفاس الذي جاء من التّراب هو من أبدع السّر ، سّر الأرض ، وسّر الأزل ، بعد أن استعار من الصحراء خصالاً ، واتّخذ من ذرّات الرّمل قريناً خالداً ؟

جلس ووضعها على فرش من الحجارة الرمادية . تنهّد بإعياء من قطع المسافة بين السماء والصحراء ركضاً . لامسها بسبّابته . جرّ السبّابة إلى أسفل . سقط الإصبع على ألواح الحجارة . شقّ حقلاً ضحلاً من حبّات الحَصَى . استمّر يحرث المساحة ، ويزيح ذرّات الحصى إلى الجانبين . وعندما كفّ كان طرف الإصبع قد لاصق ركبته ، والوسم المرسوم على التّراب صَارَ علامة اعادته إلى الدّغل عندما دخل أرض السّر ، وعرف الخطر، وتلقّى الوسم الصارم الذي يتقاطع مع القرين أسفل الشفة، ويتعمّد أن يخفيه بطرف اللّفام حياء .

ابتسم .

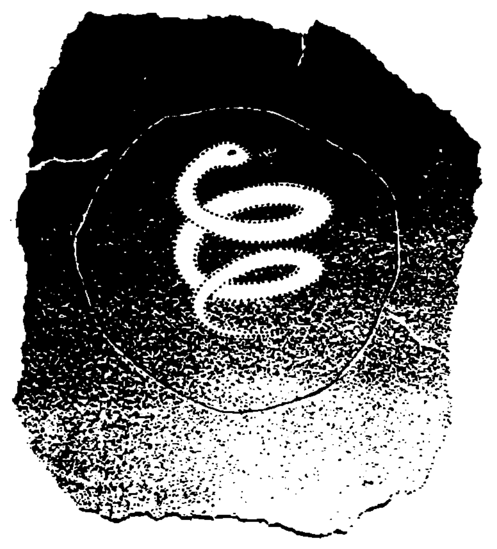
انطفأ شعاع العشيّة ، ورسم الجلاّد وصيّة الوداع في لوح الافق .

زفر صهداً حاراً كانفاس القبلي . انقضّ على اللّفافة كما ينقض الظمآن إلى الماء. افتضّها في طرفة عين ، وفزّ إلى الوراء في طرفة عين أيضاً . قبل أن يقفز خلفاً أطلق صيحة بطولية ، وربما صيحة فزع ، ثم انطلق يجري . نزل الأكمة في قفزتين ، وركض عبر العراء مسافة طويلة. أخيراً توقّف . قفز في الهواء وعاد يصيح : « غي – يـ – يـ – يـ – يّا » . كان يلهث ويسفح عرقاً ، ولكن النّار المجهولة لم تهبه فرصة ليلتقط نفساً فوجد نفسه يسير مزموماً نحو الشرق ، ثم نحو الغرب ، ثم إلى الجهات الأربع ، ثم صنع بخطواته دائرة . ثم ركض عائداً على عقبيه . تباطأ اسفل الأكمة .توثّب . تأهب لمشادّة حاميّة . بدأ يعتلي المرتفع مستنفراً . اقترب من الموقع . وقف في الحرم . بلغ أرض الخطر . التقط عصاته من الأرض دون أن يغفل عن اللّفافة . اقترب خطوة أخرى. تفقّد اللّفافة بالعصا . أزاح طرف الرقعة فلمع في شعاع الغسق وميض صارم ، وتبدّى الكائن المكوم في جوف اللّفافة . سالت دفعة الشعاع في الجوف ، فسطع البدن الذهبي الخالد ، ووجد أن رأس العصا يدوس على الرأس العدواني المقزّز بالضّبط ، فيفقأ عيناً استقرّ في حدقتها الصغيرة سؤال الخلق القديم عن سرّ الأبدية .

تشجّع .

اقترب خطوة .

تناول الرقعة بين يديه . شرّعها أمام وجهه . رقص الشعاع الأرجواني في حبيبات التّبر فتململ المخلوق الخالد ، وحاول أن يتمرّد على الدّائرة الصارمة . صدّه القوس المرسوم بسواد عميق له لون الكُحل ، فامتثلت إلهة الحكمة لمصير سَنَّهُ الناموس . فوق الدائرة بقع كثيرة خاطتها كفّ الكاهنة بحبيبات الخرز الأبيض . سبع حبّات تناثرت فوق رأس الحيّة يساراً ، وستّ حبّات أخرى ثُبّتت يميناً . أمّا الحيّة نفسها فرُكبّت من حبّات خرز صفراء بلون التّبر ، ولا يعرف من أين حصلت الدّاهية على حبّات خرز بهذا اللّون . فلم يسبق له أن رأى لها مثيلاً ، كما لم يتوقّع أن يكون لخرزٍ بهذا اللون في الصحراء وجود . ولكن المرأة مخلوق لا يعجز عن نيل شيء حقّاً . يكفي أن تتخيّل الأنثى أمراً يراه الخلق مستحيلاً حتى يهرع إليها « وانتهيط » ليلبّي النّداء ، ويجعل من امنية المستحيل مخلوقاً يسعى على قدمين .



وقد بلغ الإتقان في تركيب الحيّة حداً رآها فيه حيّة حقيقيّة تُخرج رأسها الكريه من أحراش الدّغل ، وتغافله بضربة مباغتة من النّاب. تلقّى القصاص فألقى بالكنز أرضاً ، وقفز إلى الوراء ، لأن من نال القصاص يوماً ، وعرف سُمّ الناب ، وحده يرى الحبل الميّت حيّة تسعى . ألم يرد في الناموس أن الحية حبل يسعى ، والحبل حيّة مقطوعة الرأس ؟ فهل أراد سلف الليل أن يلهمه بنبوءة عندما لوّح في وجهه بالحبل الجذّاب ؟ ألم يكن البريق الذي شعّ في حبل الليل هو نفسه تلاعب ضياء الغسق في حبّات الخرز الأصفر ؟ فلِمَ استهان بالجدّ ، ولم يجتهد في قراءة النبوءة ؟ ألم يذكر الناموس أيضاً أن كل شيء تقع عليه العين في الصحراء يحمل لك نبوءة ؟ ألم يتوعّد الناموس بالويل كل من تجاهل إخبار الاشياء ، في مكان أبعد من الصّحراء ؟

(٥)

توارت النّبوءة . تراجعت إلى الوراء والتحقت ببيت الناموس لأنّ الإنسان لم يستجب ، فلم تجد بيتاً تأوي إليه ، ورأت بديلاً مُنكراً في قامة مخلوق اشتهى أن يتلذّذ . ففي عتمة الغسق تربّع وباشر خلوته بالحسناء. دفن رأسه في لحاف الجلد ، واقترب بأنفه من اللسان المشقوق إلى نصفين سعيا وراء الأنفاس . ففي اللسان بدأ السفر القديم، ومن الانفاس وُلد السّر ، ومن الرّضاب الخفيّ جرى ماء الحياة . دسّ رأسه راكعاً .

أزاح طرف اللّفام عن فتحتي الأنف . انحنى . مضى إلى ركن القدر . سار في السبيل الأوّل . نزل الوادي . دخل دغلاً . اجتاز أحراشاً كثيفة . وقف بالباب . هأهأ الحاجب بضحك مكتوم . وقف دهراً . ولكن الإلهام تنزّل فاكتشف أن الباب كان مفتوحاً منذ البدء . تقدّم خطوة. احتضنه الوطن . أفزعه السكون . قرأ الوطن لغته الخفيّة فأرسل له طيراً يغنّي . حنّ إلى قبلة الازل . اشتاق لنَفَس القُدرة ، وانتظر شرر الإعجاز الذي يهبّ مع الأنفاس ، فأحسّ بالدّفء . غيبّته الحّمى فاستنشق من انفاسها الشهيّة مزيداً من الانفاس . ارتفع غناء الطائر شجيّا ، فتمادى في سحب الانفاس . علا اللّحن في نسق جديد يليق بقران التكوين . استبّدت به رجفة الحنين . استزاد من انفاس الحياة ، وصيّرته الاغنية طيراً، لحناً ، قبساً، آخر شعاع في سفر المساء . ابتعد الوطن . سكت الطائر عن الغناء . أراد أن يتنحى فضرب المملكة زلزال . أراد أن يتنحّى ليستطعم كنزه ، ولكنه ادرك أنه يختنق . يختنق . يختنق . فتح عيناً فوجد أفعوان الادغال يلتف حول رقبته ويدس لسانه الشرّه في فتحتي الأنف ليسحب انفاسه . كوّر قبضته وهوى بها على رأسه ، ولكن اللطمة زادته عناداً . نهض بجهد بطولي ، ولكنه لم يستطع أن يتخلّص من العدوّ . حاول أن يصرخ فلم يخرج من حنجرته سوى حشرجة مخنوقة شبيهة بالفحيح . تململ القرين الرّاقد تحت أرنبة الأنف . خار وأحس بالدوار . بدأ القرين يستيقظ فنزلت في الجوف ظلمة . ظلمة . ظلمة . فسمع النّبوءة تقول : « لقد خنتني ، وآثرت الحسناء !» . زأر

كالوحش ، وانتزع البدن الكريه من منخريه ورمى به بعيداً . انطلق يركض .

ركض طوال الليل .

(٦)

لجأ إلى السّاحر .

أقبل عليه ليلاً فأشعل الساحر ناراً ، وتفحّص الرقعة مليّاً . تبّسم مراراً ، واختلس إليه نظرات غامضة ، ثم طوى الرقعة ، وتركها في قبضة يده اليمنى . حدّق في لسان النّار بمقلتين رأى فيهما سكينة لم يرها إلاّ في عيون العميان . حدّثه بالسيرة ، ولكن وهج الجمر استغرق الكاهن ، فنزلت في العينين سكينة الاموات ، وتهدّل اللثام عن شفتيه المنفرجتين . تراجعت الابتسامة حتى كادت أن تتلاشى . انتهى من السيرة. تنزّل السكون . انطفأت النّار . تكلّم الجمر باحتراس . تخافت الوهج ودبّ في الجمرات شيب . انتهكها الساحر بالمسعر فتبّدى كنز الجوف وعادت تتلألأ . قال أخيراً :

– يحق لك أن تتباهى بأنّك استضفت أقدم ساحر في الصحراء كلّها .

هتف بعجب :

– وانتهيط ؟

– ..

– ولكنّي لم أرَ له أتاناً ؟

– وهل تظن الأُتان قرينه ؟

– يُقال أنه لا يقبل إلاّ على ظهر الأُتان .

– هذا ما جاء به النّاموس عندما أقبل على النجوع لأول مرّة كي يقودها إلى «واو» .

– هل قاد النجوع إلى « واو » أيضاً ؟

– الحق أنها رواية طويلة وغامضة حرّفتها ألسن أهل الفضول كثيراً ، ولكن اليقين أن النجع لم يصل إلى «واو» .

– ادركت أنّك ستقول ذلك . أقسم بـ « تانيت» أنّي خمنّت . قلت لابد أن «وانتهيط» سيقود القبائل في سبيل آخر .

– يليق بك أن تخمّن ما رآه النّاموس . وما يراه الناموس لابد أن يجري به القدر.

– ولكن هل يظنّ مولاي أن « وانتهيط» هو الذي سلّمني الرسالة حقّاً ؟

– أما زلت تشكّ ؟

سكت . حفر رمزاً على الارض بسبابته . تساءل دون أن يرفع رأسه :

– كان مخلوقاً بائساً ككل الخلق !

– ألم يحدّثك عن الخير والشرّ أبداً ؟

سكت مرّة أخرى . أجاب :

– الحق أني لا اذكر . تحدّث عن اشياء كثيرة . ولكني لا أنسى كيف تغنّى بالحسناء ! .

– هل تغنّى بخصال الحسان ؟

– قلت له أنها أصابتني بالنّاب ، وعندما لم يصدّق كشفت له عن العلامة ، ولكنه تجاهل حجّتي ، وانتهى إلى أن الحسناء هي الحياة . هل يوافقه مولاي في هذا الإدّعاء أيضاً ؟

حدجه الساحر بمقلتيه المطفأتين ، ثم ستر شفتيه بطرف اللثام . احتمى بالجمر مرّة أخرى . قال :

– قد لا اختلف معه في شؤون كثيرة ، ولكني اعرف شيئاً واحداً فيما يتعلّق بالحسناء : إذا أردتَ أن تستنشق من انفاس الحسناء فتهيأ للحساب .

– الحساب ؟

– نعم الثمن . تظنّ أنّك تنهل من النبع انفاس الحياة ، ولكن لسان الافعوان يمتد خلسةً لينال منك الانفاس .

– لِمَ يختبئ الثعبان حيثما وُجدت الحسناء ؟

– لأن الحيّة للحسناء قرين قديم . قديم جداً .

– حدّثني ، يا مولاي ، عن الحسناء . اسمعني شيئاً عن طبع الحسناء . أردت أن أفهم سرّ الحسناء منذ بدأت أفهم .

ابتسم الساحر فجأة . هرش جوف النّار بالمسعر . قال :

– مهما أردت أن تفهم فلا تطمع في أن تفهم للحسناء سرّاً . إنّها المخلوق الوحيد الذي يعجز حتى الساحر في أن يحيط بها علماً !

– هل هي بعيدة إلى هذا الحدّ ؟

– بعيدة . بعيدة جداً . أبعد من «واو» . أبعد من البُعد نفسه .

– لِمَ اختارت « وانتهيط» ليكون لها رسولا ؟

– لسببين أوّلهما : لأن «وانتهيط» صديق قديم لها ربطتهما علاقة غامضة في القدم، فكانت لهما الحيّة قريناً ثالثاً. ثانياً : اختارته الدّاهية رسولاً لأن حجّته أقوى من كل حجّة في الصحراء .

– ألم يقل أهل الاعتزال أن «وانتهيط» هو الذي قاد مولانا الزعيم إلى الهاوية ؟ كيف ترضى به صديقاً ورسولاً إذا كان قد قاد أباها إلى التّيه ؟

– الحسناء لا تعرف لها أباً ولا أمّاً ولا قريناً إذا خيرت بينهم وبين مولاها الأوّل . إذا حضر المولى بطُلت قرابة الدّم ، واستعاد كل مخلوق ناموسه الاوّل .

– ولكن .. ولكن ماذا تقول الرقعة يا مولاي ؟

– لقد وهبتك حيّة بهيّة من التّبر . فماذا قلت لك عن الحيّة منذ قليل ؟ وماذا يقول النّاموس عن التّبر ؟

– قلت لي أن الحيّة قرين للحسناء قديم . وسمعت عابراً يقول أن الحيّة تحرس التّبر لأنه شرك الحسناء .

– صدق العابر .

– لم أفهم ..

– ليس إيماء الحسناء كسرّ الحسناء إعجازاً .

– ...

– ما أيسر أن تتبسّم لك الحسناء وتقول لك : «تعال !» .

– ما أيسر أن تصيبك بالنّاب أيضاً !

– سلطان الحسناء في الإغواء !

– ولكن ضربة النّاب سمّ يا مولاي !

– الناموس يقول أن النّاب قدر الإنسان ، وإذا لم تمت بسمّ نلته في رضاب الحسناء اليوم ،وقعت غداً في شرك أبشع ، ومُتّ بسمّ أقوى!

– هل قال الناموس ذلك حقّاً ؟

– هل يتكلّم الساحر بغير الناموس ؟ أردت أن أقول أن ما يقوله الساحر هو ناموس حتى إذا لم يقله الناموس . فامضِ ولا تترك الحسناء تنتظر !

– هل ينصح مولاي بأن أسلّم أمري بيد الحسناء ؟

– الساحر لا ينصح بشئ أبداً . الساحر يقرأ مسلك القدر ، ويفسّر رسائل العشق .

– ألم تحمل رسالة الحسناء إشارة أخرى غير العشق ؟

– انتظر ! الرسالة حملت نبوءة أخرى .

– نبوءة ؟

بسط الرقعة بين يديه . ازعجته العتمة فهرش جوف الموقد

بالمسعر. تلامعت عيون الجمر فعاد إلى الرقعة . قال مشيراً إلى قطع الخرز المتناثرة فوق رأس الحيّة :

– هل رأيت الرمز ؟

انحنى على الجلد . تابع سبّابة الكاهن وهي تتنقّل بين حبّات الخرز المثبّتة فوق الحيّة . لامس الحبّات الاربع المتجاورة ، وانحدر مع اللسان المكوّن من حبّات ثلاث . قال :

– هذه طالمت (*) .

انتقل إلى الجهة الأخرى . تحسّس الحبيبات الثلاث العليا ، ثم لامس الثلاث السفلى . قال :

– هذا آورَا (**) .

طوى الرقعة في لفافة نحيلة ، ودسّ اللّفافة في قطعة الكتّان . استبقى القطعة في يده . انطفأت في عينيه المقلتان . فرّ ببصره إلى الظلمة ، وقرأ في اللّوح الخفيّ :

– انطلقت « طالمت » ترتع في مرعى خارج الدائرة . في ساقيها الأماميتين عُقال لا تتبيّنه العين ، وفي المرتع المقابل توثّب الحُوار المشدود إلى الطلحة بأضعف حبل عرفته الصّحراء . يروق للناموس أن يسمّيه

---

* طالمت : النّاقة (وهي بنات نعش) .

** آورَا : الحُوار .

حبلاً ، ولكن من يستطيع أن يرى في خيط العهن حبلاً غير الرّؤى السماوية التي أوكل لها أمر الحوار ؟ الحوار لا ينحني على العشب إلا أنّ حنينه إلى ضرع الأمّ أقوى من جوعه إلى أسخى الحشائش . والخلق الأبله لا يعرف أن المصير كلّه رهن بانقطاع خيط عهنٍ هو في الوهن أقرب إلى خيط العنكبوت . لأن العهن لابد أن ينقطع ، والحُوار لابد أن ينطلق إلى الضّرع . وإذا استوى الأمر ، ورضع الحُوار من ضرع الأمّ ، انقصفت البكرة على البئر ، وسُمع نداء النذير ، لأن التّراب حنّ إلى التراب ، والجزء احترق شوقاً للعودة إلى الكُلّ الاوّل . فما نفع التدبير وقتها ؟ وما نفع مَهمّة هي بخيط العهن رهينة ؟ أم أن الإنسان يطمع في النجاة من القدر لو أحتمى بأقوى سلطان ؟

سكت الكاهن . تكلّم الرّاعي :

– حتى لو احتمى بسلطان الآلهة ؟

ابتسم الساحر . عاد يستلهم النّبأ من لوح الظلمات :

– للآلهة سلطان على الدّائرة حقّاً . ولكن ألم تلحظ وضع النجوم ؟ لقد احتلت وضعاً خارج الدائرة . القدر وحده يقع خارج الدائرة ، ولذا فهو سلطان على مَنْ امتلك السلطان على الدائرة .

في الموقد زحف الشيب ، وأمات في الجمر آخر وميض. في عيني الكاهن نزلت عتمة .

٣١ - الجَبَلُ

« انظر إليه ولا أراه ، ولهذا السبب أُسمّيه اللامرئي . استمع إليه ولا أسمعه ، ولهذا السّبب أُسمّيه اللامسموع . أُحاول أن أمسك به ولا أصل إليه ، ولهذا السّبب أُسمّيه الأصغر بين الكائنات . (...) شعفته ليست مضاءة ، حضيضه ليس معتماً . هو لانهائي ، ولا يمكن إطلاق إسم عليه . ها هو يعود من جديد إلى العدم . وها أنا أسمّيه شكلاً بلا شكل ، مثالاً بلا بدن . لهذا السّبب أُسمّيه الغامض ، المحتجب . أُلاقيه ولا أرى له وجهاً . ، أسعى في أثره فلا أرى له ظهراً » .

لاوتسي
« تعاليم الطّاو»

(١)

لم يذهب لزيارة الحسناء .

اعتلى المرتفع حقاً . اخترق حشداً من البيوت الحجرية التي أُلحقت بالكهوف المحفورة في صلد الجبل . في نهاية الحشد شرقاً ، تعلّق بيتها بالسّفح ، تنتصب فوق زواياه مثلثات « تانيت» ، وتسطع لطخات الجير فوق جدرانه . تصبّب من جبينه عرق سخيّ ، وتلاحقت في صدره الانفاس ، ولكنه صرع في جوفه المارد ، وانطلق يصعد الجبل بسرعة ودّأن .

تمدّدت شعفة الجبل مسافة واعدة ، ولكن العهد انقطع فجأة ، وانتهت الفسحة إلى هاوية . تلوّى مع السّفح الصارم طويلاً ، واستعان بيديه كثيراً ، قبل أن يبلغ الحضيض . في الاسافل تمدّد سهل سمح ، مضى يستلقي شمالاً ، تخترقه بنات ارض خجولة ، وتركض فوقه ، في مسافات متباعدة ، أشجار طلح مستقيمة لسيقان ، تعتمر عمائم خضراء، فتتباهى بكنزها ، وتفتخر بنضارة فقدتها الكائنات المجاورة . في نهاية المتاهة العارية ، في المدى البعيد ، اعترض المتاهة العارية امتداد جبلي مهيب، يتلحّف بغلالة في الحضيض ، وتستوي شعفته في امتداد صارم كأنّها قُطعت بمدْية الجنّ . استلقى تحت طلحة مكابرة . تابع

الفراغ فقاده إلى السماء . كانت قريبة جداً ، وبعيدة جداً ، وحيدة ولا مبالية ، متوعّدة وواعدة . صارمة في عزلتها ، ولكن في صرامتها حنان ، وفي عزلتها رحمة . كلّمته بألف لسان ، ولكنها تسامت فلم تستخدم في اللغة صوتاً . كان الفراغ الأبدي لها وطناً ، كما كان السكون لها لغة خالدة .

(٢)

فتح عينه على دنيا تجّهمت بالظّلمة ، ولكن الانواء استعادت سلطانها على السماء ، فتغامزت ، وتشاورت ، واومأت ، ثم تبادلت الرُّسل ، وتخاطبت بالنبوءات . أنحنت « طالمت » على العشب جنوباً ، وتوثّب حُوارها وهّم بالقفز على الضّرع في الشمال . شاهد بالعين كيف تراخى رباط العهن الوضيع وآلى لانقطاع ، ففزع ، وهبّ.

بالجوار تربّع عابر أمام نار خابئة . يتلحف بلثام له لون الظّلمة ، يرتدي جلباباً شاحباً ، وسروالاً له لون اللثام . نحاسي البشرة ، نحيل البُنية، ألقَى إلى النار بالعيدان ، فرأى في المعصم النحيل الذي تتقاطع فوقه العروق ، نُدَباً عميقة ، وآثاراً لجروح قديمة . كان يتابعه صامتاً ، ويبتسم بغموض . في عينيه شقاوة طفل ، وسكينة . سكينة تناسب السكون في الصحراء، وتلائم استسلام السماء. ولكن كيف استطاعت

أن تنسجم مع شقاوة الأطفال ، مع الوميض الذي لم يره إلاّ في عيون العشّاق ، أو عيون طلاّب الكنوز ؟ اعتدل في جلسته وتساءل :

– استغفلني نعاس . أرجو ألاّ أكون قد نمت طويلاً ؟

سمع صوتاً مرحاً يليق أن يكون صوت طفل :

– لو لم يستغفلك النعاس لما نزل عليك عابر يحمل إليك الماء بيد، ويضع بين يديك عطيّة من أنفس عطايا الأرض الثلاث !

– هل قلت عطايا الأرض الثلاث ؟

– الترّفاس ، وزهرة الرتّم ، والنسيم البحري .

– صدقت . اختلف أهل الصحراء في كل شيء ، ولكنهم اتفقوا على الثالوث كما اتّفقوا على النّاموس .

– بل أنهم لم يتفقوا على الناموس مثلما اتفقوا على الثالوث .

هرش العابر موقد النّار بمسعر سميك . أزاح الجمر جانباً ، وأخرج من الملّة ثلاث قطع رمادية اللّون . هتف الرّاعي :

– ترفاس ؟

تمادى الألق في عيني العابر . انحنى على قطعة كبيرة أصابها شرخ ، فنزفت سائلاً بلون الدّم ، وتشكّت بصوت مسموع . حرّر أذنه

من اللثام وألصقها بقطعة الترفاس . تابعه جبارين بفضول ، ثم سأل :

– هل أنت عرّاف ؟

رفع العابر رأسه . همّ بأن يعيد طرف اللثام فتهدّلت العمامة وسقط الطرف الأمامي إلى الأسفل . انكشف الوجه ، فلاحظ جبارين آثار حروق أشدّ فضاعة من الكدمات التي تسم المعصم . ستر العابر جراحه بتمهّل الأكابر . قال بهدوء :

– لو كنت عرّافاً حقاً لحدّثتك الآن بنوايا القدر . ليس في أرض الصحراء نبوءة أصدق من نبوءة تتكلّم بها وليدة الأرض .

– الحقّ أني لم أعرف عرّافاً يقرأ الأنباء من الترفاس .

– لأن عدد العرّافين في الصحراء أقل بكثير مما تظنّ .

– هل أردت أن تقول أن عدد العرّافين المزيّفين يفوق عدد العرّافين الحقيقيين ؟

– أحسنت . أحسنت . ولكن لا تظنّ أن هذه لعنة أصابت العِرافة وحدها . فالحق أن هذا حال كل الحرف . المزيّف دائماً في مقدّمة القافلة ، في دائرة الضوء ، في وسط الأكابر وبجوار الزعيم ، ولكن الحقيقي يمشي خلف القافلة ، يتعثّر خجلاً ، يبحث عن موقع أبعد، عن ظلّ يخفيه عن كل عين ، ويتمنّى لو تنشقّ الأرض وتبتلعه ،

لأنه يعرف أن المكان الوحيد المناسب لكل أمر حقيقي هو الخفاء ، الجوف ، العدم .

– هل يبدو الضياء كريهاً في عيون مولاي إلى هذا الحدّ ؟

– من حقّك أن تلقي هذا السؤال لأنّك لم تجرّب . إذهب وجرّب أوّلاً ثم عُدّ وأخبرني .

اطلق ضحكة مفاجئة ، اشتدّ الألق في مقلتيه وميضاً . دارى حرجاً مجهولاً فرفع «اماوال» فوق أرنبة الأنف .

زفر جبارين فحيحاً . خنق غضبة ، وغالب سهم الاستفزاز . قال:

– هل رأى مولاي في وجهي علامة حملّته على الاعتقاد بأنّي غرّ ؟

ابتسم العابر . تخلّت الشقاوة فتسلّطت في مقلتيه السكينة . داعب الترفاسة ونفض عنها غبار الرّماد . قال بلهجة أخرى :

– يعرف كثيراً من اختار حياة الظّل طويلاً .

– ماذا يريد مولاي أن يقول ؟

– أردت أن أقول أن عليك أن تعرف الحياة قبل أن تذهب إلى الجبل .

- الجبل ؟

- إعشق ! احمل على القبائل . إخطف العبيد . إرجع بالحسان وبجوالات التّبر . تحايل . كِدْ للعدوّ . و .. أقتل . اقتل أيضاً إذا أردت ألاّ تُقتل !

- ...

- فإن نجوت من القتل حقّ لك أن تذهب إلى الجبل . لأن الناموس يقول : ليس من حق المخلوق أن يرفض شيئاً لم يعرفه .

ترك الترفاسة ، ورفع رأسه أخيراً . في عينيه اختفت الشقاوة تماماً. في العينين إبتسامة ، ونبل ، وسكون .

كان جبارين يتململ كأنه يتأهب للقفز والفرار إلى الظلمة . ولكنه زفر بارتياح عندما رأى في العينين الصغيرتين الذكيتين تلك الابتسامة النبيلة . هتف بدهشة :

- انت عرّاف ! أقسم بالربّة أنّك أدهى عرّاف قابلني في الصحراء ! كيف عرفت أني راحل إلى الجبل ؟ فالحق أنّي لم أتحدث بالسّر حتى مع نفسي ، فكيف استطاع الطّير أن يسمعني وينقل لك الخبر ؟

طأطأ العابر أرضاً . حدّق في لسان النّار . قال بحزن :

– كل إنسان في الصحراء يحلم باليوم الذي سينطلق فيه إلى الجبل ليختفي ، ويعتزل . الأمر كما ترى لا يحتاج إلى نبوءة الطّير ، ولا إلى علم العرّاف .

– إذا كان أهل الصحراء يحنّون جميعاً إلى الجبل ، فلِمَ لم أرَ فيهم معتزلة ؟

– السّر في الحياة . فكثيراً ما تدركهم الحياة قبل أن يدركوا الجبل. ألم أحدّثك عن القاتل والمقتول منذ قليل ؟ إذا استحالت الصحراء ساحة للأموات فكيف تنتظر من المقتول أن يذهب إلى الجبل ؟

– أرأيت ؟ أنت تتحدّث عن الموتى بلغة الناموس . الناموس وحده يتكلّم عن أهل الغفلة كأموات برغم يقينهم أنهم هم وحدهم على قيد الحياة . أنا أيضاً رأيت أن اعتصم بالجبل قبل أن يجرفني السيل ، وأجد نفسي أتكلّم لغتهم، وأعاشر حسانهم ، وأرى الدّنيا بيقينهم . فلم تبخل عليّ بالنجاة ؟

– لست أنا من وضع المعرفة شرطاً لصعود الجبل ، ولكن « الأب» الذي سبقنا إلى هناك هو الذي وضع هذا النّاموس . وإذا ذهبت إليه فسوف يعيدك إلى القبيلة مرّة أخرى ، وسيقول لك أن عليك أن تتعلّم العيش قبل أن تزهد في العيش ، وتحيا كما يليق بالأحياء قبل أن تهجر الحياة . وسوف تكتشف أنّك لن تستطيع البقاء هناك إذا خالفت له أمراً.

لأن أمره هو الناموس ، والناموس هو مشيئة الجبل .

– لم أعرف قبل اليوم أن للاعتزال ناموس بهذه القساوة .

– لم تعرف لأنّك لم تضع قدمك على الطريق . والاعتزال سرّ لن يعرف إليه سبيلاً إلاّ من ارتقى في نفسه جبالاً ، واجتاز مستنقعات الوحل ، وقطع صحارٍ كبرى ، ليضع قدمه على الطريق . ألم تر أن الوادي المؤدّي إلى الجبل أقرب إلى القبيلة من المراعي الغربية أو الجنوبية؟

– نعم . نعم . لقد أردت أن أسأل : بدا لي الوادي خصيباً بالكلأ والشجر ، وأرضه سمحة ، ورأيت الجبل في البعد واعداً ، ولكنّي وجدت الوادي مهجوراً ، والجبل في البعد ، وحيداً ، فما السبب ؟

– الوعورة . الوعورة هي السبب . القبائل لا تنزل الأرض إلاّ إذا كانت سهلاً . كان السّهل دائماً وطن الخلق المفضّل . وحتى إذا تجاسرت قبيلة وتسلّقت الجبل لتعبر ، كما فعلت القبيلة الجبلية الشقيّة ، انقطع الحبل في منتصف المسافة ، لتجد القبيلة نفسها معلقة في الهواء !

خبأت النّار فاشتدّ إيماء الأنواء . رفعت « طالمت » رقبتها الطويلة لتجترّ ، فرأى جبارين أن الحُوار الشقيّ قد اقترب من الضّرع مسافة . أصابه فزع ، فأشاح ببصره . حدّق في وجه العابر في ضوء النّجوم بحثاً عن الألق في مقلتيه . قال بصوت غلبه الحماس والانفعال :

– سأمضي إلى الجبل ، فلا تقنعني !

التقط العابر ترفاسة ، وقدّمها له صامتاً .

(٣)

انطلق مبكّراً .

تلقّفته بنات الأرض المعشوشبة بلُعاع النّبت ، وتلوّت في سيرها شمالاً ، تحفر سُبُلا في سفوح آكام مرشوشة بحجارة نحاسية كثيفة ، فكان كل لسان يسير به مسافة طويلة قبل أن تضيق به الأرض ، فيلقي به إلى لسان آخر . في الجانب الشرقي الشمالي تنافست تلال وضيعة ، بدأت ترتفع وتكابر وتتسابق في الارتفاع كلما مضت بها المسافة إلى الأمام . أمّا الأفق الشمالي الجنوبي فقد احتلّه الجبل المعتزل ، يغرق في غيهب في كثافة الضباب الذي يعقب الامطار السخيّة في المواسم الشتوية . عابر البارحة قال له قبل أن يواصل سفره ليلاً : « إحترس ! فالجبل بعيد . بعيد جداً » . حاول أن يستبقيه حتى الصّبح ، ولكن الزائر الغامض أعتذر وأصرّ على الإنطلاق . قال أنه أعتاد أن يسافر ليلاً ، وينام نهاراً ، وعندما سأله عن السّر ، أجاب : « لا أدري . لاحظت أني أقطع مسافة أبعد عندما أسافر ليلاً . أتلهّى بالغناء ، أتسلّى بمشاهدة النجوم فتأتيني الصحراء دون أن ادري . أمّا في النهار فإن الصحراء لا تأتي ،

ولكنها تبتعد . تتمدّد وتفرّ كلما اقتربت منها . تنطلق امامك إلى الأبد فتصيبك باليأس . تسلّط عليك الشمس فتنالك بالظّمأ . ولكنّي ادركت المكيدة فاستعنت عليها بالظّلمة . ألم أقل لك أن السّرّ دائماً في العتمة؟». همّ بأن يستفهم عن آثار النّار ، فلم يمنع بسبب الحياء ، ولكن احساساً خفيّاً استوقفه . كان على يقين أن النّدب الفظيعة سرّ سوف يخفيه . وعندما انهار ، «أماوال» ، وانكشف الوجه النحيل ، فتبدّت النُّدب ، رأى كيف أحّس الزائر بالحرج ، وحاول أن يخفي وجهه سريعاً.

تمادى النّبت ، واشتدّت كثافة اللّعاع في الشّعاب السّفلى ، وتسامحت بنات الأرض ، وتخلّت عن المرتفعات . اقتربت من الأسافل، وأخذت الاحاضيض بأحضان حنين غامض . تخلّت الشعاب عن كبرياء الأعالي، وأفضت إلى بنات الأرض في تسليم، فانحنت بنات الأرض ، وتماهت في الوديان السفلية الكبرى . في المساحات التي انكسرت فيها السُّبل ، وركعت لتقبّل أرض الوادي ، عثر على ترفاسة مكابرة . ولو لم تكن مكابرة لما رآها عن بُعد ، فظنّ ، في البداية ، أنها حجر ينتصب على حافة الوادي . في الشعبة الهزيلة استلقت أكوام الرمل . فوق البقعة الرملية تكاثفت نباتات الفصيص ، فأيقن أن الأرض قد فازت بأمطار سخيّة في فصل الخريف . ارتفعت في الفراغ شبراً أو أكثر ، فنالت اشعة الشمس من نضارة الشعفة ، وشحُبت الفروة العليا

وتيبّست . استدارت في التكوين ، واتجهت إلى كل الجهات ، لأنها استدارت ، فامتنعت . اكتفت ، فاستغنت عن كل إتّجاه . ركعت أرضاً في تسليم المعتزلة ، وغاصت في الأرض كأنها تحاكي أحيل حيوانات البريّة ، فجادت بالعلامات ، وصنعت من بدنها رقعة تخترقها العروق ، وترتسم فيها النبوءات . أُصيبت في الشعفة البهيّة بطعنٍ ، ما لبث الطعن أن التأم في نُدبة كانت طعاماً للطير ، فحقّ لها أن تتباهى بالسّخاء أيضاً .
ركع . أزاح عن الانف طرف اللّفام . لامسها بأنفه . غزته بعطر أصابه بالدّوار .

(٥)

ازداد الوادي عمقاً ، ولكنه ضاق عنقاً أيضاً . ارتفعت الروابي النحاسية التي تطوّق ضفتّه الشمالية ، وتعالت في قامات جبلية . تلوّى الحضيض بلؤم داهية نوى أن يتخفّى ويضيّع أثره. في القيعان تكاثرت حجارة صفراء ، صقلتها السيول ، وشذّبها الماء ، فانكمشت في الحجم، ولكنها استدارت في التكوين ، وتلامعت لوناً ، وأغوت العابرين باحتضان بدنها الأملس . هبّ النسيم البحري ، وفاحت الأرض بنكهة تراب نديّ . قطع مسافة أخرى . اعترضته جلاميد صخرية جرّتها سيول الماضي ، وحاولت أن تسدّ بها فم الوادي . بدأ يتسلّق الصخور مستعيناً بيده اليسرى . لأن الساعد الأيمن كان مشدوداً إلى صدره ، يضم كنز

الترفاس بحنان أمّ . تحت جلمود عالٍ وجد كنزاً آخر . اعتلى الصخرة مثل ودّان شقيّ ، وقفز إلى اسفل ، فوقع في « تاوارضي »(*) . وقع على حافة الغدير ولكن قدميه غاصتا في الوحل ، وتناثر السلسبيل السخيّ ، المخلوط بالطين وحبيبات الحصى ، فغمر ملابسه ، وساعديه ، والترفاسة المضمومة إلى صدره .

وجد أن الوادي استقام بعد أن يئس من الانحراف وتضييع الأثر ، فتكاثفت أحراش اشجار مختلفة على بعد خطوات . وضع الترفاسة بجوار الغدير . ذهب ليتفقد الاحراش . اقترب ، ففاح زهر غامض ، ورفرفت اجنحة الطير في فرار جماعي. اكتظّ عنق الوادي بشجر كثيف . اشجار عالية ، وأخرى قصيرة القامة . اشجار كثيفة الاوراق ، شديدة الأخضرار ، وأخرى نادرة الاوراق ، باهتة اللّون . أشجار لها أشواك ، واشجار أخرى لا شوك لها . اشجار تنوء بالثمار ، وأخرى محمّلة بالزهور .

أشجار صحراوية كالسّدر والبطوم والطلح ، وأشجار أخرى يراها لأوّل مرّة .

ضاق القاع بالشجر ، ففاض البستان على الجانبين ، وتسلّق ضفّتي الوادي . تابع امتداد القاع ، فوجد أن البستان الخرافي الأخضر

---

* « تاوارضي » : مستنقع مائي .

يتشبّث بالحضيض ، ويمضي على إمتداد البصر .

وجد عشاً مستديراً في أغصان أول شجرة ، وسمع الطّير يغنّي .

جمّع حطباً ، وأخرج من جيبه زنداً . عاند الزّند طويلاً قبل أن يشعل النّار. توارت الشمس وراء الجبال . اقترب المساء. اعتلى جلموداً وتفقّد جبل «الأب».

جبال الضفّة الشمالية من الوادي أخفت حضيض الجبل البعيد ، ولكن الغلالة الخفيّة انقشعت قليلاً فتبدّت الشعفة المجهولة المسوّاة بحدّ المدية ، والمسافة بينه وبين الجبل لم تتضاءل شبراً واحداً . كان يقف في نفس البُعد الذي فصل بينهما بالأمس.

(٦)

تناول من الترفاسة نصفها على العشاء ، وهجع ليتسلّى بمسلك الحُوار الشقيّ . في السكون خيّل له أنه سمع دمدمة خفيّة طوال الليل . هدير بعيد يتواتر في إيقاع منتظم ، لا يشتدّ ولا يضعف ، كأنّه أغنية من أغاني السّكون . تململ في الصدر كائن مبهم ، ونزف القلب حنيناً ، ورأى الحسناء . اختفت الانواء ، وابتعد الهدير ، وهرب البستان من الوادي . غالب الوجع ، ولم ينعس إلاّ في آخر الليل .

ولكنه استيقظ مع ميلاد القبس .

دخل الأحراش ، مصمّماً أن يقطع مسافة طويلة نحو الجبل .

قبل أن ينتصف النهار ادركِ النّبع . في البداية لم يسمع الهدير ، لأنه نسى الدمدمة الرتيبة التي ساقتها الأرض ، ووضعتها في أذنه كنبوءة حقيقية . ولكن الهدير ما لبث أن ذكّره بنفسه عندما أقترب من الموقع مسافة أخرى . ظلّ الإيقاع يتصاعد في أذنه مع كل خطوة دون أن يصدّق أن في الصحراء ماء يستطيع أن ينهال على الأرض بهذا السّخاء، ويدع بصوته المكتوم ، الخفيّ ، هذا اللّحن .. هذا الغناء .. هذه الأنشودة الشجيّة .

كان الماء السخيّ النّاصع ، المتألق تحت الشعاع ، ينطلق من مكان مجهول في شفعة الجبل الغربي ، ويهوي إلى الأسفل بشقاوة طفولية ، ولكن قفزته المدهشة لا تصل به إلى الحضيض ، لأن نتوءاً خشناً يعترض له السبيل ، فيصفع النّتوء الجسور بقساوة واستنكار ، ليحدث ذلك الإيقاع الغنائي البتول . ثم يركض عبر الصّلد العمودي الصارم ، ويشق طريقه عبر السفح السّمح ، حتى يستلقي أخيراً في القاع ، حافراً هوّة عميقة ، مليئة بماءٍ أخضر اللّون . في سفره من الشعفة العليا لحَسَ الصّلد، وشذّب النتوء، فبدت سطوح الحجارة ملساء ، صقيلة ، يكسوها طحلب أخضر على الحواف، وتتناثر قطرات في الفراغ ، لتتحمّم بشعاع الشمس ، وتقفز في الهواء بعيداً عن اللسان، قبل أن

تهوى إلى المصبّ .

تابع سبيل السّلسبيل مأخوذاً ، واستمع لثرثرة الماء دون أن يصدّق. كان يبكي ، ويرتجف كالمحموم .

(٧)

لم يستقطع من الترفاسة في اليوم التالي . ألهاه النّبع المعلّق في الفضاء عن الترفاسة، عن البستان ، عن نفسه . في اليوم الأول استكشف الجدول ، وبحث عن طريق اللّسان السفلي النّحيل الذي أنشقّ عن المصّب ، وسار بالمياه في سبيل مجهول . اختبر عمقه بالعصا، فغاصت الحطبة كلّها في الماء ، وغاص معها معصمه وذراعه حتى الإبط ، ولكنه لم يبلغ قاع الجدول . انحنى وشرب . شرب من الجدول الأخضر دون أن يستعين بيديه . اكتفى ، في البداية ، بجرعة . استطعم السائل الخفيّ الذي استعار سرّه من الخفاء الذي وهب الحياة ، فجعله ، كالحياة أيضاً ، بلا طعم ، بلا لون ، بلا رائحة . فما لون الحياة ، وما طعمها ، وما رائحتها ، إن لم تكن سرّاً مجهولاً كالماء ؟ ألا يتشابهان في المسلك أيضاً؟ ألا ينطلق السلسبيل من وطن خفي في الأعالي ، ليتحمم في شعاع الغسق ، وينكسر على النتوء الصخري ، ويقفز في الفراغ طويلاً، طويلاً ، قبل أن يرمي بنفسه إلى الهاوية ؟ ألا تنطلق الحياة من نفس النبع

الخفيّ ، الأعلى ، وتتحمم في الفراغ بالشعاع ، وتومض عندما تصطدم بعقبة ، قبل أن تقفز في الهاوية وتنطفئ ؟ أليس سفرهما ، من لحظة التبّدي ، منذ الميلاد ، حتى ومضة القفز في الفراغ، والانطفاء في اليّم المجهول ، هو سفر واحد ؟ فهل هما قرينان ؟ أم هما ، كالعابرين الأبديين، كائن واحد له وجوه مختلفة ؟ ولكن .. ولكن مهلاً . من ذلك الدّعي الذي ادّعى أن الماء بلا لون ، ولا طعم ، ولا رائحة ؟ للماء لون أخضر ، ورائحة زهر الرّتم ، وطعم الترفاس . ها هو ينزل في حلقه بارداً ، سلساً ، لذيذاً . وها هي ثرثرته في الحجارة تغني بلسان شاعرة حسناء ، وتبدع لحن شجنٍ . ها هو اللّحن يكمل أناشيد الطير في البستان ، فيبتهج الوادي ، وترقص الصحراء. ها هو عصفوره يستجيب للحون ، ويتململ في الجوف طرباً . ها هو ينساب مع الجدول بدناً، ويطير مع عصفوره ليتحمّم في شعاع الأعالي ،قبل أن يقفز في الفراغ ، ويسقط في الهاوية .

وها هو يتغسّل في يّم الهاوية ، فينسى الهّم ، ويتطهّر من الذاكرة، فيولد في قطرة الماء، ويعود إلى النّبع من جديد ، يعود لينبثق من الفراغ الأعلى كالقبس ، ليتحمّم بالضّوء ، قبل أن يقفز في المصب مرّة أخرى .

استطلع الجدول في ذلك اليوم ، ولكنه لم يدرك له نهاية . رافقه وهو يتسلّل بين الشجر الكثيف ، ويتلوّى في قاع الوادي الضيّق ، مسافة طويلة . غابت الشمس فاكتمل نزول العتمة . أرجأ الاستطلاع ليوم

آخر، وعاد إلى الوراء .

(٨)

تخلّى عن النّهر ، في اليوم التالي ، وبحث عن النّبع .

بدأ يتسلّق الجبل قبل الشروق . أكل من ثمار الشجر قبل أن ينطلق . قطع مسافة طويلة كي يتحاشى الوعورة ، ويصعد السفح من الوراء . رجع إلى الوراء كي يتحايل على الارتفاع العمودي ، وبدأ يصعد من حضيض تنتصب فيه الجلاميد الصخرية النحاسية كجدران الأبنية . تطاول في البنيان ، وتقافز بين الجلاميد بمهارة ودّان . ادرك سفحاً أعلى تنتشر فوقه أكوام حجريّة جليلة تشبه أضرحة القدماء . تنقّل بين الأضرحة، واضطرّ أن يعتلي أكثر من مثوى سدّ عليه السبيل . بلغ حلقة أخرى في عنق الجبل استعارت فيها ألواح الحجارة لوناً رمادياً ، واستلقت على السفح في وضع أفقي . استسهل السبيل ، فاستلقى قليلاً . انتصف النّهار . بدأ الشعاع يحرق الصّخر منتهكاً حرم الربيع . تضاءل الوادي ، في الاسفل ، وانحرف غرباً ليغيب وراء حيد الجبل . في الشمال تصدّت للبصر جبال صارمة أيضاً . أمّا جبل « الأب » البعيد ، فأخفته قمة الجبل الذي يتشبّث الآن بسفحه الخلفي كما يتشبّث الفتى بسنام الجمل عندما يأخذه أبوه في أول رحلة صيد .

مسح عرقاً نزّ من رقبته ، وأحس بجفاف في الحلق .

واصل الصعود .

تسلّق رقعة الألواح الرمادية بسهولة ، ولكن الجدران النحاسيّة الملساء التي تنتصب بقامات عمودية مكابرة ، اعترضته ، ووقفت في وجهه كجُند الجنّ .

ادرك أن عليه أن يتحلّى بمسلك الضّبّ ، ويستعير بدنه ومخالبه ، إذا أراد أن يقهر الجدران ، ويصل إلى القمّة . سار بمحاذاة الأنصاب جنوباً ليتفقّد الارتفاع ، ولكنه اكتشف أن الجدران ، في تلك الجهة ، تمادت أكثر ، وأزدادت جنوناً ، فعاد إلى الوراء . وجد شقّاً بين صخرتين فتشبّث به . ثبّت إصبع القدم في نتوء ، وزحف إلى أعلى . تمددت الصخرة في عناد نحو السماء ، فاستنفر بدنه كلّه ، واستعار من الضّبّ مخلباً ، وثبّت المخلب ، الأظافر النافرة ، في نتوء وضيع . التحم بالصّلد، حتى خُيّل له أنه سيصير مع الحجر بدناً واحداً . أنساب إلى أعلى كما تنساب الحية ، فرأى في الرّكن تجويفاً مظلماً . في التجويف تبدّت أعواد مستديرة ملوّثة بذرق الطّير . كان عشاً مهجوراً لصقر أو نسر .

في المسافة التالية أنشطرت الصخرة إلى شقّين . أمسك الضلفة اليمنى بيد ، والضلفة اليسرى بيد ، وشدّ البدن إلى الامام . ولكن البدن تخلّى عن الصّلد السفلي فتدلّى في الفراغ . التقط انفاساً عميقة قبل أن يستنفر من جسده كل عضلة ، ويثب إلى جدار الصخرة الشمالي . كان جداراً عمودياً أيضاً ، خالياً من النّتوءات ، ولكن في استوائه

انحراف خفيف إلى أعلى ، فاهتدى إليه بغريزة الودّان . ولكن غريزة الودّان لم تهبه بدن الودّان ، ولا قرونه ، فانزلق إلى الأسفل ، وكاد يهوي . ولا يعرف أي قدرة أوقفت زحفه إلى الهاوية . وجد أظافره تتشبّث بالصّلد النحاسي ، القاسي ، وزفيره يتحوّل إلى هدير ، وجسمه يتنفّس ، وينزّ عرقاً سخيّاً . زحف جانبا . فلم يعرف كيف بلغ الإنحراف، فتعلّق بـ « توهى»(*) بكلتا يديه . استنفر كل عضلة من جديد ، واستعان بأسنانه أيضاً ، حتى افلح في صعود الجدار الهائل .

استلقى على ظهره في السفح التالي . بصق دماً ، وأشتعل في بدنه حريق . يداه داميتان أيضاً . والدّم ينزف من الساقين . رفع رأسه إلى أعلى ، فوجد أن السفح يقود إلى شعفة أخرى .

(٩)

تفقّد الطّوق من كل الجهات فوجده أكثر مناعة من كل الشعاف. سار مع السفح شمالاً . تنقّل فوق الصخور الوحشية طويلاً قبل أن يسمع الضجيج . توقّف وتنصّت أكثر من مّرة ، فكانت الثرثرة الخفيّة تقترب ، تتصاعد . أحسّ الاعياء ، واستولت عليه دهشة طفولية ، لأن شوقه للقاء الماء ، فاق حنينه للقاء الحسناء ، وادرك، في رحلته القصيرة ، أنّ العاشق يستطيع أن يبصق في وجه المعشوقة ، لو افتقد قطرة الماء ،

---

* « توهي » : سنام الجمل .

والظّمأ الذي أصابه في يوم ربيعي ، لا يقارن إلاّ بظمأ ناله في زمان لا يذكره ، لأنّه فقد في تلك المغامرة إسمه وظلّه ، وكان عليه أن يقضي دهراً في الظلمة كي يستعيدهما من جديد .

اشتدّ الإيقاع . وقف الصّخر عقبة . تعلّق بنتوء معقوف كقرن الودّان ، وقفز إلى رأس الجلمود العنيد . وراء الجلمود انطلق اللسان الفضّي البكر . يسطع في قطراته شعاع الظهيرة ، ويتدفق ، من مكان مّا في الأعالي ، بسرعة الضّياء ومرونة الحيّة ، وبراءة الاطفال ، ونبل الصحّراء . قفز إلى الاسفل ، وجمد بجوار اللّسان . اعترض اندفاعه النّتوء الشقيّ ، فتبعثر السلسبيل ، قفز نثار إلى الفراغ ، وطارت قطرات إلى الجانبين ، وأصابته في معصمه وأنفه وحاجبيه . كانت وديعة ، باردة، طازجة . رفع بصره إلى أعلى ، ورأى النقطة التي أتخذها النبع وكراً ، فأدرك انه لن يصلها ، لأن الودّان الجبلي الرّهيب نفسه سوف يعجز لو حاول الوصول إليها .

اقترب من اللسان . تلقّف الماء بكلتا يديه . غمر وجهه ولثامه وساعديه قبل أن يستسلم للإغواء ، ويتجرّع دفقاً مشاكساً يتلألأ بين يديه كحزمة الضّوء .

(١٠)

فاق الإغواء كل حدّ فاستسلمْ . استسلم . استسلم . ارتفع مع

الحبيبات في الفضاء ، انكسر الشعاع في قطرة كبيرة كحلمة النّهد وهي تهوي ، فومضت بألقٍ غامض ينافس ، في الجاذبيّة ، غنج الحسناء . تمادت القطرة ، وتمرّدت على مشيئة الأشياء ، لم تستسلم للهاوية ، فطارت في الفراغ بعيداً ، بعيداً . اغتسلت بدفق الضّوء ، شربت إكسير النسيم ، اجتازت البرزخ المستحيل ، تنعّمت بالتيه ، واستمدّت من الهواء الأعلى انفاساً أخرى ، تحوّلت ، وتحوّلت ، وتحوّلت ، حتى صارت فراغاً ، ريحاً ، سماء . تململ في صدره العصفور ، ورأى أن يحاكيها . رفرف بجناحيه إلى أعلى . صفعه صهد القيلولة فلم يبالِ . اخترق قبضة من النُّثار النّدي ، فانتعش وصمّم أن يخرق الأرض ، ويبلغ الجبل طولاً . اعترضته جلاميد كثيبة ، قاسية ، وأرادت له الفساد . تجنّب المكيدة ، واستعان بقرين القدرة الذي صار له سلطان على الأرض والسماء وما بينهما من فراغ . تحمّم بالضياء اوّلاً ، وسار في الطريق . قفز كالودّان ، وارتفع في الفضاء . ابتعدت الصحراء ، وهرب البستان . صار البدن ريشة طير ، شعرة تتناقلها الأهوية ، ذرّة رمل تسبح في الفضاء الاسمانجوني الأبدي . ادرك البرزخ . تبدّد . تبدّد . صار ريحاً ، فراغاً . سماء . وما أن صار سماء حتى ادرك الجبل، ونزل بجوار «الأب». كان عجوزاً قديماً ، قديماً ، قديماً . غاب وجهه كلّه في التجاعيد والغضون . كان نحيلاً ونبيلاً وعفيفاً . وكان وديعاً جداً . كان طفلاً رضيعاً . سقط بجواره وقال له باكيا : « أبي ! هذا أنا أخيراً ! » .

(١١)

لم يعرف كيف انزلق ، ولم يشعر بأنه يتدحرج مع الشلاّل ويهوي إلى المصّب . ولم يدرك شيئاً إلاّ عندما وجد بدنه يغوص إلى القاع المجهول كحجر ثقيل . ضرب الغمر بيديه ، وقاوم بساقيه ، وتجرّع ماء سخيّاً ارتفع إلى أعلى أشباراً ، ثم عاد وغاص . نالته الظلمة ، واحتوته الاسافل . اقبلت عليه الاشباح ، ووقف فوق رأسه مارد أسود اللّون . دفعه في صدره بعنف وعنّفه قائلاً : «لِمَ لم تكتفِ بما نلت يا شقيّ ؟ لِمَ تحاول دوماً أن تطلب سرّاً إن أدركته صار لك سوءاً ؟» ضربه على عنقه بقبضته ، ووضع بين أصابعه حزمة من الشوك . تشبّث بالشوك باليد الأخرى أيضاً . تنقل مع ذراع الاشواك إلى سبيل مجهول . تنقّل طويلاً قبل أن ينتهي ذراع الشوك إلى جذع السّدرة التي تقف على الضفّة وتركع فوق الماء ، فتتدلّي فروعها إلى الاسفل ، وتغوص ، بعيداً ، في الغمر .

٣٢ - الخروج «د»

« وقال لآدم : لأنّك سمعت لقول إمرأتك ، وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً لا تأكل منها ، ملعونةٌ الأرض بسببك . بالتّعب تأكل منها كل أيّام حياتك ، وشوكاً وحسكاً تنبت لك ، وتأكل عشب الحقل بعرق وجهك، تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أُخذت منها ، لأنّك ترابٌ ، وإلى التُّراب تعود »

سفر التكوين

(٣:١٧ ، ١٩)

* * *

«قال اهبطوا ، بعضكم لبعضٍ عدوٌ ، ولكم في الأرض مستقرٌ إلى حين».

القرآن الكريم

سورة الأعراف (٢٤)

(١)

زحف مستعيناً بمرفقيه . زحف بعيداً عن الضّفاف مستعيناً بشرر خفيّ ، بلسان ناريّ اشتعل في الخفاء ، واستولى على البدن كلّه ، فحرقه بالحمّى ، واوقد في جوفه سرّاً مجهولاً أخرجه من الظلمات ، وعبر به الغمر ، وشيّعه سلطاناً في مملكة البقاء . نفس الشّرر الذي سار به، قبلها ، في الفضاء ، وعبر السماوات ، وطاف به الجبل البعيد ، واوقفه ضيفاً بين يدي المعتزل القديم ، ثم قاده إلى الهاوية ، وانزله أسفل سافلين ، ثم عاد وانتشله من الظلمات من جديد ، ليجد نفسه في ظلال البستان ، ونورٌ مسالم معلّق فوق رأسه . لثامه يلتف حول رقبته كالثعبان، يداه داميتان ، معوجّتان ، راجفتان، مشلولتان . بدنه ينزف ماءً ممزوجاً بالدّم . من فتحتي الانف نزّ سائل سخيّ أيضاً : ماء ؟ دم ؟ مخاط ؟ أم مزيج من كل هذه السوائل ؟

أطلق أنيناً موجعاً ، واستمّر يرتجف مغمض العينين . خَفَتَ الأنين ، وانتظم التنفس . على شفتيه العاريتين طافت ابتسامة غامضة . فوق الشفتين ارتسم وسم قديم التأم وتخفّى وراء طبقة من اللّحم .

(٢)

حول دائرة النّور المعلّق في المتاهة النائية دبّ الرُّسل ، وأقامت الرُّؤى قيامةً . تنقّل ذوو السّلطان بين البيوت ، وتغامز الكهّان بالوميض ، وخرج معتزلة من مخابئهم ، واعتزل لؤماء في زوايا الظّلمة ليدبّروا مكائد ، واقترب من الجنوب مَلَك أخضر ، ودسّ انفه في الزحام ليتجسّس ويستطلع ، وهرع «آمنار» لملاقاة « إيدي » ، وشرعا يتشاوران ، ومالت « هيلاج » على بيت «كدخداي » لتسرّ له بأمر ، ففزّ الحُوار حنيناً ، وتراخى العهن ، فاقترب من مملكة الخطر شبراً آخر .

من مكان مّا ، في المساحة التي اشتعلت بالفضول ، تبدّى حبل عجيب نالت منه كل الألوان نصيباً ، ولاقاه ، من الجهة الاخرى ، ذيل مماثل . في الفراغ المعلّق تقارن الشبحان : شبح قصير القامة ، يتلحف برداء داكن ، يخفي يديه في ثنايا اللّحاف ، وشبح أطول قامة ، أشدّ نحولاً ، على كتفيه يستلقي رداء ازرق ، يلقي عليه ضياء الذيل ظلالاً باهتة . ولكن اللّقاء لم يستغرق أمداً . لم يتناطح الشبحان في همس المكيدة ، لم يهمهما بالأصوات المبهمة ، لم يرسلا الانغام الشجنية ، بل ولم يرسما بأذرعهما إشارة التقاطع . ولكن الإشارة رسمها الذيلان عندما أفترقا ، فانطلق شبح الجنوب شمالاً ، وواصل شبح الشرق سبيلاً مرسوماً. التحم الذيلان ، وتقاطعا .

بقيت العلامة معلّقة في الفراغ أمداً طويلاً . توقّف أهل الفضول ،

في البُعد ، وانحنوا إلى أسفل . ركع أهل الوطن الأعلى جميعاً ، وحدّقوا في العلامة المعلّقة في الفراغ .

تحامل وحاول أن يعاند الزّند . أيقظه جوع لم يعرفه ، ورأى ضلفة الترفاسة كنزاً أنفس من النّبع ، ومن الجبل البعيد ، ومن أنسام الشمال . زحف نحو الزّند ليشعل النّار، ولكن الوهن اشتدّ ، والشّلل عقل اليدين، فجثا على ركبتيه ، وبدأ ينتزع الأشواك من راحتيه بأسنانه . نزّ الدّم فغمرهما بالتّراب . لَسَعَهُ الملح فأطلق آهة وجع . هجع مرّة أخرى . أنصت لغناء الطير في أعالي الشجر . ارتفع كوكب الضياء عاليا ، ولكن أرض البستان لم تشتعل بالحريق ، والنسيم الشمالي يهبّ بارداً ، فيلاطف الاغصان التي تتشابك فوق الجدول ، ويهمس للخمائل باشعار الحنين ، فتستجيب اشجار المنفى باللحون ، وتغنّى بلهفة العشّاق . وعندما تتغنّى الاشجار بحنينها تتصنّت الصحراء الابدية ، ويتوقف الطير عن الغناء ، ويخرس الشلاّل المعلّق في رأس الجبل ، ليستمع لأغنية الشجر ، ويستمتع باللحن الذي أبدعه الحنين .

استمع أيضاً ، وتابع الاغصان وهي تتمايل ، وتتراقص ، وتتعانق ، وتتباعد ، لتتلاقى من جديد . لم تكتف بهذا الجُود وحده ، ولكنها اسقطت له ثماراً سخيّة . ثمار صغيرة في حجم حبّات التّمر ، وثمرة أخرى كبيرة، مستديرة ، في حجم قطعة الترفاس العادية . ملساء كحجر الصوّان الاسود . لها لون حبّة الرمّان . أكل الثمار الصغيرة

أوّلاً، فوجد لها طعماً شبيهاً بطعم تمر النخيل . لذيذة ، مفرطة في الحلاوة، فتستثير الظّمأ ، ويُشبع منها القدر القليل . ولكن الظّمأ الحقيقي بدأ عندما نهش الثمرة المستديرة ، الملساء ، التي تميل في لونها للأحمرار، كحبّة الرّمان . زحف إلى الجدول، وغمر وجهه في الغمر . تجرّع الماء طويلاً .

في المساء استطاع أن يوقد النّار ، ويأكل الترفاس .

ليلتها لم ينم . تبدّل فيه الحال ، وقفت في وجهه الحسناء ، فتلوّى على الارض كالمحموم .

(٤)

تذكر أن الحسناء لم تطلع إلاّ عندما أكل الشقّ الاوّل من الترفاسة، فهل قُدّر للثمرة السريّة أن تكون ألذّ ثمرة أخرجتها الأرض ، لتصبح قرينة للهوى ، وقواماً للحسناء ؟ أم أن لذّة الثمرة وُجدت في الاصل ، كي توقظ الحنين ، وتمضي بالمخلوق إلى الحسناء ؟ يُجمع السحرة أن الترفاس أقدم سرّ في الصحراء ، ويجمعون أيضاً أن الحسناء سرّ آخر لا يختلف عن سرّ الترفاس . بل سرّ الترفاس مجبول بسرّ الحسناء ، وسرّ الحسناء مستعار من سرّ الترفاس .

تلوّى وبدأ ينسى . ليلتها نسي البستان ، نسي النّبع . نسي الجبل

البعيد ، ونسى أنه لم يقبل إلى الصحراء الشمالية إلاّ بحثاً عنه . نسى ضربة من ناب مسموم ، كان قد تلقاها يوماً عندما ابتعد في الطلب ، ودخل مجاهل الدّغل . نسي ، ونسى وعندما تمادى النسيان ، وشاء أن يصير هو الذاكرة ، تدخّلت الحسناء . اقبلت من أبعد مملكة ، وزحزحت النسيان عن العرش ، ونصّبت نفسها ملكة على الذاكرة .

(٥)

خرج . خرج . خرج .

خرج من البستان ليلاً . وقطع المسافة راكضاً . لم يعرف متى خرج ، ومتى قطع الصحراء ، ومتى ادرك أرض القبيلة . ذهب إلى كهف الساحر ، فوجده شيخاً هزيلاً، يعلو الشيب حاجبيه وتكسو يديه طبقة كلحاء الطلح . تفحّصه الساحر بعينين غائبتين وتساءل بسكينة العجائز :

- غبت طويلاً جداًّ يا ولدي . فهل خطفك الجنّ طوال هذا الزمان ؟

- هل غبت طويلاً حقاًّ ؟ لو لم أر ما فعله الزمان بمولاي لما صدّقت .

- صدَقْتَ . لو كان السحر يفلح في محاربة الزمان لما وجدتني على هذا الحال. ولكن أصدقني القول : ماذا فعلت أنت حتى أبقاك

الزمان في هذا الحال ؟ هل عدت من وطن الجنّ ؟ هل عاشرت نساءهم يا شقيّ ؟

نكس رأسه . هرش جنبه بعصاته. مال عليه الساحر . اقترب منه بعينيه المطفأتين ، وسأل بارتياب :

– ألم تنسَ إسمك ؟

لم يجب فهزّ الساحر رأسه ومضى ببصره إلى الفراغ . قرأ نبوءة:

– لن تنزل أرضك أبداً ، ولن تدرك سماءاً .

– ولكنّي عدت ، يا مولاي ، استجابة للنداء القديم .

تمتم الساحر دون أن يرجع من رحلة الفراغ :

– الحسناء ؟

– نعم . في صدري حنين .

– ألم يذهب بك الظنّ إلى أن المرأة هي المخلوق الوحيد الذي يكره الانتظار ؟

– ولكنها تنتظر يا مولاي !

– من أين لك بهذا اليقين ؟

– قابلت في الخلاء عابراً أخبرني بأن عليّ أن أعرف الحسناء قبل أن أذهب إلى الجبل !

– وهل بلغت الجبل حقاً ؟

– كدت أن ابلغ الجبل ، ولكن ..

سكت فهزّ الساحر رأسه في إيماء غامض . تابع عتمة المساء ، وقطع في الفراغ مسافة بعيدة . قال :

– فيك يا ولدي سرّ لا يعلمه حتى الساحر ، وإلاّ من أين لك بهذا اليقين ؟ والآن تستطيع أن تذهب إلى الحسناء ، وستجد أنها انتظرتك. لقد انتظرتك طويلاً جداً يا ولدي !

(٦)

قبل أن يدخل على الحسناء تذكّر .

لم يقده الزمان في الصحراء طويلاً ، ولم يبتعد عن الوطن كثيراً ، فتذكّر . تذكّر الإسم أولاً ، ثم سطع وهج ، وتبّدى ، في الافق ، الوطن. تراءى العابر الليلي في فم الوادي ، فاعترض له السبيل ، ولكنه ، بحيلة مّا ، عبر ، فعثر على الكنز قبل أن يدخل البستان ، وقبل أن يهتدي إلى النّبع . تذكّر أن سرّ الوطن في النّبع ، ولو سار مع لسان الجدول لبلغ

الجبل ، ولكن فضولاً لئيماً وسوس له أن يسلك السبيل المضادّ ، فارتقى الشّعفة وأراد أن يقف على سرّ آخر فهوى . هوى ، وهوى ، وهوى. ولو لم يهوِ من الفراغ الخالد لما أصابه ظمأ إلى ثمار البستان ، ولو لم يلتقم ثماراً مجهولة لما نسي ، ولو لم ينسَ لما أقبلت الحسناء لتحتل المملكة وتصير ذاكرةً ، ولو لم تصر الحسناء ذاكرة لما تخلّى عن السبيل، وعاد من منتصف الطريق . فهل من سبيل لإصلاح الخطأ ؟

خرج شمالاً .

حمل شكوة ماء وصعد الجبل . نزل السفوح الشمالية فانشقّ العراء عن وديان عارية تتباعد فيها اشجار الطّلح . في الافق تبدّى الجبل غارقاً في غلالات كذيول الدخان ، بعيداً ، بعيداً ، كالسّماء . معتزلاً ووحيداً كالصّحراء .

نزل الوادي . تنقّل طويلاً . قضى في السهول ليالٍ ، وقابل رعاة كثيرين . سألهم عن الغدير ، فاندهشوا . قالوا أن أرض الشمال لم تر سيولاً منذ أعوام ، فمن أين لها بالغدران ؟ تجنّب أن يتحدّث عن النّبع تحاشيا لإستهزاء ، ومضى . لم يجد أثراً للنّبت في شعاب الوادي ، ولم تظهر في السبيل شجرة غير الطّلح ، وتمدّدت الأُرض الكئيبة عارية ، صارمة ، عنيدة . في البُعد ارتفعت شعفة الجبل ، تنسج من الغيم حجاباً، وتنتصب في مكان لا تناله المسافة ، فلا يبلغه من أقبل ، ولا يبتعد عنه من أدبر .

نضب زاد الماء فأدركه الظّمأ . عاد على عقبيه ، ولكنه لم يقرأ حساب المسافة . تحامل طويلاً ، وسقط في طريق العودة تحت شجرة طلح . نزلت في الخلاء عتمة فلم يعرف عما إذا كان المساء قد حلّ ، أم أن الظلمة وليدة الظّمأ . في النهاية غفا . لم يعرف كم مضى من الزمن ، ولكنه لم ينسَ عابراً انقذه من ظمأ كما اطعمه يوماً من جوع . أنحنى على رأسه . نثر في وجهه ماءاً . ثم سقاه على جرعات . خاله ، اول الأمر ، رؤيا من الرّؤى . ولكن العلامات التي رآها في ساعديه ذكّرته بالعابر الليلي الغامض . تحامل على نفسه وحاول أن يعتدل في جلسة. هنا أبتسم العابر وقال بوضوح : « ألم أقل لك أن الجبل بعيد جداًّ ؟ » .

في الصباح وجد شكوته مملوءة ماءاً . أما العابر فقد اختفى .

(٧)

التأمت القبيلة لإعداد القِران ، فانسلّ إلى الخلاء . اعتلى رابية ، فرأى النساء تتنقّل بين الابنية الحجرية في مجاميع ، والرجال يسوقون الجمال في ذهاب وإياب ، والصغار تراكضوا أيضاً ، يرتدون كتّاناً في بياض الكفن ، يتباهون بشعورهم التي تشطر رؤوسهم إلى نصفين ، ويزهون بأصناف الكتّان .

تهيأت القبيلة للفرح ، وفرّ بعيداً ليعتزل ويتذكّر . لم يجد نفسه

مضطراً لأن يتذكّر كثيراً حتى يدرك أن السبيل ليس شاقاً ، كما ظنّ العابر الليلي الغامض ، ولا الجبل ببعيد إلى حدّ اليأس ، ولكن الفضول هو السبب . هل هو الفضول حقاً ؟ لا يعرف ما إسم ذلك الحنين الكاذب الذي دفعه للبحث عن منبع النّبع ، بدل أن يسلك السبيل ، ويمضي مع لسان الجدول . لا يعرف سرّ الإغواء الذي طاف به القمة ليلقي به في هاوية الغمر . ولا يعرف إسم الخواء الذي أصابه فأكل ثمار النسيان ، ولا رسم السُّمّ الذي أشعل في صدره حنيناً مميتاً أخرجه من وطن لن يجد إليه طريقاً بعد اليوم . أم أن الحسناء لابد أن تندس في الدّغل ، تنتظر حتى تمد يدك لتنالك بالنّاب المسموم ؟ أم أن العابر لم يخطئ عندما نعته بالغُشم ، وحثّه على أن يحيا قبل أن ينطلق بحثاً عن الجبل البعيد ؟

فهل كان يتنبأ عندما قال أن عليه أن يقتل أيضاً إذا أراد ألا يُقتل ؟

(٨)

تولاّه رجال كالجّن .

احتووه بين اذرعهم النحاسية ، وجرجروه إلى حضيض الجبل . تكأكأوا حوله عند فوهة البئر . دلقوا على رأسه دلواً . لسعه الماءه البارد فقفز واطلق صيحة . تهامس المردة فوضعوا القيد في يديه . أوثقوه بأشرس حبال المسد . ثم دفعوا به إلى الهاوية . استعاد السقطة الأولى

التي ألقت به إلى الغمر فأطلق أنيناً . بلغ الغمر الآن أيضاً . لامس عيناً تومض تحت ضياء البدر . كانت تحدّق في السماء بابتهال مجهول ، وتتململ بقلق من يتكتّم على سرّ . لم تستوقفه العين الخفيّة طويلاً ، لأنه كان يحدّق في العتمة بحثاً عن جسم آخر ، أكثر خفاء من العين ، وأعمق من البئر ، وأكثر تكتّماً على السرّ . جسم في مرونة السلسبيل ، له على الخلق سلطان كسلطان السلسبيل . جسم استعار كل خصال السلسبيل ، فارتاد الاعماق ، وتعشّق الظلمات ، لأنه عرف ، كما عرف السلسبيل ، أن لا قوّة خارج الاسافل ، ولا سلطان بعيداً عن الخفاء ، ولا سطوة يمكن نيلها إذا لم تأت من الظلمة . كان يخشى الحيّة ، ولذا حوّل بدنه كلّه إلى عين كبيرة ، تحدّق في العتمة ، وتبحث عن أحيل حيوانات البرية ، في كل ركن ، في كل غمزة ماء ، في كل شق من شقوق الحجارة . وصيّر بدنه أذناً أيضاً ، يتسمّع ويحاول أن يترصّد صوت العدوّ كالودّان . تترجرج المياه وترتطم بالحجارة ، فيسمع الثرثرة فحيحاً كريهاً، يتهامس الأوغاد في الأعالي فتأتيه الاصوات وشوشة مشبوهة كالفحيح الكريه. تتلاحق في صدره الانفاس ، فيسمع الشهيق والزفير فحيحاً كريهاً . فحيح . فحيح . في كل مكان فحيح . في الفوهة ، فوق سطح الماء ، في الاركان ، في صدره . توقّع الضربة ، واستغرب كثيراً لماذا تأخّر النّاب ، ولم ينله حتى الآن . ولكنهم أخرجوه. جرّوا الحبل ، وأخرجوه . كان يرتجف ، ويلفظ زبداً . تضاحكوا فوق رأسه، ودثّروه في ثوب ناصع في بياض الكفن . جففّوه بعناية ، وألبسوه الثياب

النبيلة . الثياب الزرقاء . لفّوا على رأسه لثامين : لثام ناصع كبير ، فوقه «تجولموست» زرقاء أيضاً . استبدلوا قلادّة التمائم على صدره ، فعلقوا في رقبته عقداً من التمائم المخبأة في مثلثات جلدية موسومة برموز السحرة . وضعوا في معصمه الأيمن تميمة مربعة الاركان ، وأخرى في ساعده الأيسر . دسّوا النّصل في الغمد ، وثبّتوا المدية تحت الإبط الأيمن بخيط من الجلد، ودسّوا نصلاً آخر في غمد آخر ، ليثبّتوا مدية أخرى تحت إبطه الأيسر. اوقفوه بين أيديهم ، والتفّوا حوله في دائرة . قال أحدهم يخاطب قبائل الجنّ : « من أراد منكم الآن أن تثكله أمّه ، وتترمّل قرينته ، ويتيتّم ولده ، فليجرّب أن يمسّه بسوء » . وضعوا يده في يد أطول الرجال قامة . تحرّك به المارد ، وقاده إلى ركن ، يتوسّطه عرش من تراب .

في سفح الجبل تهدّجت اصوات النسوة واستبدلن اللّحن . قطعن غناء الشجن فجأة ، وبدأن في ترويض لحن جنائزي حزين .

(٩)

التفّ ساهور حول دائرة الضياء فشحُب البدر . سكتت الطبول في السّفح ، وخفت الغناء . توقف اللّحن طويلاً ، ولكنه ما لبث أن علا، من جديد ، في إيقاع كالبكاء .تبدّت اشباحهن في الضوء

الشاحب ، وتنقلن عبر السفح بخطوٍ مكابر . توقفن في مسافة عارية ، تبعد عن آخر جدار خطوات . سكتن عن الغناء ، فحلّ سكون الأبد حبس جمع الرجال الانفاس ، وتصنتوا . حبس الجنّ انفاسهم وتصنّتوا . حبست الرّؤى السماوية انفاسها وتصنتت . تصنّتت السماء ، تصنّتت الصحراء ، فمزّق القمر كفنه ، واخترق الساهور ليشبع فضولاً . تحرّك الموكب من جديد ، وارتفع الغناء الحزين . اقترب الموكب من الرّكن في الحضيض ، فلكزه المارد الازرق بمنكبه . استجاب للإيماء . استوى على العرش . واعتدل في جلسته . تربّع . وضع يديه فوق ركبتيه . رفع عمامته إلى الاعالي . تابع امتداد الفراغ المغمور بضوء سماوي ، باهت . واصل الرّكب . سكتت الاصوات . فرّت الأغنية . تقدّمت أقصرهن قامة . ثيابها كلّها سوداء . في خطوها سرّ . هل هو كبرياء ؟ أم إغواء ؟ أم هو إغواء مع كبرياء؟ تكلّمت . تكلّمت فتولّى اللسان الأمر ، وأفشى السّر . كان صوتاً رخيما به بحة ممتعة. بحّة الإغواء . قالت بلغة الناموس: « نوضد نفّود »(*) ، فردّ المارد الازرق في الحال . «أسْوَتْ»(**) ساد صمت . تكلّم لسان الناموس بالإغواء من جديد : «نوضد نلّوز»(***) ، فردّ المارد الازرق : « أكْشَتْ » (****) لم يدم

* وصلنا وبنا ظمأ .
** إشربن .
*** وصلنا وبنا جوع .
**** كلن.

الصمت طويلاً . لأن الجنيّة الملفوفة في غلالة السواد لم تمهله ، فعاد من تيه الفراغ ليسمع وصيّة رسول الخلاء للمّرة الثانية . رسول وقف فوق رأسه يوماً ، ليحدّث رسولاً مارداً أقبل عليه أيضاً ، بنفس الصوت الملحون ، وبنفس النّبرة اللّذيذة ، وبنفس العبارة . قالت كما قالت يوماً: «آوَزَلّو . مايْجَا آوَزَلّو؟» (*) . فهزّ المارد عمامته كما فعل في ذلك اليوم ، وتغنّى بالجواب : «آماهال إيْكم آماهال»(**) . هنا أنقطع الحوار ، لأن الجنيّة الملفوفة في الثوب الأسود لم تتساءل عن الحال كما فعلت في اللقاء القديم ، ولكنها طأطأت ، واطلقت أنيناً شجنياً موجعاً . خالها ستغنّي لحون الجنائز ، ولكنها سكتت وحرثت التّراب بعلامة لم يتبيّنها في الضوء الشاحب . لم يلتفت إلى المارد حتى لا يخرق ناموس الوقار ، ولكن التّيه لم يمنعه من أن يلحظ العلامةمن طرف خفيّ . العلامة التي رسمها المارد بساعديه في الهواء . التقاطع الصارم الذي رسمه المارد القديم بساعديه ، ثم ثبّته في الفضاء بالذيلين السحريين ، لتبقى العلامة معلّقة في السماء حتى بعد اختفائهما .

(١٠)

اقتربت . ركعت تحت عرش التّراب . شدت الحسناء إلى جوارها. ركعت الحسناء أيضاً تحت قدميه . مدّت إليه يدها ، ولكنه لم يفهم الإشارة ، فلكزه المارد ، ثم تناول يده ووضعها في يد الجنيّة الملفوفة

---

* الحاجَةُ . أين حاجتي ؟

** البلاغ . خُذي البلاغ .

بالسّواد . شدّت يده إليها ، استبقتها في يدها فأحسّها ناعمة ، دافئة . ارتجف تلذّذاً ، فوضعت في راحته يد القرينة . انتصبت ، فهبّ جمع النسوة . تراجعن بكبرياء ، ونبل ، وجلال . انتصب المارد أيضاً ، فهبّ جمع الرجال . تواروا في الخلاء .

استمرّ يمسك بيدها . كانت ناعمة أيضاً ودافئة أيضاً . أكثر نعومة ودفئاً من كف الجنية الملفوفة في اللحاف الأسود . كانت تركع أمامه على ركبتيها . تنكس رأسها الملفوف في لحاف معتم . من اللحاف تدلّت جدائل اشدّ ظلمة . من الجدائل السخيّة فاح شذى الرّتم . عمّ السكون، فسمع انفاسها فحيحاً . ترك يدها فسمع صوتاً لم يسمعه منذ زمن بعيد :

– خلتك لن تعود أبداً .

تلذّذ بالصوت . تلذّذ بكل حرف في اللّفظ . تلذّذ باللّحن . لذّة فاقت لذّته بشوق المعشوقة .

قال بعد صمت قضى به الناموس :

– ولكنّك انتظرت .

– ماذا أمام المرأة غير الانتظار ؟

– الانتظار ؟

– المرأة لا تيأس أبداً إذا انتظرت رجلاً ، لأنها تعرف أن الرجل

لابد أن يعود عندما يكتشف أن المرأة قَدَره .

– المرأة قدره ؟

– نعم . المرأة هي قدر الرجل دائماً .

– في الصحراء خلق كثير يستطيع أن يخالفك هذا الرأي .

– أعرف أنّك ستحتكم إلى هذا السلاح . ستقول أن أهل العزلة خالفوا الناموس ، وقهروا القدر ، ولكن قل لي : ألا ترى كيف خالفوا التميمة ما أن تخلّوا ؟ ألا ترى في تخليّهم عن قدرهم تخلٌّ عن الحياة ؟

– اعرف منهم رجالاً تخلّوا عن الحسناء ، ولكنهم ظلّوا أحياء !

حدجته بنظرة تحت الضياء الشاحب ، فرأى في مقلتها نفس الوميض القديم . لحظ في نظرتها استخفافاً فأدرك كم كانت حجّته بلهاء. حرث التّراب بسبّابته . رسم دائرة . خرقها بقطرين متضادّين . سأل :

– إذا كان على الرجل أن يستسلم للناموس ، فلمَ عليه أن يتحمّل ضربة بلسان المدية ، وسُمّاً مميتاً في لُعَاب القِران ؟

ظنّها ستتلكّأ ، ستفاجأ ، ولكنها أجابت في الحال :

– علّمنا القدماء أن الناموس لم يورد أمراً لم يرسمه الخفاء . وانت لا تستطيع أن تنكر أن الخفاء هو رأس الحكمة .

خرّب الدائرة بضربة همجيّة . مدّ يده إلى اللثام المهيب . لم يخجل، لم يستحِ . تنكّر لناموس الوقار . انزل « أموال » عن الشفة . تحسّس العلامة . زحف نحوها . مال برأسه . انحنى فوق رأسها . حشرج بصوت مبحوح ، مخنوق ، بدا له كريهاً ومُنكراً :

– هنا ترقد علامة لا تُنسى (وأشار إلى شفته العليا) ، وهنا رسم لسان النّصل جرحاً لا يُمحى (وضرب قفص الصدر الأيسر بقبضته اليمنى) .

(١١)

تألّقت المقلة بالوميض . مقلة بيضاء ، كبيرة ، جريئة ، تسطع في الضوء الشاحب بالغموض ، ولكن اللسان لم ينطلق . عدّلت اللّحاف حول وجهها ، فرأى على شفتيها نفس الاستخفاف . بل ليس استخفافاً، ولا سخرية ، ولا استهانة . تعبير خفي لاح في المقلة قبل أن تفضحه الشفتان المزمومتان .

اقترب بشفتيه من شفتيها . تحسّسهما فسرت في بدنه رجفة لذيذة. أقترب بأنفه من أنفها . ألصق فتحتي انفه بفتحتي أنفها . استنشق الانفاس بظمأ جنوني ، فأحسّ بالدوار ، وترنّحت فسقط رأسها على منكبه الأيمن . مدّ يده وتحسّس النّهدين . تسلّل باليد الأخرى ، وتاه في

الثياب. ثوب وراءه ثوب . ولم يبلغ مدخل الدّغل إلاّ بعد سفر طويل . حام حول الحرم . تسكّع حول الضّفاف . تراجع مسافة . تشجّع . تقدّم مسافة . وجد نفسه داخل البستان . تتشابك فوق رأسه أغصان الشّجر ، يغني له الطيّر . وفي الجوار يثرثر النّبع . هام بالسلسبيل . ثرثرته أيقظت فيه حنيناً، فتدلّه بالشلاّل . رآه بهجة للعين ، وسراً بهيّاً للبصر ، فاستدار ، مصمّماً أن يكتشف الكنز ، ويقف على أصل السّر . صعد . تعب . جاهد ، أصابه الإعياء . مضى . بلغ اللسان ، ولكنه لم يبلغ المنبع . ناله الظّمأ . تمتم : « نوضد نفّود » . فسمع : « أسْوَتْ » اقترب من بدن تجرّد من اللّون ، لأنه أخفى كل الألوان . علت الثرثرة الشهيّة فارتجف انتشاءً . تمتم تميمةً أخرى : « نوضد نلّوز » . فسمع همساً مجبولاً ببحة لذيذة : « أكْشَت » . ساعتها شهد الأمر الجلل . فلق العتمة قبس خجول. ثم انهار الشرر . فعرف . عرف . عرف سرّاً بعيداً ، بعيداً . عرف تحوّلاً غاب عنه في السفر القديم . لم يكن الشلاّل الوديع مرناً كالحيّة ، لم يكن إنسيابياً في المسلك كالحيّة ، لم يكن ناعماً كالحيّة ، لم يكن حكيماً كالحيّة ، لم يكن سرّاً كالحيّة . ولكنه تحلّى بكل هذه الخصال لأنه لم يكن شيئاً آخر غير الحيّة نفسها !

ولكن تحوّلاً آخر أعقب التحوّل . فما أن استقام السّر ، ودخل الماء في بدن الحيّة حتى انقلبت الحيّة ، ولبست بدناً كان لها قريناً ، وبخصالها شبيهاً . صارت تتلوّى وتلتف حول نفسها ، وتنثر في الهواء

هباء له لون التّبر ، ثم تنتصب لتبدع آخر علامة في ناموس الإغواء ، قبل أن تبتعد لتستعير بدن الحسناء . حسناء .. حسناء حقيقية . ولكن لِمَ يلامس جسد الحسناء في حين يشتدّ حوله الفحيح ؟ أيكون تحوّل اللئيمة تنكراً ؟ أليست اول من علّم الخلق التنكّر ؟ أليست أحيل خلق البرية ؟ اشتدّ الفحيح ، فتلبّسته قشعريرة . تراجع فلاحقه الفحيح . فحيح . فحيح . لا صوت غير الفحيح . لا وجود لشيء غير الفحيح . اختفت الشعفة ، وخرس النّبع ، وطار البستان ، ولم يبق في الوطن غير الفحيح. مدّ يداً راجفة واستل المدية . علا الفحيح أكثر . صار عاصفة . إعصاراً. خطفه الإعصار بقوّة جنّ ، ولكنه سدّد طعنة للغول قبل أن تتلقفه الهاوية. سدّد طعنة أولى ، ثم جرّ النصل النّهم على البدن اللئيم . ثم عاد يطعن.

ارتفع أنين فاجع . حشرج البدن حشرجة مكتومة . علا في السكون صوت :

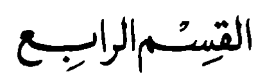
– كنت على يقين أنّك ستفعل ذلك !

في حضيض العرش التّرابي تألقت في الضوء الشاحب ، بقعة غامضة ، رجراجة ، متخثّرة . غدير صغير تغذّى على شلاّل كان ينطلق من مكان مّا في الأعالي ، في الجسد العاري ، المحموم بالشهوة الخالدة، المزموم فوق السّدّ التّرابي العلوي . ينتفض، ويحاول أن يتلقّف الهواء بيديه ، فيستفزّ الجراح ، ويشتد النزيف ، فيتدفّق السائل الغامض من

الينبوع الخفي ، السرّي ، البعيد ، البعيد ، ليغذّي البركة الرجراجة ، في الأسفل ، فتتفتّح مسامات الترّاب لترتوي بعد ظمأ ، وتستيقظ الأرض ، وتفتح فم الحنين، لتستردّ رهينة كانت قد استودعتها الصحراء .

فوق البركة لمع نصل شره .

تحت الضوء الشاحب تحرّك شبح . نزل الوادي ، وانطلق شرقاً .


القسم الرابع

٣٣- الوَعْد

« بلَغَهُ (أي الفضيل بن عيّاض رضى الله عنه) أنّ إبنه عليّا قال : وددت لو أكون بمكانٍ أرى فيه النّاس ولا يروني . فقال (الفضيل بن عيّاض): ويح عليّ ، لو أتمّها فقال : بمكانٍ لا أرى فيه الناس ولا يروني » .

كمال الدّين الدّمّيري

«حياة الحيوان الكبرى »

* * *

« من يعلم لا يتكلّم . من يتكلّم لا يعلم » .

لاوتسي

« تعاليم الطّاو »

(١)

في فم إلتواءٍ مباغت ، في عنق « آلوّن» الجنوبي ، انفصل عرق عن الجبل المكابر ، وتمدّد في بطن الوادي منحنياً في القامة ، قصيراً في المسافة ، محاذراً أن يتخلّى عن الجبل الذي انفصل عنه ، فبقي به ملتحماً من الذّنب ، كأنه يخشى التّيه ، أو يخاف العزلة ، لو تنكّر للإنتماء ، وتخلّى عن البدن الأمّ . في أعالي اللسان الجبلي تحالف الزمان مع القبلي، فشذّبا معاً جدران الصّلد ، وحفرا في الصخور مغاور بهيّة . على جدران الصّلد أختار الجدّ القديم نصباً ناتئاً ، وأبدع فيه فخاً للإيقاع بـ « آمغار » ، فجاء الخلف ليواصل عُرف السلف ، ويتخذ من المغارة ملاذاً من جلاّد الظهيرة ، ووطناً يأوي إليه فراراً من الخلق ، ومكمناً ينطلق منه لملاحقة الإله الجبلي عندما يستبّد به الحنين فلا يجد غير المطاردة عزاءً . تناقلت القوافل خبر المطاردة ، وتسامر بها الرعاة في الليالي ، ووصلت السيرة إلى القبائل في « آزجر » كلّه فتغنّت بها الشاعرات في الأشعار ، فاجتازت حدود الصحراء ، وبلغت تخوم الادغال ، لأن أهل الخلاء كانوا قد جربّوا ، منذ أقدم الازمان ، أن السيرة ستبلغ أبعد الاوطان ، وستنتقل في الزمان ، لتصير خالدة، إذا تناقلتها الأشعار .

فقبل أن يفقد«بوشا» لسانه وينسى لغة الصحراء بسنوات ، روى عابر كيف نزل سهول « تانوت ملّت» بعد سفر مميت في طُرق الجبال .

نزل السهل ليلاً ، فأوقد ناراً وجلس يلاعب ألسنة اللّهب بيديه ليتدفّأ . كان السكون قد ابتلع الصحراء ، وتطاول ليتسلّط على السماوات أيضاً، لولا أن تدخّل في الأمر شبح . سمع دبيباً مكتوماً ، ثم زفيراً عميقاً يشبه الأنين ، فابتسم ، لأنه ظنّ أن الجنّ رأوا أن يمازحوه بدعابة ، فانهمك يتمتم بالتمائم القديمة . في ضوء النّار تبدّى الشبح فُجاءةً ، فانتصب قائماً . دارى لسان النّار براحته ، وحدّق في الظّلمة . رآه طويل القامة ، شاحب الوجنتين ، جاحظ العينين، في المقلتين يغلب البياض ، والعناد ، و..الجنون . أمّا الثياب فكانت أسمالاً ممزّقة، بائدة ، باهتة ، نالتها الشمس ، والزمن ، وانفاس القبلي . وقف العابر حائراً ، ولكن الشبح لم يمهله . تقدّم خطوة . خطوتين . ثلاثاً . انتصب في مواجهته ، وصوّب نحوه مقلتين مستنفرتين غضباً ، أو جنوناً ، أو ربما استفزّتا بسرّ آخر لم يعلم له سبباً. لم تطل المواجهة . تكلّم الشبح بصوت خفيض أصابه الإعياء ، وربما خنقه الغضب ، أو ناله الجنون . قال: « هل تدري ؟». تهيأ ليستفسر، ولكن الشبح لم يمهله مرّة أخرى . قال بنفس الصوت: « لقد ادركته ، هل تصدّق أنّي ادركته ؟ هئ – هئ- هئ..». استمرّ يكرر ، ويحشو فمه بطرف لثامه ليوقف ضحكته الغريبة . ولكنه لم يفلح في وضع حدّ للكركرة . كركر طويلاً . ثم توقّف. توقّف وشيّع إليه نظرة شقيّة . هكذا وصفها العابر . قال : «نظرة شقيّة » ، وكرّر العبارة في روايته أكثر من مرّة ، وتجنّب أن يصفها بنعت آخر حتى لا تتناقله ألسنة أهل الفضول خطأً فيصل الأجيال محرّفاً . قال

العابر أن الشبح قال عندما شيّع إليه تلك النظرة الشقيّة : « قلت له : هذا أنا بوشا ، حفيدك بوشا ، هل عرفتني ؟ لقد ادركتك يا مولاي بعد مطاردة استمرت عمراً ، فهلاّ رحمتني واجبتني عن السؤال ... ولكنه أشاح بوجهه عنّي ، ولكزني بمنكبه الرّهيب فطرحني بعيداً ... و .. وفرّ . فّر . فّر مّرة أخرى » . كانت انفاسه تتلاحق ، فتدرك لثام العابر لتجعله يرتجف ويرتجف ويرفرف مع كل موجة زفير . اختفى العنف من عينيه القاسيتين ، الشقيتين ، ونزل فيهما تسليم . لم ينزل فيهما التسليم وحده ، ولكن الدموع أيضاً . قال : « ادركته . لا اصدّق أني ادركته . ولكني سأدركه . سادركه مّرة أخرى » . اشاح بوجهه . وانطلق . ابتلعته الظلمة . لاحقه العابر حتى اختفى ، ووقف طويلاً يحدّق في الظلمات . ليلتها لم ينم ، لأنه كان على يقين أن مداعبات الجنّ لن تقف عند هذا الحدّ ، وهو الذي جرّب أنهم إذا بعثوا لعابرٍ مخلوقاً في بدن إنس فلابد أن يتبعوه بقافلة يقودها عبيد ، أو كوكبة جند مسلّحة بتروس الجلد ، أو بحسان تتغنّى بأحلى الأشعار ، وربما تمادوا في الدّعابة فدسّوا له حيّات مميتة تملأ العراء بفحيحها الجماعي الكريه . انتظر المفاجأة التالية، وحدّق في الظلمة طوال الليل ، وتجسّس على السكون ، ولكن الجنّ لم يظهروا ليلتها في أبدان الإنس .

في مساء اليوم التالي فقط عرف السّر ، بعد أن حدّثه الرّعاة عن وليد شقيّ ، يلاحق ودّاناً هائلاً ، كانت القبائل قد أطلقت عليه إسم

«آمغار» ، ونادت به سلطاناً على «آغرم نودادن».

(٢)

في يوم آخر ، في وادٍ آخر ، تحلّق الرعاة حول موقد النّار ، فدهمهم عابر يركض ، يلفظ الزّبد ، يرتجف كالمحموم ، ويردّد بأعلى صوت : « جنّ .جنّ . جنّ» . استوقفه الجمع . لم يستوقفوه ، ولكنهم اعترضوه ، واحتواه أقواهم بين ذراعيه ، في حين تولّى تهدئته أكثرهم حكمة. ولكن العابر لفظ زبداً جديداً ، وغمغم بصوت حيوان : « أنتم لم تروه . ساق الأمام يد رجُل . وقائمة في الخلف هي قدم رجُل . فهل رأيتم ودّاناً بقوائم إنسان ؟ ما أبشع هذا ! ما أبشع هذا ... » . ترنّح بجوار النّار غائباً . غنّى هائماً : « ما أبشع هذا .. » ، ثم زحف مسافة ، وزأر كسباع الادغال ، وبدأ يتقيّأ .

تبادل الرّعاة نظرات ذات معنى ، ولكن أحكمهم إستمهلهم بإشارة من سبابته النحيلة ، واومأ لراعٍ نحيل يجلس مواجهةً ، تتلامع عيناه بشقاوة . قام وتولّى استجواب العابر . قدّم له وعاءً مليئاً بحليب الإبل . وبرغم أن الرجل لم يستطع أن يتناول سوى جرعة واحدة ، إلاّ أن الترياق كان سريع المفعول . هدأ الزائر ، اختفى الزّبد من شفتيه ، تراجع الفزع في العينين . برئت اليدان من داء الرجفة . بدأ يسكن، فقال الراعي اللئيم : « ظننت أن الجنّ لم يكن ليكونوا جناًّ لو عجزوا يوماً عن التنكّر ، فما الغرابة فيما رأيت ؟ » . هنا خاب ظنّ الجمع

بمضيفهم ، فما أن جاء الرّاعي على سيرة الجنّ حتى فزّ العابر ، واستولت عليه الحمّى من جديد . ردّد بصوت كالنّواح : «أنت لم تر شيئاً . أنت.. لم تقتنص طريدة ، ودّاناً حقيقياً ، ولا تكتشف فيه اليدين والرجلين إلاّ بعد أن تستل المدية ، وتهم بنحره ! ما أبشع هذا .. ما أبشع.. » . كركر الراعي اللئيم بضحكة ، واطلق دعابة : « كيف تريد الودّان ألا يتحوّل إنساناً إذا كنت قد أخرجت مدية النحاس دون أن تُسمع الخفاء التميمة المناسبة ؟ تنبت للودّان أرجل في مكان القوائم ، وتظهر له أيدٍ بدل السيقان ، إذا لم تحسن قراءة التمائم . ها–ها–ها..» اكتفى الحكيم ببسمة . وكتم كثيرون ضحكاً كان سيزلزل شعاف الجبال لو لم يُخنق في المهد .

جاء دور الحكيم فانهى الدّعابة بيده ، وانطلق يسرد رواية غريبة عن إنسان وحيد ، عاش يتيماً ، معتزلاً ، باحثاً عن السّر .

حمل له « وانتهيط» نبوءة السلّف ، فانطلق وراء الودّان طلباً للوصيّة . ركض وراء الطيف الجبلي منذ ذلك اليوم حتى صار له «آمغار» أباً وجداً وإلهاً . إذ مَنْ مِنّا لا يبحث عن أبيه ؟ من منّا لا يبحث عن جدّه؟ من منّا لا يبحث عن إلهه ؟ ولكن متى كان إبن الحضيض يستطيع أن يبلغ الجبال طولا ؟ متى كان الإنسان يقدر أن ينال الودّان؟. ركض الإنسان ، وركض عبر الصحراء جريا وراء ظلّ الجبال . أصابه الإعياء فدبّر الحِيَل . لم يتقن على الصلّد فخاً كما فعل سلفه الاول عندما يئس

ورأى أن يبلغ الشعفة ، ويقف على سرّ الجبل ، ليصير إلهاً . ولكن الخلف سار في السبيل المضادّ . تنكّر أيضاً في مسوح الإله . دخل في الجلد ، ورفع على رأسه القرون . ولكنه سقط أرضاً بدل أن يصعد إلى اعلى . ركع على التراب ، وسار على أربع ، لأن من لم يؤتَ الحكمة التي ترفع إلى الأعالي ، صار أقوى إذا تحلّى بالضعف ولبس الأرض . فأعلم ، أيها المفزوع ، أن الجنّ تنوح فزعاً ، تنوح نواحاً يفوق نواحك مرارة ، إذا شاء سوء الحظّ أن يرمي في سبيلها مخلوقاً تخلّى عن الكبرياء ، ولاصق التراب ، متحلياً بضعف التّراب . لأن الجنّ أكثر من يعلم أن من نام أسفل الجميع ، وساوى نفسه بالتّراب ، نال تلك القوّة الخفيّة التي لا يملكها إلاّ التراب إذ نال تسليماً يحيل كل شيء إلى تراب.

فِلمَ تفزع ، أيها الغريب ، من مخلوق تشبّه بالتّراب سعيا وراء الوصيّة الخفية ؟ وما ضيرك أن تحترس ، وتحترس ، وتحترس حتى لا تصير من أهل القنص الذين رموا ، في العسعس ، آباءً لهم ، واجداداً ، وآلهة ، دون أن يدروا ؟

(٣)

ارتفع النّصب عموديا في الواجهة . فوق قمة النّصب انحنت كتلة الصّلد حتى لامست رأس العمود . استرخت شمالاً فأقامت سدّاً أملس ، مائلاً ، كوّن ، في الامتداد ، جناح المغارة . استلقت الكتلة غرباً، فأقامت سدّاً هاجعاً صار للمغارة جناحاً آخر ، فيتبدّى التكوين ،

عن بُعد ، خباءاً باهتاً ، يستعير فيه النّصب في المركز مقام الرّكيزة .

في صدر النّصب طبعت كفّ الساحر فخاً مزبوراً بكنز الأرض ، بدم الصحرّاء، بـ « تفتست » الخفيّة ، فانتصب « آمغار» على ارتفاع قامة رجل . في وقفته كبرياء الزعيم ، في نظرته غموض أهل الخفاء ، في مقلتيه يومض سرّ الجبل .

أقبل لاهثاً توقّف قُدّام العمود . تطلّع إلى الإله المشدود إلى الصّلد بتميمة الدّم الجوفي ، فلمع في المقلتين شرر . غاب السّواد ، واستبّد بالعينين بياض . حدّق في الجدار بمقلة البياض . اهتزّ البدن بالرجفة ، واحترقت الاطراف بنار الحمّى ، ولكنه لم يعد إلى الوراء . مضت الحدقة تتسع ، والسواد يزول ، ونور العين يسبقه ، يتسلّق الجدار يخترق الصّلد ، يغمر السبيل بفيض الضياء ، فيسير . يسير . يسير . لا يسير ، ولكنه يستعير اجنحة مجهولة ويطير . يتخلّص من اوزار تفوق الجبل ثقلاً ، يتخلّص من قيود في وحشيّة سلاسل الحديد ، يتخلّص من يد تتلوّى على عنقه كأفعوان الادغال ، فتخنقه ، وتكتم فيه الأنفاس . يجيء ميعاد الفرار فينسل من ملكوت الظلمات ، ويلاحق القبس البتول الذي يشقّ له الصّلد ، ويلقي به في الوطن . يصير هشّاً ، يندثر فيه الوزن، ويتلاشى في ذرّات لها خفّة الريح ، يسكن في النّفَس ، ويهبّ في الريح . يهزم المسافة لأول مرّة ، لأن لا وجود للمسافة في وطن لا يعترف بالمتاهة الزرقاء سماءً، ولا بالمتاهة السفلية الجدباء صحراءً . لأن

الحرم الذي يتخذه «آمغار» وطناً لا يمكن أن تسعه الأرض ، ولا يمكن أن تحتمله سماء من السماوات ، ولا يمكن أن يحتويه فراغ يقوم بين أرض وسماء . لأنه مكان لا يحتويه المكان ، لأنه مملكة ليس للزمان عليها سلطان . هناك في وطن الحنينِ الأبدي ، ينتهي الضياع الخالد ، ويصبح الشوق اغنية شجيّة ، لأنه لا يلبث أن يستعيد أُمّاً كانت لأبيه أُختاً ، ويسترجع أباً كان لأمّه أخاً ، ويعرف جَدّاً كان ساحراً حكيماً فتباهى وكابر واعتدى على الخفاء ، فانقلب عليه السّحر جزاءً ، ليعلم أن فوق كل ذي علم عليم . في هذه السّيرة لا يعود غريباً ، لأن الحنين يصير أغنية شجن ، والأمّ الضائعة تصير أباً ، والأب يصير جداً ، وهو، بوشا البائس ، يصير الأمّ والأب والجدّ . ولا يبقى له ما يبحث عنه فينسى ، ينسى، ينسى ، لأن حرم «آمغار» لم يكن ليكون وطناً للحنين لو لم يكن مملكة النسيان.

(٤)

نزع الأسمال قطعة قطعة . نزع النعل . السروال . الجلباب الفضفاض ، وأبقى على اللّثام . دخل في الجلد الاشعث ، الرمادي ، المكلّل بشعيرات بيضاء كسيماء الشيخوخة ، كالشّيب . أحكم رباط الجلد حول البدن . حول المعصمين ، حول الساقين ، ولم يبق عاريا سوى الكفيّن والقدمين . اشتدّت الرجفة فأسرع يزيل اللثام قبل أن تغلب الحمّى . على الرأس الحاسر أنزل القناع الجليل ، المتوّج بقرنين

هائلين معقوفين إلى الوراء ، ثم إلى الأمام . أحكم الرباط حول الجمجمة، ثم زمّ طرفاً حول الذّقن فتدلّت لحية كثّة ، طويلة .

خرج . خرج ..

دار حول الكتلة . صعد الصّلد الصارم ، العمودي ، الأملس ، ووقف فوق الشعفة . شرب من نسيم الأعالي ماء سخيّاً ، وسمع في السكون لحون الشجن . تنزّل من الوطن سرّ . اتخذ السّر وطناً فادرك الخدعة ، خدعة ما كان ، وخدعة ما سيكون ، أمّا الميلاد ، أمّا القران ، فلا وجود لهما إلاّ في أوانٍ لا يتبدّد بما مضى ، ولا يتبدّل بما سيكون ، لأن الزمان انقضى وفقد السلطان على وطن لم يعترف يوماً بالمكان وطناً .

(٥)

عاد . عاد ..

عاد بعد زمان لم يعرف له أحد أمداً ، لأنه عاد من الوطن الذي لا سماء فوقه ، ولا صحراء تحته ، فكيف يصير فيه للزمان سلطاناً ؟ عاد يرفرف في صدره السّر ، ويشتعل بالحنين ، لأنه يعرف أن المنفى قدر من خرج ، والشقاء الأبدي مصيره .

عاد . عاد..

عاد ليحلّ في قمقم . والقمقم مُقفل في جوف قمقم . والقماقم كلّها تسبح في فلك الظّلمة . عاد إلى المكان فتسلّط الزمان ، وأعاد سطوة همجيّة لكل أمرٍ مضى ، وأتى بهمٍّ فرّ منه الأب ، وكان فخّاً كريهاً للجدّ ، وألهمه بأن كلّ شيء كان يمكن أن يهون لو لم يوجد ما سيكون ، فتذكّر . تذكّر فهرب السّرّ في الحال .

(٦)

مازال يتقيأ ويعاند الحمّى عندما وقف فوق رأسه شبح .

زحف . احتمى بالجدار الصخري بظهره . حاول أن يعتدل . ألقى برأسه إلى الوراء . واطلق أنيناً . تكلّم الشبح :

– عرفت أين أجدك . تستطيع أن تفرّ من الخلق . تستطيع أن تتنكّر في جلد جدّك « آمغار» ، أو في جلد الساحرة « تيرزازت » تستطيع أن تنافس الجنّ في التخفّي ، ولكنك لن تستطيع أن تجد مفرّاً من بورو . هئ – هئ – هئ ...

ألقى بالحطب في مدخل المغارة . ركع على ركبتيه وأعدّ الموقد . انحنى على الزّند ، وبدأ يقدح . عاند الزند طويلاً قبل أن يفلح في إغواء الشرر ، واستدراج النّار بأعواد الحطب . اختنقت الأرة بالدّخان ، ثم انبثق لسان شره ، فطقطقت العيدان بالشكوى . فرغ من النّار ، ووضع إلى جواره لفافة من كتّان باهت موشّى ببقع الدهون . ركع في وجهه ،

احتضن صدره بيديه . قال بتسليم المعتزلة :

– نحرت على صدري أسرار الخفاء ، واخرجتني من الظلمة بلسان المدية ، فرأيت أن اتخذك قريناً ، فتقبّل خبزي الذي صنعته لك بيدي برهاناً على النيّة ، وهات يدك فأنت قريني منذ اليوم .

تناول يده . احتواها بين يديه . ضمّها إلى صدره . أطبق عليها بيديه الرماديتين ، الخشنتين . احتضنها طويلاً جداً . تمتم بتعويذة . قدح في مقلته وميض . ثم وضع الصرّة في يده . قال :

– اعرف أنّك عدت من اسفارك لأني أراك محموماً . ولكن جرّب أن تطعم جوفك غلّة بدل العشب ، وسترى أن الخبز يستطيع أن يشفيك من الحمّى ! لِمَ لا تجرّب؟

ولكن « بوشا » لم يجرّب . شدّد قبضته على الصرّة . هزّها في الفراغ مرّة. مرّتين . ثلاثاً . ثم وضعها في حجره دون أن يتخلّى عنها بيده . قال بورو :

– الحقّ أنّي جئتك بنبأ آخر .

استفهم المحموم بنظرة شقيّة ، فأكمل بورو :

– الوديان ستسيل هذا العام . ستسيل قريباً . هه ؟ ألا يرى قريني في هذا النبأ بشارة تستحق منه ابتساماً ؟ تستطيع أن تستهزئ بحمّى

الاسفار وتبتسم!

لم يبتسم المحموم ، بل أن قلقاً استبدّ به فجأة ، فتأوّه ، وتلوّى ، وناح بصوت موجع . التفت بورو إلى النّار . ألقى في الموقد بعودين . قال :

– إذا كان قريني يشكّك في النّبأ فليعلم أنه ليس نبأ ، ولكنه نبوءة. لقد قرأ لي «وانتهيط» النبوءة في العظم ، ورأى في اللوح سيلاً كثيراً ، ولكن الدّاهية رمى بالعظم في النّار حتى لا أتباهى به أمام الأقران.

توجّع المحموم مرّة أخرى ، فقفز إليه بورو . قفز فجأة ، كأنّه تذكّر أمراً كان قد نسيه . مال على قرينه حتى لامس طرف لثامه السفلي صدر المحموم . جحظت مقلتاه وطغت فيهما حمرة كالدّم . همس بغموض :

– جئت لقريني ببشارة أخرى . في صدري أخفيت لقريني وعداً سوف يسّر له كثيراً . أراهن بحوُاري المحبوب الذي لا املك سواه أنّك سوف تبتسم في الحال عندما تسمع من فمي البشارة .

تنحّى جانباً . عدّل اللثام حول وجنتيه . في العينين اختفت الحمرة، وحلّ فيهما إكتئاب كلامبالاة السماء . تابع فراغ العتمة الذي تكاثف وراء موقد النّار . تمايلت ألسنة النّار ، واستغاث عود اخضر

بشكوى كفحيح الحيّة. تكلّم بورو :

– لقد رأيت أن أجازيك فقلت أن الخبز خلّق للقِران ، ولكنه لا يكفي كراءاً . لقد نحرت على صدري أسرار الخفاء ، واخرجتني من الظلمة بلسان المدية ، فرأيت أن أحسن لك الجزاء . رأيت أني سأكون سعيداً لو توقّف قريني عن ركضه الشقيّ وراء « آمغار » ، ففكرت أن أضع له بيدي فخاً لم تضعه يد إنسي في الصحراء كلّها . نعم . أنت لا تدري أن قرينك بورو أكثر مهارة من جنّ فيما يتعلّق بصنع الافخاخ .

هزّ القرين قبضته بالصّرة في حجره . في عينيه رأى بورو إيماء كالكراهية . أوضح :

– انتظر ! انتظر ! كُنْ على يقين أن فخّي لن يصيبه بسوء . فخّ بوروليس حربة ، وليس سهماً ، وليس رمية حجر . فخ بورو ليس كالأفخاخ . فخّ بورو سيجرّ الودّان من قرنية ، وسيأتي به إليك من «آغرم نودادن» ، أو من شعفة الجبل . ستجده بين يديك دون أن يصيبه خدش ! أنت لا تدري أن بورو أمهر من صنع الفخاخ من شجر الطّلح. انتظر ، وسترى .

في العين لم يتبدّد الإيماء الصارم . الايماء الخفيّ الذي يبدأ وديعاً ، شقيّاً ، ثم يومض ببريق منفر لا يوحي بغير الكراهية . الإيماء أربك القرين. وألهى بورو عن ملاحظة جبارين الذي انتصب في المدخل ،

ووقف يداري الضوء بيديه ليتبيّن جوف المغارة . انسحب بوشا إلى الرّكن المعتم وانكمش كالقنفذ لصق الجدار . يضم العطيّة الملفوفة في الكتّان الملوّث بالدّهون ، ويتنقّل بمقلتيه بين الزائرين وقد تحوّل الإيماء الغامض في عينيه إلى فزع . تكلّم بورو :

– هذا قريني جبارين . لقد نحرت على صدره أيضاً عدوّاً ، وأقمت له حصناً منيعاً بالدّائرة . يروق للقرين جبارين أيضاً أن يصبح لك قريناً .

تنقّلت المقلتان في المغارة . اشتدّ فيهما الوهج والضيق والفزع . انتقل الضيق إلى البدن ، فتمايل يميناً ويساراً ، متشبّثاً باللفافة في الحضن ، فبدا كأنه يهدهد طفلاً رضيعاً . ثم اكتشف أن أصابع اليدين تتدلّى في الفراغ فزادته ارتباكاً ، لأنّه لم يعرف ماذا يفعل بالأصابع الفارغة .

جلس جبارين على رؤوس اصابعه بجوار النّار . ألقى في الموقد حطباً ، وألقى للقرين سؤالاً :

– هل هو أخرس ؟

انزل بورو طرف اللثام العلوي على عينيه ليداري حرجاً . ولولت العيدان في النّار واستغاثت ألماً . توقّف بوشا عن الجدب ، وزحف وراء الظلمة أشباراً .

قال بورو :

– جئت لزيارة قريني بوشا لأحدّثه على انفراد في أمر أردت أن أسّر به إليه منذ زمن طويل .

سأل جبارين بجفاء :

– هل هو سرّ ؟

استسلم بورو لنوبة سعال . ترنّح وسقط بمرفقة على أرض المغارة. ثم اعتدل في جلسته ، وعدّل اللثام على وجهه . أجاب :

– نعم . تستطيع أن تقول أن الأمر سرّ . سرّ صغير بين قرينين .

– وهل يعترف القرين بأسرار بين الأقران ؟ ألم تقل منذ قليل أنّي قرين لكليكما؟

سعل بورو مرّة أخرى . أجاب :

– السرّ كنز ، إذا كشفت عنه قبل أوانه فسد وضاع .

– لم أفهم جواب القرين ..

– السرّ تبر . والتّبر يتفسّخ ويصير رماداً وتراباً إذا انتهكته قبل أن تقرأ التمائم ، أو تبخل عليه بدم الجداء السوداء .

– ولكن أي سرّ يبقى سرّاً إذا انتظرت حتى يجري به الزمان ؟

– أن تنتظر حتى يجري به الزمان ، ويكف عن أن يكون سرّاً

أهون من أن تنتهك له الحرم ، فيتفسّخ ، ويفسد ، ويتبدّد ، فلا يُعرف له وطن ، ولا يجري به الزمان.

التفت جبارين . فتّش عن عين القرين . في عيني بورو أعتاد أن يقرأ أبعد الأنباء ، ويستفهم عن أكثر النبوءات غموضاً . ولكن القرين سبقه وفرّ . فرّ إلى سقف المغارة ، ثم انتقل من السقف إلى الجدار . انزلق مع الجدار الصارم ، وغاب في جوف الظلمة . في جوف الظلمة انتظرته مفاجأة . حدّق في الظلمات طويلاً قبل أن يفزّ ويسعى في الجوف زاحفاً على أربع . ابتلعته الظلمة . تنزّل سكون جليل . من الجوف تكلّم بورو أخيراً :

– هرب . لقد هرب .

هبّ جبارين :

– هرب ؟

– استغفلنا وهرب . ما كان ينبغي أن تتحدّث عن السّر أبداً .

– لا أفهم قريني أبداً .هل وضعتم في «آزجر» تحريماً حتى على السّر ؟

عاد بورو من الظلمة زاحفاً :

– لـ «بوشا» مع السّر علاقة قديمة .

– علاقة ؟

– يرى أن «آمغار» أُصيب بالبكم حتى لايذيع السّر . لو لم ينزع «آمغار» من فمه اللسان لأجابه على السؤال .

– أي سؤال ؟

– ألا تعرف أن بوشا لا يطارد الجدّ المتنكّر إلاّ لكي يجيبه على السؤال القديم ؟ ولكن هذه رواية أخرى . ما يهم قريني هو السّر . فليعلم القرين ، إذن ، أن بوشا أيضاً استعان بالمدية يوماً وجرّها على اللسان ! .

– ماذا يقول القرين ؟

– انتزع العضو المسموم من فمه ليقينه بأن الجدّ لم يتخلّص من العضلة الشرّيرة إلاّ عن حكمة بعيدة جداً ، فرأى أن يتشبّه به أوّلاً . ثم اكتشف ، بعد أن انتزع العضو القاتل ، أن الكلمة شرّ مميت ، والسّر الذي طلبه بالسؤال لا يمكن أن يُعلم بالكلام . فاستمرأ ما فعل ، توقّف عن مخاطبة الرعاة والعابرين حتى بالإشارة لقناعة أخرى ترى أن الإشارة أيضاً كلام ردئ !

هزّ جبارين رأسه عجباً ، فأكمل بورو :

– الليلة لن يعود . قرينك بورو على يقين أن بوشا لن يعود إلى المغارة هذه الليلة . لن يعود إلاّ بعد زمن نكون فيه قد ابتعدنا عن « آلّون»

مسافة طويلة . لقد أفزعته مرّتين . افزعته بمجيءٍ لم يتوقّعه ، وافزعته بحديثٍ عن السّر .

هزّ جبارين عمامته مرّة أخرى . قال بورو :

– الآن ليس امامنا إلا الإنصراف . أمامنا في الغد سفر طويل . ألم نتفق بأن الوقت إستغفلنا ، وكان علينا أن ندرك إبلي منذ زمن طويل لأريك الحوار ؟

– صدق القرين . الوقت سرقنا ، وتأخرنا في إدراك الحُوار كثيراً، ولكن ألا ترى أن الكنز الذي نلناه فوق الصخرة هو عطيّة تستحق ذلك؟

أهال بورو التراب على النّار فاكتمل نزول الظلمات . وقف جبارين في العراء وتطلع إلى السماء . رأى الحُوار يتوثّب فيسترخي العهن كثيراً . أحّس بانقباض خفيّ فزفر بضيق . قال بورو :

– نعم . العطية تستحق ، والبئر انفس كنز في الصحراء ، ولكن ما نفع الآبار إذا لم تردها الحيران ؟ لاهمّ في قلب القرين جبارين ، لأن ناقته إلى جواره ، أمّا الحُوار فبعيد ، بعيد . ما أشدّ توقي للحُوار !

انطلقا شرقاً ، وصارا يعانقان الصخور ، ويحتضنان جلاميد الصّلد ، كأنّهما يخرجان من زحمة الأنواء ، ويولدان من السماء ، ليقطعا سبيلاً يسير إلى الأسفل ، إلى الأسفل ، نحو الحضيض .

٣٤- الحُوارُ

« السماء مرعى تجاور فيه « طالمت »(*) صغيرها « آورا »(**) . الأمّ ترعى في الجوار ، والوليد شقيّ مشدود إلى شجرة بعقال مفتول من عهن . ولكن الشقي يتوثّب ولا يكفّ عن المحاولة . ويوم يتمكّن من الإفلات ، وفكّ القيد الهزيل ، ويصل إلى الضرع ، يحين المعاد ، وتقوم الساعة »

من أساطير الطوارق

* * *

« الآلهة لا تغفر الحنث بالوعد »

سوفوكل

(*) «طالمت» : النّاقة (بنات نعش)

(**) آورا : الحُوار.

(١)

الحنين إلى حُوار الطفولة لم ينطفئ منذ اختطفه الغناء .

في السنوات الأولى استسلم للإغواء ، وركب لسان السيل . تطلّع إلى حسان القبائل ، وصعد المرتفعات المجاورة فاستهوته القوافل التي تسير في طوابير طويلة ، تنوء بالأحمال ، وهي تتجه جنوباً ، أو تولد في الافق ، وتتلاعب بها ألسنة السراب طويلاً قبل أن تقترب ، وهي تسير في طريق الشمال ، وسمع من العقلاء أنها تحمل بضائع الشمال لتستبدلها بهباء التّبر في بلاد الادغال . ادهشته حركة القوافل الخالدة ، ولاحظ أن مسيرتها لا تتوقف ، فلا يمر يوم لا ينجب فيه الافق قافلة في طريقها إلى الشمال ، ولا تمضي عشية دون أن يزدحم طريق الجنوب بطابور الجمال المحمّل بالبضائع . سأل العقلاء متى ستتوقف القوافل فأجابوا بغموض العقلاء : « هل يشبع جوفك من تلقي الطعام ؟ هل تستكفي العين من النظر ؟ لا أرتنا السماء يوماً يتوقّف فيه مسير القوافل». تلوّى في جوفه ثعبان ، ورأى أن الحسناء بهّية للنظر أيضاً ، وشهيّة كالتّرفاس ، فرأى أن يسأل عن سرّها العقلاء ، ولكن غلبه الحياء فاحتكم إلى الاقران . قالوا بلسان آبائهم أنها قدر ، وتحدّثوا عن البهاء ، وعن الحياة بلغة لم يفهمها ، ولكن انتهوا إلى نفس الحكم الذي انتهى إليه

العقلاء عندما تحدّثوا عن قوافل التّبر . قال الاقران الاشقياء :

« ما أقبح الصحراء إذا اختفت منها الحسناء . لا أرتنا السماء يوماً تغيب فيه الحسناء » . أغراه الثناء ، وشدّه إليها السّر . وهبته الصحراء ترفاسة واحدة في موسم لم تمنّ به على أحد . كانت بلون طين الحمادة، تفيض عن قبضة اليد حجماً . مستديرة . علقت بقعرها رقعة من الطين الموشىّ بحبيبات لمّاعة كذرّات التّبر . على شعفتها الخفيّة استقرّت علامتان . وسم غامض امتدّ من رقعة الطين ، واخترق البدن كلّه . فشطر القطعة إلى نصفين . ووسم آخر ، أشدّ عمقاً ، وأكثر غموضاً ، لامس الوسم الاوّل في الجزء الاسفل ، وتمدّد جانباً ، على طرف الشعفة، ليرسم شقّاً له تكوين شهيّ. أزال عن الكنز ذرّات التراب ، تأمّل الخطوط الغامضة ، وضع الثمرة في أنفه ، تمايل منتشياً بأنفاس الوطن المفقود . انطلق عائداً . في الطريق اعترضته صبية اعتادت أن ترعى اغنامها في السهل المجاور ، ترتدي جلباباً قصيراً يكشف عن ساقيها البيضاوين، كما يكشف الكمّ الواسع عن فخذة شهية ، بيضاء . كانت تضفر شعرها في جدائل سخيّة ، معقودة إلى الوراء . تعبث بها بيدها دائماً وتبتسم بغموض عندما تقف لتحييّه أو تلقي له بسؤال عن الجداء الشاردة . في ذلك اليوم اعترضته أيضاً . داعبت جديلتها ، وابتسمت بخفر ، بغموض . هذا الغموض الذي لم يدرك له يومها

إسماً، وكان عليه أن ينتظر طويلاً حتى يفهم أن تلك الجاذبية ، ذلك الغموض ، لم يكن سوى ذلك السّر الذي يسمّيه العقلاء في لغتهم إغواءاً .

رأت في يده الكنز فهتفت بدهشة : « ترفاس في الخريف ؟ من رأى ترفاساً في الخريف ؟ » .طلبت أن يعطيها الترفاسة لتشتمّ العطر ، ولكنه هدّدها بسبابته جزاء لؤمها ، وابتعد . لاحقته . كبّلت نفسها بالوعد : « سأجرّب الرائحة . سأعيدها لك . أقسم ..» . رفض بهزّة من رأسه . واخفى الثمرة في طرف لثامه . ثم وضعها في أنفه متباهيا. لم يعرف أنه أجّج في صدرها شهوة الامتلاك ، كما لم يعرف ، بعد ، أن الحسناء إذا طلبت أمراً فلا بد أن تناله . توقفت عن ملاحقته . أتسعت عيناها الكبيرتان . طاف فيهما الغموض . انبثق السّر من المجهول . تلوّى في بطنه ثعبان . سمعها تقول :« إعطني الترفاسة أريك شيئاً !» . تقدّم نحوها خطوة . خطوتين . وقفا وجهاً لوجه . أزدادت مقلتاها صفاء واتساعاً . طغى الغموض . تمادى السّر ، فتمادى في جوفه الثعبان . أعادت بنفس اللهجة : « أعطني الترفاسة، أريك شيئاً ! » . هزّ رأسه نفيا . ابتسمت . ازداد الصفاء . اتسعت العين . امتلك السرّ العينين . تخلّت الكف عن الضفيرة . تسللت كالحيّة حتى اختفت في فتحة الجلباب . انزلت الجلباب فاتّسع الشقّ ، تعرّى الصدر ، وانكشف نصب

مدوّر في حجم قبضة الكفّ . في حجم قطعة الترفاس . في استدارة قطعة الترفاس . في بهاء قطعة الترفاس . سمعها تقول :« لن تستطيع أن تلمسه بيدك إذا لم تضع حبّة الترفاس في يدي . حبّة مقابل حبّة ..» ضحكت . ضحكت بغنج ، فتمدّد فيه الثعبان ، واشتعل بالحمّى . ولا يعرف هو نفسه كيف تجرّأ وهزّ رأسه نفياً . بعدها حدث مالم ينسه الى الأبد . اخذته من يده ، وجرّته إلى دغل الرّتم . قالت : «سأعطيك شيئاً ألذّ من الترفاس ، إذا اعطيتني حبّة الترفاس !» . غمغم بلهاث أبله : «ليس في الصحراء ألذّ من الترفاس ! » . ضحكت . ضحكت بنفس الغنج ، بنفس الغموض . بنفس الإغواء . قالت : « سأجعلك تقتنع بأن في الصحراء ما هو ألذّ من الترفاس لو أعطيتني حبّة الترفاس ! » . في الدغل نزعت الجلباب ، ووقفت في وجهه عارية . كانت ما تزال تبتسم، ولكن في الابتسامة اختفى الإغواء ، وحلّ وعيد . انهار أمام النصب المكابر ، الشّهي ، العاري ، على ركبتيه ، ومدّ لها الترفاسة بكلتا يديه .

(٢)

ولكنّ القوّة الخفيّة التي قادته إلى الدّغل ، واعطته نعيماً شهياً مقابل الترفاس ، ما لبثت أن تنكرت له ،فقادت إليه اليد التي اقتحمت عليه الدغل ، واخرجته من الوطن ، ليجد نفسه ضائعاً في العراءِ .

افتقدت الأمّ إبنتها فخرجت في أثرها . طافت المرعى ، هشّت امامها الاغنام ، ولم تر في العراء مخبأ غير احراش الشعبة الهزيلة التي تشطر المرتع إلى نصفين . دخلت الدغل فضبطتهما ملتحمين . فرّ من الدغل ، ولكنه لم يستطيع أن يفرّ من الجزاء. اشتكته أم الفتاة إلى الوالد ، فجدّد على جسده تلك الاخاديد التي حفرها على ظهره بالسوط عندما منع الغناء عن الحُوار الظّامئ ، ففهم أن الاقتراب من الصبايا إثم آخر لا يقل شأناً عن القتل . بحث في الصحراء عن عزاء يلهيه عن الحسناء فاستيقظ فيه الحنين القديم إلى الحُوار الذي فقده بجهالة الطفولة . أبوه بقي زمناً طويلاً يهدّده بسبابته كلما غضب ويردّد : « يا شرّير !» ليذكّره بجرمه . فكان يتساءل : هل هو شرّير حقاً ؟ هل قتل الحُوار المسكين حقاً ؟ لماذا علّمه الغناء ثم قطع عنه الأغنية ؟ هل أراد أن يمتحن فيه تأثير اللحون ، ويجرّب فيه طبع الإنسان ؟ هل كان يعرف أن الحُوار سيموت ، كما يموت أهل الجدب إذا لم يرتووا من اللّحن ؟ وهل هذا ما يسميه العقلاء أفعالاً شرّيرة ؟ أم أنه لم يطلب شيئاً ، ولكنه أراد أن يتسلّى؟ أم أن التسلية أيضاً تتحوّل إلى شرّ إذا انتهت إلى القتل ؟ وما معنى أن يرقد في جوف كل منّا شرّ كبير كما قال الساحر مرّة ؟ . وكلّما تساءل ، وفكّر في ما حدث للحُوار ، كلّما كره نفسه ، واشتدّ به الحنين لاستعادة الحُوار الذي فقده استهتاراً ، او تسلية ، أو شرّاً . يشتد الحنين ما أن يتطلع إلى القمر ، أو يتصنّت للسكون ، أو يسمع لحناً شجنيّاً ، أو يندهش أمام

لا مبالاة السماء . ضاع حقاً عندما فصلته الجنيّة عن الجسد الحميم ، ورمته خارج الدّغل . ضاع ووجد نفسه وحيداً . ولكن ضياعه بفقدان الحُوار أقسى . لم ينل منه قصاص الأب بالسوط ، ولم يعذبه لقب «الشّرير » الذي الصقه به ، ولم يتأثر بالمنفى ، ولا بعزلة الكائن المقطوع عندما وجد نفسه وحيداً ، مهجوراً ، بعيداً عن الخلق ، وعن الدّغل . ولكن في هاجس الحُوار قوّة غامضة ، بعيدة . أقوى من النسيان، وأعظم شأناً من الإغواء . في الهاجس القديم إيماء مبهم ، لعوب ، يطل في الطفولة بشقاوة الاطفال ، ولا يلبث أن يتوارى . يراه في مصرع الحُوار فيزداد عنه بُعداً .

(٣)

لم تهلك سنون الجذب قطعان المعز وحدها ، ولكنها أبادت الأبل أيضاً . خلّف له الأب قطيعاً من المعز ، وعدداً من الإبل . ترك الإبل هُملاً في الصحراء المتاخمة لآزجر ، وتولّى أمر القطيع . عبست الأيام وانقلب مزاج الزمان ، فأمسكت السماء ماءها ، وبدأت القطعان تضيع. خرج في طلب الإبل فلم يدرك منها إلاّ رؤوساً معدودة . تحالف في مصابها الجدب واللصوص والتّيه ، فلم يعثر وراء النّوق على حُوار واحد.

في « آزجر » استمرّت اللّعنة . كسب نوقاً كثيرة ، ولكنها لم

تنتج كلها ،كأنها أُصيبت بعلل مجهولة . وحتى إذا انتجت ناقة فإنها تسقط حملها قبل أن يحين أوان المخاض بزمن طويل . احتكم إلى السّحرة ، وتشاور مع الرعاة والعابرين من الإنس والجنّ . أجمعوا أن في الأمر سرّ، ولكنه لم يحدثهم عن الحُوار الضائع . فاز بتعويذه من أحد السحرة ، فانتجت « تيزار يفت » (*) بعد عام . انتجت حُواراً أبلق اللّون ، ولكن السّر الذي تحدّث عنه السحرة أخذه منه في نفس الليلة التي خرج فيها من جوف أمّه . غفل عن الناقة النّتوج فاستغفلته الذئاب ، واستأثرت بالحُوار المسكين . عثر على نصفه الأمامي تحت طلحة في فم الوادي ، في حين تنازعت الوحوش النصف الخلفي . عثر على العظام في مسافات تبعد كثيراً عن المكان ، وتناثرت شظايا اللحم حول الطلحة . وجد الأمّ تقف فوق الوليد الممزّق ، وقد أصيبت أيضاً بجروح أثناء معركتها مع الوحوش . رقبته تتمدّد على الحصى ، تجمّدت عليها لطخات من مخاط الولادة الممزوجة بالتّراب . الفكّان منفرجان ، ينزّ منهما سائل كثيب كالصديد . في المقلة المرفوعة إلى أعلى بلل، وبريق ، وتساؤل موجّه إلى السماء الصارمة ، البعيدة ، اللامبالية . في عين الناقة أيضاً حلّ يومها همّ . ولم تبرأ من ذلك الهمّ إلى اليوم الذي وجدها فيه ممدّدة على الجنب ، منفوشة كالقربة ، في مقلتيها بلل ، وبريق وتساؤل .

(*) تيزاريفت : البلقاء.

تساؤل موجّه أيضاً إلى السماء الصارمة ، البعيدة ، اللامبالية .

بعدها فقد الأمل .

أيقن أن لعنته هي قصاص آخر نزل عليه جزاء ما ارتكبه في حقّ الحُوار القديم . ركن إلى التسليم وحاول أن ينسى الحُوار طوال السنوات التالية . ولكنه لم ينس . كان يتنقّل في « آلوّن » ويئن حنيناً إلى الحُوار الضائع . إلى أن التقى ذلك العابر الغامض . بات معه ليلة فاستضافه بكسرة خبز ،واتخذه قريناً . قبل أن ينطلق العابر في فجر اليوم التالي قال له أن عليه أن ينذر للسماء نذراً إذا أراد أن يفوز بحُوار . لم يصدّق أن النذر يمكن أن يفوق تمائم السّحرة مفعولاً ، ولكنه ، رأى أن يجرّب . صعد إلى أعلى شعفة ، رفع يديه الى السماء الصارمة ، البعيدة ، اللامبالية ، وصرخ بأعلى صوت : « أيمسّينغ وان أفلاً ، آهيد يكفن آورا، هاكغرسغ ماس » (*) بعد عام فاز بالحوار ، ولكنه نسي أن ينحر أمّه .

(٤)

منذ أن نفش جوفها بالجنين ، لم يغفل عنها يوماً واحداً . عقل ساقيها بقيد المسد ، وتنقّل في أثرها في الوديان التي تتفرّع من « آلّون » إذا شبعت وبركت ، هجع تحت أقرب شجرة ، وإذا نهضت وتحرّكت

(*) : « يا إلاه السماء ، ارزقني حُواراً ، أنحر لك أمّه ! » .

ليلاً ، استيقظ وترنّح خلفها وهو بين النوم واليقظة . الناقة حمراء استبدلها بجمل قريع منذ أعوام مع أحد أصحاب الإبل في « تادرارت ». كانت شعثاء ، تتهدّل بصوف وفير ، ولم يكتشف أنها جرباء ، والوبر السخيّ على ظهرها لم يكن سوى حيلة رذيلة لإخفاء الدّاء ، إلاّ بعد مرور أسابيع ، كان خلالها صاحبه الغشّاش قد رحل بإبله ودخل «تاسيلي » . عاند الوباء . استحضر المراهم من العشب ، وتسوّل ترياقاً من اصحاب القوافل العابرة ، واستطاع ، بعد مجاهدة ، أن ينقذ النّاقة ، ويمنع انتقال الوباء إلى بقية الجمال . ولكنه فوجئ أيضاً أن الجرب ليس الداء الوحيد الذي حملته له النّاقة ، بل اخفت في رأسها كراهية ، وبيّتت له حقداً لم يدرك له سبباً . فبعد أن عرف أنها نتوج اشتدّت عنايته بها ، ووقف كثيراً يزيل من بدنها قراداً تعلّق به . لم يحرص على تخليصها من هذه الحشرة الوحشية فحسب ، ولكنه نزع الاشواك ، وشذّب وبرها من العيدان والحصى ثم رأى أن يداعبها ، فمسّدها ملاطفاً ، وتحسّس رقبتها بحنان ، فركلته بساقها الأمامية ركلة موجعة ، سقط على أثرها أرضاً ، فأصابه دوار ، وشعر بغثيان . ولكن الناقة الشريرة لم تمهله . دكّت رأسه برفسة أعنف ، ولحسن الحظ أنه تحاشى الخفّ في الطُرفة التي ترنّح فيها ، وسقط إلى الوراء . اشتدّ الدّوار ، ولكنه ادرك أنها ستقضي عليه إذا فقد الوعي ، فقاوم الغيبوبة ببطولة . انهارت ارضاً ، في نيّة لسحقه بركبتيها . تحامل وتنحّى في آخر ومضة .

لاحقته فزحف جانباً . استعان بمرفقيه إلى الجانب المعاكس . تشبّث بذيلها من الوراء ، ولم يجد سلاحاً لمقاومتها غير الاسنان ، عضها في فخذتها ، بجوار الذّنب ، بغلّ من تلقّى طعنةً جزاء الإحسان ، فرغت بصوت كالرّعد ، ونفخت في وجهه ضُراطاً مسموعاً تبعه عجين لزج ومقزز من الّروث . قفزت بقامتيها الأماميتين ، وحاولت أن تركله بالخلفيتين ، ولكنه لم يتخلّ عن الفخذ إلاّ عندما أحس بسائل حارّ ، لزج، يملأ فمه . تركها وسقط أرضاً . بصق الدّم وأزال الروث من وجهه وعينيه . لعن سلالة الإبل بصوت مسموع . استلقى على قفاه بإعياء ، فرأى السماء الصارمة ، البعيدة ، اللامبالية تحتجب وراء العتمة .

(٥)

الحُوار الوليد أيضاً عافته منذ أول يوم .

عافت وليدها بلا سبب ، كما كرهت مولاها بلا سبب ، فسلّم بغرابة اطوارها ، وأيقن أن صاحبها الأوّل ساحر كريه أراد أن يكيد له فأخفى في جوفها جنّاً شرّيراً لملاحقته ، ودسّ في بدنها وباءاً مميتاً ليقضي على جماله . فما سرّ الكيد إذا كان الجدب قد قاسمه إبله دائماً ، ولم يحدث أن امتلك عدداً تجاوز أصابع اليدين ؟ فهل تكون ثلاثة رؤوس أو أربعة أو عشرة سبباً للحسد ؟ أم أن حقد الخلق لا سبب له ، والإنسان لا بد أن يبدأ في تدبير المكيدة ما أن يعلم أن في الوادي المجاور قد نزل

إنسان أقبل هارباً ليحتمي بالخلاء فراراً من كيد الخلق ، وطلباً للنجاة من شرّهم ؟ وإذا كان الخلاء نفسه ينجب خلقاً يكيدون لمن جاء طلباً للحماية ، فأين المفرّ ؟ أم أن العابر الأخير الذي اتخذه قريناً كان على حق عندما قال أن السماء الصارمة ، البعيدة ، اللامبالية ، هي المفرّ الوحيد الذي سيقبل الفريقين ، ويسوي الحساب فيما بينهم ؟ ولكن عليه أن يعترف بأفضال الجوار أيضاً . فلو لم يجاور الرعاة لما وجد حليباً يرضع به الوليد بعد أن أبت الشقيّة أن تدرّ له حليباً . في الليلة الأولى أشعل ناراً هائلة ليتدفأ ، وسهر الليل إلى جواره . استعان بأوراق الأثل والحلفاء ليغسله من الدّم ، ويزيل عن بدنه خيوط المخاط . في الصباح صنع له قماطاً من الغطاء الصوفيّ النفيس الذي قايضه بتلبٍ هرم مع صاحب قافلة منذ سنتين . أبدع لفّ القماط ، وشدّه بخيوط الكتّان بدل حبال المسد حتى لا يؤذي بدن الرّضيع الهشّ . جاء بجمل الأثقال، حمّل لفافة الرّضيع من جانب ، ووضع في الجانب الآخر خريجاً محشوّاً بالمتاع ليحفظ التوازن على ظهر الدّابّة . انطلق مبكّراً . قاد الجمل راجلاً طوال المسافة . يلتفت في كل حين لتفقّد الوليد ، ويداعب خطمه المضحك ، ويزيل القذى من عينيه الناعستين الذكيتين . كان بلون أمّه ، يحاكي طين الحمادة ، ويميل إلى حمرة محبّبة . حول عينيه هالة مدهشة من السّواد تشبه السّاهور حول قرص البدر . في المقلتين الكبيرتين كُحل ينافس الكحل في عيون الغزلان . كُحل يجعل المقلة

تومض بألق خفيّ وذكيّ كعيون الغزلان . والاهداب . الاهداب أيضاً داكنة ، طويلة ، كرموش الحسان . كرموش الغزلان . إنّه غزال وليس حُواراً . غزال حقيقي . حسناء حقيقيّة . فأي هبة سماوية تنافس حُواراً بهيّاً ؟ وكيف طاق أن يحيا طوال هذه السنوات بدون حُوار ؟ بدون غزال ؟ بدون بهاء ؟ . اطعمه حليباً طازجاً من ناقة الراعي العجوز . فكان العجوز يضحك ويكشف عن فمه الخالي من الاسنان عندما يتفرّج عليه وهو يرضع الوليد بضفيرة كثيفة من خيوط العهن ، فيلتقمها الحُوار بنهم كما يلتقم الضرع ، ويعلو ضحك العجوز عندما يغفل بورو قليلاً فيجد أن الحُوار قد التقم أصابعه ، وبدأ يمتصّها ، بعد أن يكون قد فرغ من إمتصاص الحليب من ضفيرة العهن . كان بورو سعيداً .. كان سعيداً إلى حدّ أنّه نسى كيد النّاقة . كان سعيداً إلى حدّ نسى فيه ضغائن الخلق ودسائسهم الكريهة . كان سعيداً إلى حد أنساه وصيّة العابر . كان سعيداً ، لأنه نسى حتىّ وعد الآلهة التي لا تغفر الحنث بالوعد .

٣٥ - النَاقةُ

«ويا قوم هذه ناقة اللّه لكم آية فذروها ولا تمسّوها بسوءٍ فيأخذكم عذاب قريب»

القرآن الكريم
سورة هود (٦٤)

(١)

في المنعطف تفرّع لسان عميق عن « آلوّن» ، وانكسر شمالاً ، في حين تلوّى الوادي الكبير ، وسار في الاتجاه الشرقي الجنوبي .

كانت آثار الجمال تختلط ، وتتداخل حيناً ، وتتباعد وتفترق حيناً آخر . في المنعطف انحرفت ناقة جبارين ، وسلكت الفجّ الشمالي . في الرّكن تكاثف العلّيق ، وكثرت اشجار الحلفاء ، فاستدرجت الناقة ، وسارت بها في الفجّ المجهول ، المخنوق بضفتين جبليتين عاليتين . توقّفا . تشاورا . إتّفقا . اقترح جبارين :

- إلزم « آلوّن» ، وادرك حوارُك ، وأذن لي أن أمضي شمالاً لألحق ناقتي ، وسوف نلتقي عند بئرنا غداً !

حرث بورو الأرض بنعله كما اعتاد أن يفعل إذا استبدّ به قلق ، أو بحث عن عبارة مناسبة لقول شقّ عليه . رفع عينيه إلى قرينه دون أن يشيّع إليه رأسه . قال :

- أخشى أنّي لن استطيع أن ألاقيك عند البئر غداً!

استفهم جبارين بإيماءة ، فأوضح بورو :

– قريني ينسى أن إبلي سبقت منذ أيام ، ولن استطيع أن أعود بها في يوم أو ليلة حتى لو حمّلت الحُوار على ظهر الجمل .

ابتسم جبارين . اقترح :

– سنلتقي بعد يومين ، وإن شئت أكثر من يومين . سانتظرك عند فوهة الكنز . الرّاعي يستطيع أن ينتظر عاماً إذا وجد بئراً .

ابتسم بورو . توقّف عن حفر رموزه على التّراب . رفع رأسه أخيراً . رأى جبارين في عينيه يومها صفاءاً ، ووميضاً ، وشقاءاً مجهولاً ، لم يعرف له سبباً .

(٢)

قُبيل حلول المساء تكدّر الفضاء ، تكتّم الأفق ، وبدت السماء شاحبة كأنّها تضيق بالسماء ، فتتجهّم ، وتتغضّن ، كناقة ادركها المخاض فلا تجد لنفسها مكاناً ، أو كجمل لئيم أضمر لمولاه حقداً .

في العشية تنفّس الشمال ريحاً بحرياً لذيذاً ، ولكنه لم يدم طويلاً. توقّف فجاءة، فسكت الخلاء في ارتياب ، وتصنّتت الصحراء ، وتجسّست فيها الكائنات على الكائنات . ثم انقلب الأمر في ساعة واحدة ، وانتقل الريح فهبّ من الشرق . لم يكن ريحاً ، ولا نسيماً ، ولا عجاجاً ، ولكنه استعار قدْراً من كل ملل الريح . في البداية أقبل في

عجاج زاحف يسمّيه الصغار « مطايا الجنّ » . ذيول متلاحقة من الغبار تتصاعد في الفراغ ، وتتلوّى كأفاعي الادغال . تدحرج بذيلها كُرات من العُلّيق اليابس ، وتنثر حبّات الحصى في الهواء فتلتمع الذرّات في ضوء الجلاّد الأبدي بوميضٍ كإغواء هباء التّبر . تقتحم الوديان لتراقص عمامات الطلح ، أو تداهم الحلفاء لتنتزع من رأسها السخيّ اعرافاً لميسة، تتلوّى بها في زحفها ، فتكوّرها ، وتبدع منها قطعة مستديرة ، تدحرجها على التراب ، أو ترفعها إلى أعلى ، وتضعها فوق رأسها حيناً ، أو تلقي بها إلى اسفل فتتدحرج الكرة على امتداد الجيد بمهارة ساحرة داهية ، وقد تلقي بها بعيداً، وراء شجرة ، أو خلف جلمود ، لتتظاهر بشقاوة أنها تخلّت عنها ، ولكنها لا تلبث أن تنحرف قليلاً ، وتمد لساناً لعوباً لتخطفها من هناك ، وتتركها تتنقّل بين الأطراف ، من الاسفل إلى أعلى ، ومن اعلى قمة إلى اسفل حضيض ، ولكنها تتشبّت بها ككنز نفيس ، ولا تتخلّى عنها أبداً ، مهما طوّحت بها إلى الاحراش في البُعد ، كأنّها دمية لا يمكنها الاستغناء عنها ما لم تعبر المسافة ، وتقطع الصحراء طولاً .

تتابعت « مطايا الجنّ » كرسل المجهول . ثم توقفت أيضاً ، واستعاد السكون سلطانه على الصحراء . ولكن سلطان السكون لم يدم طويلاً . فبدأت الأنفاس تهب على الوادي من الجهات الأربع . انفاس عنيفة ،

متقطعة ، متذبذبة ، كأنها لم تهب اختياراً ، ولذا لم تملك أمر نفسها ، ولم تعرف من أين تأتي ، وإلى أين تذهب ، لتبلّغ الرسالة . أستمرت تهب في موجات حائرة ، محمّلة بغبار تارة ، وتزعق بأصوات منكرة تارة أخرى ، حتى أقترب المساء . تنحّت أخيراً ، وتخلّت عن الصحراء لقادم خفيّ كانت له استطلاعاً ورسولاً دون أن تدري .

تخضّب الأفق الممتد فوق شعاف الزعيم بغُلالة من دم ، واستجابت متاهة الفراغ التي تستلقي شمالاً بإيماء غامض كاد يجمع في الرسالة ألوان قوس قزح في مرّة. امتدّ لسان اسما نجوني في العُلا ، فهرع إليه لسان مدبب كلسان المِديَة ، مشطور ، في نهايته ، كلسان الحيّة . شطر بلون الرماد ، ولسان يتذبذب بين اصفر داكن ، وأحمر باهت . مضى اللسان المشطور ليلتقي قرينا بلون السماء ، فتظافرا ، والتحما ، ومدّا ، معاً ، يداً ، نحو الغلالة القانية التي تتسكّع فوق شعاف الزعيم . اكتأب الأفق الممتد جنوباً ، وتجهّم بمخاض عسير . تجمع فيه غيم هزيل ، لا لون له ، وفقد الصفاء في فراغ لم يكتمل فيه البيان ، ولم يتكلّم بـ «إيلو كّومَنْ» (*) بعد .

ولكن « إيلوكّومن» لأهل السّحر عيد . إذا تجهّم الأفق ، وتلوّن

(*) «إيلوكومن» : النبوآت ، العلامات ، الخفايا .

الفراغ بـ«إيزيارن» (*) وحقنت السماء وجهها بالدّم ، فإن الخفاء يتململ، والنبوءة لن تتأخر . فهل تُقرع طبول « إيجَنْ » (**) ، لأن الغزاة قد اقتربوا ؟ أم تُنحر القرابين ، لأن تيمسي» (***) هي التي تشتعل في الافق ، وتهدد القبائل بالفناء ؟ أم أن العين أصابها الزمان ، ونالت منها الشيخوخة فأغفلت الذّنب الشاحب ، الهزيل ، الذي اخترق العلامة ، خفْيَةً ، وتمدّد بين لسان النّار ، وسيل الدّم ، ليبشّر بـ « آنجي » (****) ؟

(٣)

اكتمل نزول العتمة ، ولكنه لم يدركها .

توقّف تحت طلحة بعد الغروب ، وهجع قليلاً . تطلّع إلى السماء فوجدها تغيب في الهموم ، وتدبّر « إيلوكّمَنْ » في الخفاء . توقّف تضارب الريح ، واستعاد السكون سلطانه من جديد . في البُعد أطلق ذئب جائع نداءاً فاجعاً ، ودبّ في احراش العلّيق المجاور هسيس مفاجئ. سمع انفاسه فحيحاً مزعجاً ، وما لبث أن غفا . لا يعرف كم استغرق

(*) «إيزيارن» : الغيم الهزيل .
(**) «إيجَنْ» : الغزو . الحملة .
(***) « تيمسي » : النّار . الجدب .
(****) «آنجي» : السّيل .

نائماً ، ولكنه ، عندما استيقظ ، وجد قمراً معلقاً فوق رأسه ، ملفوفاً في قماط كئيب . عند قدميه رسمت الفئران علامات أخرى ، فأدرك سرّ الهسيس الذي سمعه في الاحراش قبل أن يغفو . تثاءب ، تمطّى ، تمدّد في الفراغ كأنه ينوي أن يطير ، ثم انتصب ، ومضى .

تسامح الوادي ، وبدأت ابدان الجبال ، على الجانبين ، تتراجع ، وتتضاءل ، وتركع أرضاً . انعطف البطن شمالاً ، واتّسع المجرى . تباعدت فيه اشجار الطّلح ، وندر العلّيق ، واحراش « آشك مقّرن » . اختنقت جلاميد الصّلد في المرتفعات ، واكتست ظهور الروابي المتواضعة قطع حجرية تساوي حجارة جبال الحمادة حجماً ، وإن خالفتها في اللّون . حجارة فيها وداعة الاشياء الصغيرة وسرّها وأُلفتها وتواضعها . حجارة تستنكر صرامة الجلاميد ، لأنها لم ترفع هامة إلى السماء ، ولم تعرف الخشونة، لأنها لم تتكتّل في أبدان صمّاء ، ولم تتحلّ بالغموض ، لأنها دنت من الأرض ، فجاورت التّراب ، والماء ، وتطبّعت بمسلكها ، وتلقّت منهما تميمةً إسمها التسليم .

في المسافة التالية تغيّر تراب الأرض أيضاً ، فلان ، وغزته ألسنة سخيّة من تراب نال من الرمل نعومة ، واستعار من الطين الصّلابة . في رقعة بسيطة كالسّهل ، في الشطّ المجاور لحضيض الرابية الشمالية ، ارتفعت طلحتان متجاورتان ، متساويتان في القامة ، ومتعادلتان في

سخاء الاعراف ، كأنهما توأمتان ، أو قرينتان . بين الطلحتين ركعت النّاقة، ذيلها إلى الوادي ، ورأسها مشيّع في وجوم ، نحو الشمال ، نحو أفق تحاول عتمة قمر ملفوف في قماط الغيم أن تحجبه ، فيستيقظ الحنين ، ليصير عيناً ، لا تعترف بالمسافة ، ولا يصدّها إلى الحمادة ، حدّ الافق .

(٤)

عاند الجمال طوال السنوات التي قضاها في نجوع القبائل التي تتنقّل في الصحاري الجنوبية الشرقية . لم يعاند الجمال منذ أول يوم ، ولكنه وجد نفسه يعاند مخلوقات أكثر شرّاً في البداية . قام برعي المعز ، وعندما إطمأن إليه الأكابر ووثقوا بأمانته سلّموا له الإبل . ولكنه اقتنى جملاً قبل أن يسترعوه الإبل . استبدله بكل الأغنام التي كسبها من الرّعي ، فرأى منه الويل . كان عدبّساً ، أشعثاً ، كئيباً ، قصير القامة ، رماديّ اللون ، في نظرته خشونة حمَلَة الأثقال ، ووحشيّة حيوان لم تهذّبه الألحان ، لأنه لم يشترك في ميعاد الرقص كالمهاري ، ولم تشذّبه اليد النبيلة ، لأنه لم يمتلكه صاحب نبيل . في مشيه عنف الدهاء ، لأن السرج لم يجاور سنامه مرّة واحدة .

اقتناه فندم بعد أيام . لم يندم فحسب ، ولكنه لم يصدّق أنه هو من أقدم على هذه الصفقة المريبة ليسلّم في قطيع من المعز لقاء غول بشع، وأحمق ، وكريه . أيقن أنه وقع ضحيّة مكيدة سحر ، لأنّ إنساناً

يستبدل معزاً مقابل هذا المسخ المشبوه ، طائعاً ، لابد أن يكون قد فقد عقله وبصره معاً .

أبرم الصفقة مع راعٍ آخر استرعاه زعيم قبيلة مهاجرة تتنقّل في حدود الحمادة الشرقية ، فرأى الاستخفاف في عيون كل الرعاة . وكان يمكن أن يعتبر أنه وقع ضحيّة غشّ ، وينسى الأمر كلّه ، لو لم يكشف الغول الكريه عن معدنه بعد أسابيع . كان يحمل عليه الزاد والمتاع ، يتنقّل به وراء القطيع عندما يصير المرتع أرضاً مرتاً ، فيضطر أن يهجر المكان ويتحوّل إلى مرعى آخر . وقد عانى من فساد طبع الحيوان منذ أول يوم . جاء ليضع فيه اللجام فأشاح عنه برأسه بعيداً ، وزفر بضيق ضبّ حقود . ألقى إلى رأسه باللّجام ففزّ إلى أعلى وركله بصدره فترنّح وتراجع إلى الوراء . هرع إلى الامتعة وجاء بالعصا . توعّده فاستسلم وركع أرضاً . ولكنه استمرّ يتنفّس فحيحاً ، ويهرس اسنانه بصوت مسموع كأنه يمضغ ويجتر . في عينيه وعيد مكتوم . نفس النظرة المخيفة التي رآها في عيني ذلك الثعبان المدسوس في جلد جدي ، يوم المواجهة المميتة التي انتهت بمصرع الزعيم . ويبدو أن الغول بيّت له شرّاً في تلك المرّة . فما أن حاول أن يستدرجه للإنطلاق في المرّة الأخيرة حتى زلزل الخلاء بهدير كالرّعد ، وأخرج من فمه شقشقة في حجم الشكوة ، وأسقط فوق رأسه قطعة كبيرة من الزّبد، و..هجم عليه. حاول أن يلتقم

ساعده الأيسر فهوى عليه بالعصا . لم يتراجع . رفع رأسه إلى أعلى ، وداهمه بكل جسمه . تراجع إلى الوراء وركض في العراء . ركض وراءه . ركض طويلاً قبل أن يهرع لنجدته رعاة القطعان المجاورة .

حاول ، بعدها ، أن يستبدله بالمعز مرّة أخرى ، ولكن الرعاة سخروا منه فأطلقه في الخلاء . لم يعثر له على أثر من ذلك اليوم .

كسب جمالاً أخرى ، ولكن لسوء الحظ أنها لم تختلف في الطبع كثيراً عن الغول القديم . ادهشته شراستها وغرابة اطوارها ، واستغرب كيف يستطيع رجال أن يروّضوا هذه المخلوقات القبيحة ، ليخلقوا منها مهارٍ في رشاقة الغزلان ، ونعومة الحسان، ومرونة الحيّات . ولم يفهم السّر إلى أن التقى راعٍ عجوز حدّثه عن خصال النّوق . قال له أن الإبل كالخلق الصحراوي ، أيضاً قبائل ، ولكن الطبّع في سلالة الإبل يعاكس الطبّع في قبائل الإنس : أُنثى الإبل ألْيَن طبعاً من أُنثانا ، وذكورها أشرس طبعاً من ذكورنا . ومن أراد أن يكسب إبلاً فليكسب نوقاً لا جمالاً ، لأن من لم يهتم بتربية ناقة لم ينل في الصحراء سلطاناً ، لأنه لن يربّي ثروة ولا مالاً .

اعتزّ بالوصيّة ، واقتنى الناقة .

اقتنى النّاقة قبل أن يبدأ الاحتجاب ، ويعم الجدب الأخير ، بشهور.

٣٦- السّيْل

« ومن نكد الأيّام أن صروفها

إذا سرّ منها جانب ، ساء جانب »

شاعر عربي قديم

Twitter: @alqareah

(١)

استقام « آلّون » لمسافة طويلة . ولكن عنق الوادي ضاق ، فهوى القاع إلى حضيض أعمق ، وارتفع الجبلان، على ضفّتيه ، فبلغا السماء . في المجرى تصلّبت الأرض وتشقّق التّراب ، وتيبّس الطين في ألواح قاسية . تباعدت المسافة بين اشجار الطلح ، واختفت نباتات العلّيق و«آشك مقّرن » ، لتخلي السبيل إلى الجلاميد الصخرية الموحشة التي انفصلت عن الجبل بفعل الزلازل ، أو انتزعتها السيول المجنونة من السفوح ، ودحرجتها إلى القيعان ، فكادت أن تسدّ المجرى الضيّق الذي تحوّل إلى شقّ بين الجبلين . وبرغم التحوّل ، برغم المسلك الصارم ، برغم الجفاء القاسي الذي تطبّع به الوادي ، فأجلى العشب و« آشك مقّرن » ، وضيق على الشجر فتباعد الطلح ، وفرّت الحلفاء ، وضيّق على نفسه ، ليخلوا إلى نفسه ، خنق كل كائن غريب حتى اختنق بعزلته ، إلاّ أن الأسلاف لم يستسلموا ، ولم يهربوا كبقية الكائنات . لم يفزعهم ضيق الخُلق ، إلى حدّ بدا فيه واضحاً أنهم قرروا أن يتشبّثوا بسفوحه حتى لو اطبق عليهم وسحقهم بضفّتيه . « إدبنان» تسلّقت السفوح ، وازدادت ضخامة في الحجم ، كما أزدادت كثافة في العدد. وقد لاحظ طوال الطريق أن الأجداد انتقلوا إلى طبقة أعلى ، في

غزوهم للجبل بأجساد موتاهم ، بعد أن ضاقت بها السفوح السفليّة .
كما لاحظ كيف عظم حجم الحجارة التي أقيمت بها الأضرحة ، فكان يندهش دائماً كيف يستطيع الأسلاف أن يستدرجوا تلك الجلاميد الهائلة من قمة الجبل ليشيّدوا بها بيوتاً أبديّة لموتاهم . ولكن عليه أن يعترف أنه لم يجد أُنْساً في الوديان الموحشة إلاّ في جوارهم ، والبهاء الذي تلقيه المقابر في القيعان المخنوقة بكتل الصّلد ، هو ما يجعله يحتمل وحشة الجبل ، وجفاء الصّخر ، ويصير له ، في العزلة ، رفيقاً . فَقَد أجسادهم ، ولكنهم تركوا له في الوديان بهاءاً خالداً فشعر بهم يتنقّلون إلى جواره ، ولم يفقد رفقتهم ، ولم يتخلّوا عنه يوماً واحداً . في اليوم الأول لم يدرك الحُوار . فقد الأثر عندما تصلّبت الأرض ، ويئس من العثور عليه في المسافة التالية أيضاً ما أن انقلب مزاج الصحراء ، وتنفّس فيها العجاج . ولكن نَفَس العجاج لم يدم طويلاً . انقطع فجأة ، فتحدّث أفق المساء بأنباء أخرى .

(٢)

استيقظ مبكّراً ، فوجد السماء تتلثّم بغيم يمكن أن يقرأ فيه الساحر نبوءة ، ولكنه لم ير فيه علامة واحدة يمكن أن تنذر بالمطر . في الفراغ تسكّعت أسمال باهتة ، تميل إلى البياض ، وتتشتّت في مزق عابرة ، متباعدة ، ولكنها تبقى معلّقة في الفضاء ولا تمضي . كأنها تحوم في

المكان ، وتجاهد لتقول للأرض سرّاً ، بشارة نبيلة ، أو نبأ جليل . سكتت الصحراء أيضاً وخنقت في صدرها أُغنية السّكون . كأنّ الصحراء تستجيب للنداء ، وتتصنّت لتتلقّى النّبأ الخفيّ . ظنّ دائماً أنه قرأ الرقعة وأتقن فهم الصّحراء ، ولكنه كان يكتشف في كل مرّة أن الخلاء رقعة مجهولة مجبولة على الطلسمان ، لوح حجري موسوم برسوم الاجداد ورموزهم المحيرة ، تجتهد ، وتحاول ، وتفكّ رمزاً هنا ، ورمزاً هناك ، ولكن التميمة تبقى دائماً مغلقة ، بل وتفاجئك في كل مرّة بعلامة أخرى تتخفّى في رمزٍ ظننت أنه لم يفتك في المرّة السابقة . فما الذي تخفيه الصحراء في سكوتها، وتوجّسها ، وغموضها ؟ إنطلق فلامس وجهه نسيم مريب . هبّة عابرة ، خفيفة حتى أن الطلح تجاهلها ، ولم يتمايل استجابة لها ، والصحراء لم تكفّ عن تصنّتها المبهم . حفيف لميس حمل له الخبر همساً ، واودع في انفه النداوة سرّاً ، ولكنه أخطأ مرّة أخرى ، وكذّب النّبأ .

أعتلى أكمة سدّت القاع ، وعندما همّ بالنزول إلى الجانب الآخر، عقلته مفاجأة، وشدّته إلى الأكمة طويلاً : في امتداد الوادي تناثرت البعائر . تحت صخرة نحاسية عالية ، توقّفت النّاقة ، تواجه الشّط الممتد جنوباً ، ترفع رأسها عالياً كأنّها تريد أن تلاحق ارتفاع القمة الجبليّة، أو تتطلع إلى السماء المكتئبة لتقرأ نبوءة في اشتات الغيم . تحت

فخذيها أندسّ الحُوار وانهمك يرضع ، بنهم ، من ضرعين سخيين منفوشين بالحليب .

(٣)

تخلّى الحُوار عن الضّرع السخيّ . أخرج خطماً مبلّلاً بقطرات الحليب . تلذّذ باللعاب قبل أن ينفض النّثار بعصبية من أرتوى . تطلّع نحوه فلمعت مقلتاه الحكلاوان الذكيتان ، كعيني الغزال ، بإهتمام فُجائي . اطلق صوتا . غمغمةً . أنّةً مكتومة ، وركع في ناحيته مشمشماً الهواء كأنّه يناديه ليبشّره كيف وجد الوليد الضّال سبيلاً إلى الأمّ . رفع بورو رأسه إلى السماء فتلألأ فيهما الدّمع برغم احتجاب الشمس خلف الغيم . ثم نزل الأكمة راكضاً . احتضن الحوار بين ذراعيه وبكى بصوت مسموع . قال بصوت مسموع أيضاً :« إذا أرضعت النّاقة حُوارها الذي أنكرته وليداً ، فلا شكّ أن سيلاً سيأتي !» . تقدّم نحو النّاقة . تحسّس رقبتها بأصابعه ، فزفرت باستسلام دون أن تنزل برأسها من الشعاف البعيدة . دار حولها . جاءها من الجانب الآخر الذي تقف فيه الصخرة النحاسيّة سداًّ . أعتلى حضيض الجلمود . قبّل الناقة في أذنها . لامس عينها بشفتيه . عاد إلى الأذن . همس :« كنت أعرف أن في جفائك سر . كنت أعرف أن المعاد سيحين يوماً . كنت أعرف أن الزمان لا يقدر أن يجري بأمر مالم يحن الوقت » قفز إلى الأرض . عاد

إلى الحُوار . بدأ يجوس بأصابعه على صدره مداعباً ، فتمايل الحُوار منتشياً ، وضحكت مقلتاه طرباً . قال له ممازحاً :« وجب أن نخرج من الوادي . هل تدري ؟ إذا أرضعت النّاقة حُوارها الذي انكرته وليداً ، فلا يجب أن نأمن الوادي !» .

داعبه طويلاً ، واستغرقه اللّعب فغاب عن الصّحراء ، ولم يسمع دمدمة غامضة، بعيدة ، ولم يلحظ علامة أكثر غموضاً ارتسمت في الافق الجنوبي بخيوط من نار .

(٤)

عندما ايقظته الدمدمة الرهيبة ، وفزّ واقفاً ، ظنّ أنّ زلزالاً عنيفاً ضرب الوادي . سمع دبيباً خفيّاً ، نائياً ، وهو معلّق بين النوم واليقظة . دبدبة مكتومة تشابه دبدبة «بوشا» اثناء مطاردة « آمغار» . تضخّمت الدبدبة واسرعت في الإيقاع . صوت موحش له تلك النّبرة المعادية التي يقول السّحرة أن البراكين تتكلّم بها إذا تأهّبت بشقّ بطن الأرض . ثم خيّل له أن الأرض مادت حقاً ، ارتجفت فتداعى الجبل ، واطلق الحيد صخوراً مضت تتدحرج على السفوح ، وتهوى إلى الحضيض لتكتم انفاس الوادي . فزّ دون أن يقرأ تميمة ، فسمع حنحنة بعير . فتذكر . تذكّر البعائر . ليس البعائر ، ولكن الحُوار . انقدح في قلبه زند ، ورأى النبوءة في السّقَط . ارتجف خوفاً وقفز . بلغ الحُوار في الطُّرفة التي لمع

فيها اللسان المجنون تحت ضوء القمر الشاحب . حنحنت البعائر كلّها في وقت واحد . ادركت الخطر أخيراً واستولى عليها الخوف أيضاً ، فتراكضت بين الصخور ، وهرجلت في الإتجاه المضادّ للسيل . ركض خلفها ، وادركها . حاول أن يردّ القريع إلى السفح ، ولكن الجمل اطلق شكوى فاجعة ، وافلت . ترك الجمل وركض بأقصى سرعة . كانت الأم قد هرجلت أيضاً ، ولكنها لم تسبق وليدها إلاّ بخطوات . أمسك بالحُوار من ذيله فرغى بوجع . طرحه أرضاً وجرجره على الارض الطينية القاسية ، مصمّماً أن يقطع الوادي قبل أن يدركه اللسان.

ولكن اللسان كان أسرع .

تلقّى على ظهره لطمةً فظّة فترنّح ولكنه لم يسقط . شدّ الحُوار بكل ما أوتي من قوّة ، فدهمته في ساقيه موجة لها قوّة الصخر، فتعثّر وسقط . إنهال الماء على منكبيه فقاوم . دفع الماء بظهره فاحسّ أن دفع الماء له ثقل جدار صخري . ولكنه لم يستسلم . وجد نفسه يقبض على عليق قاس سخيّ بالشوك . انغرست الاشواك في راحة يده كالإبر ، ولكنه لم يعبأ بالألم . زعق الحُوار بصوت حادّ، فجرّه من ذيله ودافع عن بدنيهما بمنكبيه . أبصر صخرة عنيدة على مسافة خطوتين ، فاسترخى . جرفه المادر وطوّح به بعيداً . شلّته الفجاءة ، فلم يدرك ما حدث إلاّ بعد أن اكتشف أنه يتشبّث بنتوء الصخرة ، في حين انتزع

السفّاح من يده الضحيّة . دحرج الحُوار فتشكّى المسكين بخوار موجع. استرخى مرّة أخرى فجرفه . طوّح به مسافة أخرى ، تجرّع ماء ثقيلاً مخلوطاً بالطين والروث وحبّات الحصى . ولكنه وجد الحُوار إلى جواره، يتشبث بنتوء حجري بيد ، ويمسك ساق الحُوار باليد الأخرى . فكّر في ومضة واحدة، واهتدى بعقل عرف طبع السيل ، وخَبَرَ حيل الماء ، أن الحجر الوضيع لن يصمد طويلاِ . سيقتلعه السيل إذا وجد أن مخلوقاً يحتمي به ، وسيجرفهما مع الحجر البائس دفعة واحدة . السيل يبقى رحيماً في لسان الاستطلاع ، ولكن المفاجأة ستتبع ، والعنف يبقى مخبأً إلى حين . تفقّد أرض الجِوار .على بعد خطوات تتبدّى فروة طلح غرق ساقها تحت الماء .بعد الشجرة بخطوات أخرى يقوم جلمود مهيب يشيّع إلى السماء رأساً عالياً برغم الغمر السخيّ . سمع رغاء موجعاً ، خيّل له أن أحد الجمال تشكّى قبل أن يختنق بالماء ، ويسافر مع اللسان إلى المجهول . حاول أن يرفع رأس الحُوار حتى لا يختنق ايضاً بالماء ، ولكنه أدرك أنه يحتاج إلى ثلاث أيدٍ كي يفعل ذلك . فإن تخلّى عن الحجر واستعمل اليد اليسرى انتهز العدوّ الفرصة ورماه اللسان بعيداً، وإن تخلّى عن الذيل ، واستعمل اليد اليمنى ، اختطف منه المارد القربان ، وجرى به بعيداً . بقى مشدوداً بينهما كالأسير.

ارتفع مستوى الماء اشباراً أخرى ، ولكن النهر لم يزدد عنفاً . شدّ

الذنب إليه . شدّه بأقصى قوة ، والتقم خصلات الشعر باسنانه . عضّ عليها بكل ما أوتى من قوّة ، تحررت اليد اليمنى . تسللت بحذر ، حتى بلغت رقبة الوليد . تحسّس الوبر .تشبث بالوبر . لم يستطع أن يمضي باليد إلى مسافة أبعد ، لأن ذلك يهدّد باقتلاع الحجر . شدّ الوبر . تبدّى الرأس فوق الماء . غمغم الحُوار بصوت أليم ، صوت إنسان يختنق بدموع، وانشقّ الخطم واسعاً . انشقّ ليلفظ ماءاً ، أو طيناً ، وربما انشقّ ليشهق ، أو ليلفظ أنفاساً أخيرة . هجمت موجة جديدة ، عنيفة ، عالية ، فغاب الرأس تحت الماء ، وتخلّى عن الرقبة . انتقل بيده وتشبّث بالذيل . تحرّرت الاسنان واختنق بالماء المخلوط بالطين والروث والدّم . بصق الخليط ولكن الطعم المرير ، طعم الدّم ، بقي في لسانه. و.. واستولت عليه النّوبة . لا يدري عما إذا كانت شهقة الاحتضار هي التي ايقظت فيه الغول المجهول ، أم الطعم المرير ، طعم الدّم ،هو السبب . ولكن ما يعلمه أنه لم يشعر بشئ أبداً . لم يشعر بالسيل ، ولم يشعر بلسانه المارد ، ولم يشعر بثقل الحمل الذي يتمسّك به باليد الأخرى ، ولم يشعر كيف زأر كالسبع ،ولم يشعر كيف اندفع يخوض الماء ، ويعارك اللسان اللئيم، يجر الحُوار بيد ويدفع التيّار باليد الأخرى ، حتى احتضن ساق الطلحة ، ولم يتوقف ، بل زأر مرّة أخرى ، وخاض عراكاً أشرس مع الماء، حتى بلغ الجلمود . لم يقتنع بالنّصر حتى بعد أن احتمى بالجلمود ، فزأر بصرخة جنونية ثالثة ، طويلة ، طويلة، وارتمى يخوض الغمر

المجنون، حتى تشبّث بحجارة تتكوّم عند السفح . كل ما تذكّره في تلك النوبة أنه سمع لحناً لم يسمع له ، قبل ذلك اليوم ، مثيلاً . لحن شجيٌ ، بعيد ، بدأ انيناً جذّاباً ، ثم شرع يقترب ، ويقترب ويقترب . استجاب للحن ففزّ ليرقص . أراد أن ينهل من النبع ، فقفز ليرتوي . غابت الصحراء ، وتبخّر الغمر . اختفت الجبال ، ووجد نفسه في فراغ لا سلطان لسماء عليه ، ولا لإرض . ولا يعرف كم استغرق وهو معلّق بصخور ضريح السّلف بيد ، واليد الأخرى تتشبّث بجثّة الحُوار .

(٥)

عرف الحكماء من قديم أن الأمر اختلط على السحاب في الصحراء ، فغابت عنه حكمة الإعتدال . إذا ضلّ السبيل إليها ضلّ طويلاً ، وإذا عرف الطريق ، وأقبل ، فلا بد أن يُقبل مندفعاً إندفاع الغزاة، ويداهم الصحراء بلهفة عاشق طال به الحرمان فشاء أن يعوّض زمان الفراق الطويل ، أو ينزل بنهم ظمآن يريد أن يرتوى ، أو .. أو بعنف عدوّ يريد أن ينتقم ، فيخرّب ، ويغتنم الضّحايا ، ويجرّ الحجارة والخلق والمواشي في طريقه كأنهّم قرابين لا بد أن ينالهم إذا أقبل .

يقبل بسخاء ، ويظّل يصفع الأرض الظمآى بقطرات كبيرة تبدأ بحجم حبّات الحصى ، ثم تكبر ، وتتسع ، وتزداد إمتلاءاً ، حتى تصير

بحجم قطع الحجارة . يمضى السحاب في رجم المعشوقة بالقطرات التي تعادل الحجارة وزناً ، يرجمها ليلاً ونهاراً لا يتوقف ، لا يلتقط انفاساً ، لا يهب راحة ، بل كثيراً ما يتمادى فيرجمها بحجارة حقيقيّة. يزداد تكاثفاً وتلاحماً ، ويهبط إلى الاسافل درجات ليستطلع الأمر عن كثب ، فإذا رأى أن العطاء أكثر هُزالاً مما توقّع ، أو أن المعشوقة لم ترتوِ ، والتّراب يطلب المزيد ، لفظ حجارة في بياض الحليب ، وصلابة الصلّد، وانهال بها على رأس الخلاء . فيحفر بالجُود آثاراً يتخذها أهل الصحراء تاريخاً يخلّدون به مسلك السماء . فيقولون في رواياتهم : « عام البَرَد الاوّل ..» ، أو : «عام البَرَد الثّاني .. » ، أو « عام البَرَد الثالث ..» . ولم يعرف بورو ، ولا جبارين ، ولا بوشا ، ولا سكّان « آلّون العظيم » من أهل الخفاء ، أن يوماً من أيّامهم الوديعة سيصير خالداً ، لأن أهل الصحراء سيتخذونه علامة يستشهدون بها فيقولون في تاريخهم : « عام البَرَد ..».

نزل البَرَد في الأعالي بسخاء لم يشهد له « آزجر » مثيلاً في القرون القليلة الماضية . اختار رقعة معلومة في الصحراء وهطل طوال أيام . إختار البُقعة الواقعة بين تادرارت وتاسيلي وتارات ، وتعطّل في الفراغ المعلق في هذه الحدود ، وبدأ يفيض بجوده . كأنّه اختار

الصحراء التي اطلق عليها الأولون إسم « آزجر » (*) لسّر مجهول ، كأنه جاءها من الخفاء رسولاً ليقول لها أن السماء رأت أن تشملها برحمتها ،وتمسح عنها لعنة المنفى الأبدي أخيراً ، وتهبها عطاءاً لم تهبه لبقعة في الصحراء .

ازدحم السحاب ، وتكاثف . أنهال في الأعالى مطراً بحجم كفّ اليد ، ثم تحوّل بَرَداً ، ورجم الخلاء بأنصع انواع الحجارة . رجمها طويلاً ، حتى أن الرعاة الذين شهدوا العجَب ، وتخفّوا في الكهوف فزعاً ، قالوا فيما بعد أن الأرض كساها بياض بلون العهن الناصع ، أو الحليب الطازج ، وبقت على هذا الحال أياماً كاملة .

(٦)

أزال ألواحاً عن فم الضريح . أزال الألواح بنشاطٍ محموم . كأنه لم يغالب التيّار ، ولم يقهر المارد منذ قليل . كأنه لم يعبر غمراً مجنوناً عجزت في محاربته الخلائق ، واستسلمت له أكثر الصخور جسماً . وبرغم أن الاغنية اندثرت ، واللحن أبتعد ، إلاّ أن الحماس فيه لم يتغير ، والجذوة المجهولة ما زالت تشعل جسده بالحمّى .

فتح في الضريح فماً فوقف ليشاهد الجوف المظلم . عرف أن

(*) «آزجر» : المنفى . الضّلال . الخروج .

الميعاد قد حان ، فحاول أن يتباطأ ليؤخّر ساعة الفراق . طاف حول الضريح فصدّته أحجار بشراسة السكاكين . ولكنه لم يبال ، لأنه لم يعد يحس بأوجاع الجسد ، بل نسي أن يتحرّك ، ويدب ، ويقاوم بفضل الجسد . في الناحية الأخرى ، عند حضيض الضريح الاسفل ، تمدّد كائن مبهم ، كان بالأمس مخلوقاً وديعاً له قوام حسناء ، وعين غزال ، ووداعة الكائنات الوليدة . ركع بالجوار فعربد الغمر بغيظ، ورماه بحفنة من الزّبد . انحنى فرأى بريقاً في المقلة المكشوفة ، المفتوحة على الفراغ المعمّم بالسحب . و.. فجأة استجابت السماء . اشتعلت بضياء كاللّهب، فتحوّل الليل نهاراً واستطاع أن يرى ، في ومضة ، كل شئ. رأى الوادي وهو يضيق بالغمر الرّهيب ، وادرك أن اللسان الشرّة بلغ حافة الضريح ، وسيبلغ السفوح قريباً . رأى أيضاً في مقلة قرينه الصغير، تسليماً قاسيا. لا . لم يكن تسليماً ، ولكنه نبوءة أخرى أقسى وأفظع . رأى اللامبالاة . اللامبالاة الفاجعة التي لم ير لها مثيلاً إلاّ في سيماء السّماء .إنهار فوقه ، واحتواه بذراعيه . احتضنه حتى بصق في وجهه الغمر ، ورماه بلطخة من الزّبد . لحظتها قعقعت السماء فزلزت الجبل . خيّل له أنه سمع الصلد يتشقّق ، يتكسّر في الشّعاف العليا ، فتتدحرج الشظايا عبر السفوح . توقّف القصف ، فاستعاد التّيار سلطانه على الوادي . يندفع بجنون المردة ، يزبد كقريع هائج ، يدمدم بصوت مكتوم كأنه يخفي وعيداً مخيفاً .

حمل الحُوار بين ذراعيه . ابتعد عن يد اللّسان . وضع الحمل على حافة الضريح. انزله في الفم المظلم . أعاد الألواح ، وسدّ الفوهة . باغته اللسان وصفعه على قفاه . التفت فوجد أن السيل قد أرتفع مسافة أعلى، وبدأ يحفر ، بلؤم ، تحت قدميه ليصرعه أرضاً .

(٧)

احتمى بالتجويف الذي يقف ، فوق الضريح ، كسدّ مقوّس يرسم حداً يفصل بين السفح ، وبين الصّلد الصارم الذي ينتصب في قامات عمودية قاسية ، ملساء ، تمتد على طول الوادي ، وتتواصل في الشعاف النائية . اكتشف أن المطر كان ينزل بغزارة، والسفح يتدفق ويغذي بنات الأرض ، والشعاب تمتلئ فتصب كلّها في الوادي الذي يزداد ضيقاً بالماء كل ساعة ، فيدمدم غضباً ، ويتوعّد ، بصوته المكتوم ، أعداء المجهول . ادركه الزبذ سريعاً ، فتعلّق بسنّ حجري في رأس السدّ. بحث بيده الأخرى عن نتوء آخر ليعبر إلى أعلى ، طلباً لشقّ يعصمه من جنون الطوفان . ولكن السّدّ الأصم كابر ، وزاده البلل تسطحاً ، وجفاءاً ، وبلادة ، فوجد نفسه معلّقاً في الفراغ ، رأسه يجاور الصّخر ، وساقاه تتدلّى في الهواء . تنزّل كشف جديد ، فرأى هولا جديداً . أوقدت السماء نارها ، فاشتعل الفضاء بوهج أضاء الوادي بنور أسطع من ضوء النهار . رأى الوادي يختفي في الماء كلّه ، فأيقن أن الخطر ما

زال في أوّله ، فكيف سينجو إذا أرتفع الماء ، وفشل في إجتياز هذا السّدّ، هذا الفخّ ؟ تزلزل الجبل بقعقعة جديدة . تدحرجت من الشّعاف حجارة ، وتشقّق الصّلد في الصروح العليا . تخلخل السّن الحجري ، فتشبث بالصّخر بأظافر يده الأخرى . انقلع النّتوء ببطء ، وبدأ يتزحزح عن منبته . إنهار أخيراً وسمعه يسقط في الماء ويرطم . سمع أظافره أيضاً تعاند الصخر المعادي وتنزلق إلى اسفل . زحف جانباً ، حاول أن يستعين باليد الأخرى ، فأسرع يتشبّث بالصّلد الصارم ، وينشب أظافره في جلده البارد ، البليد، المعادي . ولكن أظافر اليد الأخرى لم توقف زحفه إلى اسفل ، إلى الهاوية، إلى اليمّ الذي سمع عن سيرته في اساطير الاوّلين ، ورآه ينزل الصحراء أخيراً . زحف . زحف . أطلق أنيناً عميقاً . أنيناً غريباً . آهة موجعة . انزلق . انزلق . تلقّف اللّسان قدميه العاريتين ، الحافيتين الدّاميتين . لم يختطفهما بالعنف الذي عرفه فيه عندما عاركه في عمق الوادي . ولكنه لامسهما بحنان ، غسلهما بالزّبد ، وبدأ يخاتل ، ويستدرج ، ويستعد لتدبير الكيد . اللئيم . ولكن البليّة أنه عجز في التوقف عن الإنزلاق ، ولا بد أن يناله كيد اللئيم إذا لم تحدث اعجوبة أخرى . غرق الساقان حتى الركبتين ، والزحف إلى اسفل لم يتوقّف . حول ساقه اليمنى التفّ بدن ناعم كالماء ، أملس كالماء ، لزج كالماء ، لئيم كالماء . أحسّ به يتحرّك ، يتململ ، يلتف حول الساق الذي انحسر عنه السروال ، حتى دبّر له طوقاً كالقيد . نزل مسافة

أخرى فدبّر له الماء طوقاً حول الرقبة . ادرك أنه سيختنق بالماء ويغرق إذا نزل عقله إصبع أخرى . أطلق انيناً جديداً . آهة مخيفة ، وحشيّة ، مكتومة. استنفر في بدنه كل عضلة ، وتحوّل جسمه كله إلى شوك ، وأظافر ، وأيد . تجرّع . تجرع ماءاً وفيراً في الطُّرفة التي اهتدى فيها إلى نتوء تافه ، يقع أعلى الحافة مسافة شبرين . تعلّق بالنتوء بكلتا يديه . بصق زبداً ، وماء كدراً ، و..خنفساً . بصق خنفساً صغيراً ، ميّتاً . خاله في بالبداية بعر بعير ، ولكن جسمه المدجج بدرع من الاسنان جرح لسانه فلفظه وتقيأ . لم يستسلم للغثيان طويلاً ، لأنه أحس أن بدنه يسترخي ، واطرافه تنهار كلّما طال الاحساس بالغثيان . داعب الطوفان رقبته وذقنه الذي تعرّى من اللّثام . كان قد نزع اللثام ، وطوّق به بطنه عندما بلغ الشطّ أول مرّة . أحسّ بالكتلة اللزجة التي تلتف حول ساقه ما تزال تتململ . سحب الساق إلى أعلى بحذر . ثنى الركبة ، ومدّ يده إلى الطّوق . بدأ يحرّر الساق من الحبل اللزج الذي تكوّم حوله كالطّوق . لم يشعر بالاشمئزاز ، لم يشعر بخوف ، لم ينتفض ، لم يفز ، لم يطلق صيحة .رفع يده فوجد أن الحيّة أنتقلت والتفّت حول معصمه . كانت ناعمة ، مرنة ، ووديعة . نال منها برد الماء ، فتراخت ، وتكاسلت ، وعجزت عن العدوان . أم .. أم أن العهد هو السبب ؟ ألم يقل له الساحر أنها لن تلحقه بأذى بعد ذلك اليوم ، ما لم يخلف للقِران عهداً ؟ ألم يقم بينهما قراناً ابديا ؟

غمرته موجة مفاجئة . انتزعت من معصمه الحيّة وجرفتها إلى مصير مجهول ، وزعزعته حتى كاد يتخلّى عن الحجر . أيقن أن الوادي الذي يضيق بالماء سيغمر النتوء قريباً ، فتصلّب، وأطلق ذلك الأنين الأليم، المكتوم ، الموجع ، وتمدّد إلى أعلى . انحرف في زحفه مع الصلد شرقاً ، لزم الصخر الممتد بمحاداة الوادي ، فوجد أن بدن الصخر ، هناك ، أكثر خشونة . زحف . زحف بعناد بطولي . ولكن الارتفاع في الأعلى كان منيعاً أيضاً ، فصدّه ، وأوقف زحفه . تعلق بنتوء مخلخل عرف أنه لن يتحمّله طويلاً . التصق بالصّلد كالضّب ، وهمد قليلاً . بدأت انفاسه تنتظم ، وعاد له العقل أخيراً . استعاد كل ما حدث في غمضة ، ولكنه لم يستطع أن يجيب عن سؤال واحد : ما الذي فعله حتى نال الجزاء ؟ أي إثم ارتكبه حتى استحقّ البلاء ؟ السماء لم تظلم الخلق يوماً ، والأرض لا تحول النعمة إلى نقمة بلا سبب ، فأين الخطأ ؟ أين ؟ أين ؟ أين ؟ . لم يطل به السؤال ، لأن المجهول الذي اخفى الخفاء ، وجعل في يده سلطاناً لم يمتلكه الخلاء ، شاء أن يلهمه الجواب في تلك اللحظة التي ضرب فيها الصحراء بضياء كالنّار، فانصعق الجبل وماد بالقعقعة . انحدر إلى اسفل ، ولكن الجواب في قلبه سطع . قال الإلهام أنه أخطأ مرّتين : مرّة عندما كبّل رقبته بالوعد أمام السماء وحنث بالوعد، ومرّة عندما زار المخلوق البائس في مغارته، ووعده بنصب فخّ شرّير للإيقاع بالإله !.

سقط إلى الماء فتلقّفه التيار . جرفه مسافة قصيرة ولكن سداً اعترضه فتشبث به. كوم من الحجارة . ألواح الضريح . تسلّق الضريح وأخرج رأسه . تجرّع ماءاً ،ولكن الإلهام ، الكنز ، القبس الخفي ، كان له عزاءاً ، فلم يتقيأ ، ولم يشعر بتعب ولا بغثيان . تمتم بذهول :« نسيت. نسيت . كيف نسيت ؟ في المرّة الاولى نسيت أن أنحر القربان للإله ، وفي المرّة الثانية انتويت الإيقاع بـ« آمغار » ونسيت أنيّ أريد أن انحر الإله» . ولكن السماء نالت قربانها بيدها واخذت مع الحوار القطيع كلّه. ولكن كيف السبيل لإستغفار إلاه الجبل ؟ الآن ، الآن ، فقط ، فهم سرّ تلك النظرة الخفيّة التي حد جه بها « بوشا » خلسة . الآن فهم أن الايماء في العين لم يكن شيئاً آخر غير الكراهية . نعم . الكراهية . فمن أين لـ « بوشا » الذي انتزع يوماً لسانه الوسيلة كي يعترض غير نظرة الكراهية ؟

اشتعل بحمّى جديدة . لم يسمع لحناً هذه المرّة ، ولكن الحمّى اوقدت ناراً في كل عضلة ، ففزّ. اطلق هديراً كخوار البعير عندما يذبح، وقفز . خاض مسافة في الماء. وربما استطاع أن يجتاز الغمر طائراً في الهواء . وجد نفسه ملتصقاً بالجدار . يتسلق الجدار . يتعلّق برأس الصّلد . أنبت يديه في الحجر الأصمّ وصرخ بأعلى صوت:

-آ-آ-آ-آ- مـ ـغـ ـأ-أ-أ-أ-أ- ر ....

رددّت الجبال النّداء بصوت جماعي جليل : « آمغار . آمغار .

آمغار ...» . سمع النداء يتنقّل من صلد إلى صلد ، ومن شعفة إلى شعفة، ومن كهف إلى كهف ، حتى صار وصيّة ابدية تتناقلها الأجيال .

تهيأ للإنطلاق في نداء جديد ، ولكن فيضاً جديداً تنزّل ، فرأى فيه قامة نبيلة ، غامضة نال منها الركض ، وتقوّست بسبب قساوة الطلب الخالد . انطفأ الفيض ، فتزلزل الجبل . انحنت عليه القامة الغامضة فتشبّث بها . أمسك القرن الجليل بيد ، وتشبّث بالعجيزة بيده الاخرى . تقافز الشبح . تنقّل على صخور الصّلد بمهارة لم يعرفها إلا من عرف الجبل ، وخُلق الجبل ، ليكون له وطناً . قفزة أخرى .وأخرى ، وأخرى ، ووجد نفسه فوق الشّعاف . فتح عينيه فتبيّن امتداد العراء الجبلي الفسيح. تراجع الشبح . تنقّل في العراء بخفّة الطير . نهض على ركبتيه . مدّ إليه ذراعين مشتعلين بالحنين . اطلق النداء :

–آمغار !

انحرف الشبح شمالاً . بلغ الشعاف ، اختفى .

اعاد النّداء :

–آمغار !

ثم جاءت السماء بفيض جديد ، فومض القلب بوحي جديد .

وقف على قدميه، لاحق الشبح بنداء جديد :

- بوشا ! بوشا !

تنقّلت الشعاف بالندّاء طويلاً . انهار أرضاً ، فسمع قعقعة الرّعد للمرّة الأخيرة ، وهوى المطر في السكون ، وهوى . استمرّ يهوى حتى استحال إيقاع سقوطه على الأرض أغنية .

٣٧- وَاوْ

« رُوي أنه كان في بني إسرائيل شاب عابد ، وكان الخضر عليه السلام يأتيه ، فسمع بذلك ملك زمانه فأحضره بين يديه ، وقال : إذا جاءك الخضر فأتي به وإلاّ قتلتك . فقال الشاب : ويحك أآتيك بالخضر ؟ قال : نعم ، وإلا قتلتك . فرجع الشاب إلى مكانه متفكّراً في أمره حتى جاء الخضر عليه السلام فحدّثه بحديث الملك فقال : إمضِ بي إليه . فلمّا دخلا على الملك قال له الملك : أنت الخضر ؟ قال : نعم . قال : حدثني بأعجب شيء رأيته . فقال الخضر عليه السلام : رأيت كثيراً من عجائب الدّنيا واحدّثك بما حضرني الآن . كنت في اجتيازي مررت بمدينة كثيرة الأهل والعمارة . سألت رجلاً من اهلها متى بُنيت هذه المدينة ، فقال : هذه مدينة عظيمة ما عرفنا مدّة بنائها نحن ولا آباؤنا . ثم اجتزت بها بعد خمسمائة سنة فلم أرَ للمدينة أثراً ، ورأيت هناك رجلاً يجمع العشب فسألته : متى خربت هذه المدينة ؟ فقال : لم تزل هذه الأرض كذلك . فقلت : أما كان ها هنا مدينة ؟ فقال : ما رأينا ها هنا مدينة ، ولا سمعنا عن آبائنا ، ثم مررت بها بعد خمسمائة عام فوجدت بها بحراً فلقيت هناك جمعاً من الصيّادين فسألتهم : متى صارت هذه الأرض بحراً ؟ فقالوا : مثلك يسأل عن هذا ؟ إنّها لم تزل كذلك . قلت : أما كان قبل ذلك

يبساً ؟ قالوا : ما رأيناه ولا سمعنا به عن آبائنا . ثم اجتزت بعد خمسمائة عام وقد يبست فلقيت بها شخصا يختلي فقلت : متى صارت هذه الأرض يبساً؟ فقال : لم تزل كذلك . فقلت له : أمّا كان بحر قبل هذا ؟ فقال : ما رأيناه ولا سمعنا به قبل هذا . ثم مررت بها بعد خمسمائة عام ، فوجدتها مدينة كثيرة الأهل والعمارة ، أحسن مما رأيتها أوّلاً ، فسألت بعض أهلها : متى بُنيت هذه المدينة ؟ فقال : إنّها عمارة قديمة ما عرفنا مدّة بنائها نحن ولا آباؤنا . فقال الملك : إنّي أريد أن أتبعك وأفارق مُلكى . فقال له : إنّك لا تقدر على ذلك ، ولكن إتبع هذا الشاب فإنه يدلّك » .

الإمام القزويني

«عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات »

(١)

من زمان طواه النسيان ، ولم يعد يذكره أحد ، كانت السيول السخيّة التي تتدفّق من الجبال الجنوبية ، تندفع لتصبّ في « تارات» .

من زمان طواه النسيان ، ولم يعد يذكره أحد ، كانت « تارات» رقعة صغيرة من بحيرة هائلة تحتل الهاوية الكبرى التي يرقد فيها ، اليوم ، بحر الرمال العظيم .

من زمان طواه النسيان ، ولم يعد يذكره أحد ، استدار محيط في وسط القارة الكبرى ، وطوّق نفسه بحدود صارمة ، صارت لها جبال الحمادة الزرق قوساً يغذيها بالمياه السخيّة من جهة الشمال ، وصارت لها الجبال السوداء ، التي حرقتها نيران البراكين ، قوساً ثانيا يغذّيها بالمياه من جهة الشرق . وصارت لها الجبال ذات الشعاف المربّعة التي تقف عسساً على وادي الآجال ، قوساً ثالثاً يغذيها بالمياه من جهة الشرق المجاور للجنوب . وصارت لها تادرارت وتاسيلي وتارات قوساً رابعاً يغذيها بالمياه من الجنوب ، ومن الغرب المجاور للشمال .

من ذلك الزمان الذي طواه النسيان ، ولم يعد يذكره أحد ، تطبّعت السماء بمزاج لم يعرف اللامبالاة ، ولم يتخلّق بعبوس السماء في

الازمنة الأخيرة . فكانت تتسامح ، وتعتدل ، وتجود بالماء في سخاء انقطع له النظير في كل الأجيال التالية . جرت السيول في أنهار لا تتوقف من شعاف الجبال التي تطوّق المحيط المستدير ، لتحفر في قلب الصحراء الظّامئ ، بحيرة هائلة من سائل السلسبيل . حول ضفاف البحيرة استوطنت القبائل ، واقبلت الأمم ، وتكاثرت القطعان ، وتناسل الخلق ، وعاشر بعضهم بعضاً ، فاجتمعوا ، وتجمّعوا ، وعرف بعضهم لغة بعض ، فغنّوا، ووضعوا اشعاراً تمجّد السماء ، لأن الإنسان لا يجد ما يفعله عندما يكون سعيداً إلاّ أن يضع الأشعار . ثم بنوا بيوتاً ، بيوتاً من القشّ ، ومن اعراف النّخل ، ومن الطيّن . من الطّين صنعوا فخاراً ، ومن العراجين اشعلوا ناراً ، فاستخدموا القدور وتفننوا في الطّهي أيضاً . ثم التفتوا إلى الأرض ، فاكتشفوا المعادن . اكتشفوا الحديد أولاً ، ثم النحاس ، فصنعوا من الحديد فؤوساً ضربوا بها الأرض ، وسكاكين نحروا بها العدوّ . ومن النحاس صنعوا المِدَى العجيبة التي أخافوا بها الجنّ ، ونصرتهم في حربهم ضد أهل الخفاء . ثم .. ثم بدأوا يدعون المقتنيات ، ويتبادلون المقتنيات . في المبادلة ظهر التّبر ، فلم يدم زمان طويل حتى أفسد كل شيء . كان معدناً لئيماً لم يعرف له أحد سرّاً . كما لم يعرف من اكتشفه . ويُقال أن الشقاء بدأ عندما آثرته النساء على بقية المعادن ، فسخّرن رجالهن لاقتنائه ، فتنافسوا في طلبه . اختلفوا ، تشاجروا ، تناحروا ، وقتل بعضهم بعضاً لاوّل مرة . نسي الاشقياء أنه

معدن بليد كالنحاس ، كالحديد ، ككل المعادن ، وسعوا في طلبه حتى نسوا أنفسهم ، نسوا الحياة ، وصار يوم الحصول عليه هو الحياة . شربت الأرض دماً ، فاستنكرت السماء وأشاحت عنهم خجلاً . نزل فيها همّ فشحبت ، وعبست ، ويئست . فسد المزاج فنضب الماء . توقّف المطر فتوقّفت الانهار التي ظن البلهاء خالدة . بدأت البحيرة العظيمة تتبخّر ، ولم يمضِ وقت طويل حتى سلّطت عليها السماء رسولاً أزالها من الوجود ، وغمرها بالتراب أجيالاً .

كان رسولاً مميتاً أقبل من الجنوب ، واطلق عليه الخلق إسم «القبلى» .

لم يتوقف القبلي إلا بعد أن وأد البحيرة العظمى ، فاندثر الوطن ، وتوارت «واو الكبرى» تحت التراب .

(٢)

في مسافة تمتد شمالاً ، على مسيرة يوم واحد ، إنطلاقاً من وادي الآجال ، تطلع للعابر اليوم بقايا البحيرة القديمة . تطلع فجأة ، في صلب بحرالرمال العظيم ، وتتلامع بحياة سخيّة لا تصدّق ، تنازع الشمس ، وتشاجرالقبلي ، وتستجدي سماءاً لا مبالية ابتعدت عن ارض الخلق

كثيراً منذ تخلّت عن جودها واشاحت عنهم . البحيرات الوديعة ما تزال تستغفر السماء ، وتتوسّل في وجوم خالد ما أن تفيض الشمس على الرملة بالشعاع ، والسماء لا تستجيب فتجود بمائها ، ولا تغضب فتخسف بها الأرض ، لأن البحيرات لابد أن تبقى لتكون دليلاً على المجد الزائل ، وشاهداً على بلاء اليوم .

(٣)

ليست البحيرات هي الدّليل الوحيد على المجد الزائل .

هناك عيون الماء التي استغفلت الرملة ، واستمّرت تتدفق في مواقع مختلفة من المحيط الدائري الهائل الذي كان وطناً لبحيرة الزمان القديم . جرت الينابيع ، فأغوت العابرين بمياهها ونخيلها فتوقّفوا عن العبور ، وحرثوا الأرض ، وابتنوا بيوتاً هزيلة من النخيل ، وعرفوا الاستقرار ، فقامت الواحات لأوّل مرّة . اطلقوا على الوطن الجديد إسم « تارجا » (*) ، وهو الإسم الذي استمّر يُطلق على واحات الصحراء الكبرى حتى هذا اليوم .

(*) « تارجا » أو « تارقا» : الينابيع . وهو الإسم الذي أشتقّ منه إسم طارجي ، أو طارقي ، واصبحت القبائل الوافدة تطلقه على قبائل الطوارق .

(٤)

كلّما رقّ قلب السماء ، واعتدل فيها المزاج ، ورأت أن تجود بفيضها ، لتسيّل المرتفعات ، وكلّما رأت القبائل كيف تتسابق المياه لتصبّ في وطن الزعيم ، تذكّروا المجد القديم ، وخنق صدورهم الحنين إلى « واو » وغنّوا الاشعار شوقاً .

يقولون : « من يدري ؟ علّ الزمان ينقلب من جديد ، فنجد انفسنا في واو يوما؟ » .

٣٨ - 

« رأيت المنايا خبط عشواء ، من تصب
تُمِتْهُ ، ومن تخطئ يعمر فيهرمُ »

زهير بن أبي سلمى

* * *

« الصحّراء تمتد وتتسع ،فويل لمن سوّلت له نفسه أن يستولي على الصحراء »

فريدريك نيتشه
« هكذا تكلّم زرادشت»

(١)

يروي أهل العقل أن الغزاة تدفقوا على الصحراء ، أول مرّة ، طمعاً في الكنوز السخيّة التي خلّفتها « واو » بعد زوالها ، وعثر عليها مغامرون كثيرون . يُقال أيضاً أن هؤلاء الاشقياء قد سبقوا إلى الصحراء بزمن طويل . جاءوا من الجهات الأربع ، جاءوا متنكّرين في مسوح المعتزلة حيناً ، وفي ثياب الدعوة إلى اعتناق النبوءة حينا آخر . نبشوا المدافن ، انتشلوا الرّمم من مقابر الاوّلين ، انتهكوا الكهوف ، حرثوا الدّمن ، طلباً للكنوز . استعانوا بسحرة مأجورين ، ووسموا الرّقع بمواقع الكنوز ، ثم بدأوا يتقاتلون، ويكيدون لبعضهم . تقاتلوا ، وكادوا لبعضهم بعضاً حتى هبّ عليهم «وانتكرباست» (*) كالإعصار عندما قرّر أن يستولي على الصحراء ويستأثر بالكنوز كلّها .

لم يعرف أحد من أين أتى ، ولكن جيشه ملأ الخلاء ، وقطع الطرق على القوافل ، ونهب الإبل ، واستولى على الواحات ، واستباح نساء الفلاّحين ، وأثقل الزرّاع والحدّادين والتجّار واهل كل الحرف بالمكوس ، وخططّ لاقتحام «آزجر» للنفاذ إلى طريق الادغال . فرّت

(*) « وانتكرباست » : صاحب القميص .

القبائل ، وتشتّت العشائر ، وانهارت التحالفات ، وعمّ القارة بلبال لم تعرف له مثيلاً منذ أقدم الأجيال .

كان يغير برجاله على المراعي المجاورة ، ويقتل الرعاة ، ويعود من الغزوات بأعداد وفيرة من الانعام . ينحر قطيعاً ويأكله على مائدة العشاء، ويشرب قُللاً سخيّة من « اللاقّبى» (**) ويفتضّ بكْراً حسناء كل ليلة ، ثم ينخرط في بكاء مرير ، لأنّه يخشى أن يموت في الليل ، فيطلب من رجاله أن يبكوا أيضاً قبل أن يحملوه إلى المخدع ، ويردّدوا معه نشيداً صار ، بالتكرار ، تعويذة : « الدّونيانّيت تمّنْدَا » (***) . ولا يجرؤ أحد في الحاشية أن يتوقف عن الترنّم بهذا النشيد العجيب ما لم يتأكّد أن مولاه قد غفا .

ولكن الصباح يأتي ببرهان مضادّ ، فينهض السلطان مبكّراً كأنه لم يغرق الليلة الفائتة في المجون ، كأنه لم يلتهم قطيعاً ، كأنه لم يعارك في مخدع العشق بِكْراً شهيّة . كأنه لم ييأس من الدّنيا ، كأنه لم يغنّ لها نشيد الوداع . ينهض أكثر عافية ، واقوى بدناً ، وأسمح مزاجاً ، وأكثر شهوة للإبكار ، وأكبر تصميماً على قطع دابر الخلق في الصّحراء .

(*) « اللاقّبى » : عصير النّخل المُسكِر .

(**) « الدّونيانّيت تمندا » : لقد عاش دنياه .

ويؤكّد الرواة أن سرّ قوّة ذلك المخلوق الفظيع تكمن في كلمات هذه التعويذة السّحرية التي استعارها من أحد السحرة ، وأدمن عليها منذ شبابه ، فوهبته القدرة على أن يموت كل ليلة ، ليولد في الصباح ، وقد نال حياة جديدة .

كثيرون أكّدوا أن ذلك الساحر الذي وضع التعويذة في رأس سلطان الغزاة لم يكن سوى الدّاهية « وانتهيط» الذي حقد على أهل الصّحراء وبيّت لهم شرّاً منذ أن اختلف مع الزعيم فلعنه أمام الوجهاء ، وطرده من مجمع المقرّبين ، وتبرأ منه ، وبعث رُسُلاً ليعمّموا خبر الخصومة بين القبائل .

(٢)

قبل أن يتولّى الزعيم زعامة « آزجر» أُبتلي بوباء مجهول فتخلّت عنه القبائل . لم تتخلّ عنه القبائل الأخرى فحسب ، ولكن تخلّت عنه القبيلة والعشيرة والأهل وأقرب الاقارب ، قبل أن يتخلّى عنه الاغراب ، وتبتعد عنه القبائل الأبعد قرابةً ، فوجد نفسه يعاند قدره وحيداً . ولو لم يتدخّل أهل الخفاء ، لو لم يهرع الجنّ لنجدته ، لأهلكه ذلك الدّاء الخبيث الذي أفزع أقرب الأقارب ، وأثار بلبالاً في القبيلة كلّها .

ورد في السّيَر القديمة أن الزعيم تمتّع بالخصال التي تليق بزعيم في

سنّ مبكّرة . كان في شبابه وقوراً ومكابراً مثل قمم تارات ، شجاعاً مثل جنّ ، نبيلاً كمعتزل حقيقي ، لا مباليا كالسماء ، صبوراً كالصحراء ، عاشقاً للصبايا ، وللأشعار ، كما يليق بكل فارس . ولهذا السبب قال الحكماء عندما صرعه ذلك الوباء اللئيم من دون الأقران جميعاً : «تهوط. تهوط آدي!» (*) وتهامسوا كثيراً عن سّر العين ، ومهارة المخلوقات الشريرة التي تتنكّر في كل جلد لتضرب الأخيار بالسّحر . سقط الزعيم بالحمّى ، وغاب عن الصحراء منذ أول يوم . لم يستمر عراكه مع الحمّى طويلاً ، لأن العقلاء الذين سهروا عليه ليلاً اكتشفوا ، في اليوم التالي ، أن بدن المريض بدأ يتحلّل ، ويتعفّن، ويسري فيه الموت. وقبل أن ينتصف النّهار دبّت في البدن ديدان ، وفاح الخباء بعفن لا يطاق . عفن كريه أصاب كل من استنشقه بالغثيان والصّداع . قالوا أنه عفونة الجثث ، فانتشر الخبر ، وأيقن كل الناس أنه هلك ، فاجتمعوا ، وقرّروا أن يتركوه ويرحلوا قبل أن تنتقل إليهم العدوى ، فتهلكهم ، وتهلك من جاورهم حتى تعمّ كل الصّحراء كما يفعل كل وباء .

وبرغم أن الزعيم كتم سرّه إلى الأبد ، إلاّ أن روايات كثيرة انتشرت في الصحراء ، وفسّرت للنّاس كيفية نجاته . ورأى فضوليون خبثاء في علاقته بأهل الخفاء سنداً دعم روايتهم التي تقول أن نفراً من

(*) « تهوط . تهوط آدي » : العين . إنها العين .

الجنّ أقبلوا عليه ما أن انفضّ من حوله الأقرباء ، وأعدّوا له ترياقاً من «آسيَار» (*) قتل فيه الدّاء الخبيث ، ولم يتركوه حتى تعافى ونهض واقفاً على قدميه . ولكن «آسيَار» لم يفلح في محو آثار المرضى المخيف ، فبقت بتور عميقة تنتشر على كل الأطراف المكشوفة من جسمه : كالانف ، والوجنتين ، واليدين، وحتى القدمين . ويروى كيف اعتقلته قبيلته عندما ظهر في النّجع أول مرّة ، فاطلقت عليه السّحرة الذين تكأكأوا على صدره يرطنون بتعاويذ بلغة مجهولة ، ويضعون المدى على نحره ظناً منهم بأنه ليس سوى قرين إبنهم الذي مات وأكله التراب، جاء إلى القبيلة لكي يفزعها ، وينتقم من أهلها الذين تخلّوا عنه يوم الاحتضار . وعندما أيقن الدهاة بعدم جدوى التمائم والأنصال ، لأن المخلوق الذي بين أيديهم إنسان من عظم ولحم ودم ، قيّدوه بالحبال ، وجرجروه إلى أقرب كهف . حبسوه في غار مجاور ، وسدّوا فوهة الغار ببنيان من حجارة . ولكن العائد ما لبث أن فاجأهم في ميعاد المساء، فسلّموا بتفوّقه ، وعرفوا أن في صدره ينام سرّ من أسرار الخفاء .

في تلك الليلة دعاهم زعيم القبيلة القديم إلى مجلس عصفت به الشورى ، وعلا فيه الجدل ، وتناطحت فيه العمامات للإستسرار ، وتناجى فيه الأكابر إحياءاً للتحالفات ، ووفاءاً لكل عهد قديم . ولم يأذن

(*) «آسيار» : يُعتقد أنه السلفيوم ، وهو نبات اسطوري انقرض من ليبيا في القرن الثالث ق.م .

الزعيم برفع المجلس إلاّ في الفجر . وقيل أنه فعل ذلك جريا لتدبير فاتت حكمته الأكابر انفسهم ، ولم يقفوا له على غاية إلاّ عندما ادركوا أنّه فوّت الفرصة على النساء لتتناقل النّبأ ، لأنهم لم يشاطروهن المخدع في تلك الليلة حرصا منه على سّر المجلس . كان الزعيم القديم قد بلغ من العمر سنّاً غاب عدد اعوامها عن كل الأحياء ، لأن أقرانه ومعمّري القبيلة كانوا قد رقدوا إلى جوار اسلافهم منذ زمن بعيد جدّاً . فكان يبكي كل ليلة حنيناً لملاقاتهم ، ويشتكي قائلاً : « من فقد الاقران عاش غريباً . من فقد الانداد فقد مات » . ثم يتوسّل الأكابر أن يقيموا له ضريحاً ويتركوه هناك مع قربة الماء عندما تنتقل القبيلة إلى المراعي في تارات مع حلول الموسم . ولا يعرف أحد لماذا رأى الأكابر أن يخالفوا بشأنه الناموس ، ويحملوا معهم في تنقّلات القبيلة ذلك البدن الهزيل مشدوداً إلى ظهور البعائر بالحبال كأنه حمل من الأحمال . وقال كثيرون أنهم لم يتركوه في ضريح الحجارة حيّاً كما قضى النّاموس، لأنهم لم يريدوا أن يفقدوا النّاموس . ويبدو أن المجلس الأخير وضع نهاية لعهد ، كما رسم بداية لعهد جديد . فبعد شهور فوجئت القبيلة بتنحّي الزعيم القديم وتنازله للفقيد العائد عن الزعامة .

(٣)

في مسلكه لاحظ الجميع تبدّلاً . لاحظوا التبّدل منذ أول يوم عاد

فيه إلى القبيلة. استعار في المجهول طباعاً أخرى إلى جانب خصاله القديمة . في نظرته استقرّ تسليم لم يعرفوه إلاّ في عيون من تعشّق الاعتزال ، وانقطع في الخلاء طويلاً . في حضوره رأوا غياباً لم يقرأوه إلاّ في صمت المعمّرين الذين يرون ما لا يراه الناس ، ويسمعون ما لا يسمعه الناس . في كلامه فوجئوا بلغة أخرى لم يتكلّمها إلاّ من جاور الخفاء ، وعرف سّر الموتى . قال بعضهم : « ما أجدره أن ينضّم إلى زمرة السّحرة ! » ، وقال آخرون : « ما أبعده عنّا، وما أقربه إلى أهل الخفاء ! » . وقال فريق ثالث : «ما ضرّه لو ترك شأن الدّنيا لأهل الدّنيا ، وانضمّ إلى أهل العزلة في الجبال ! » . ولكنه أذهلهم جميعاً عندما نكّل الغزاة بأهل الصّحراء ، واجتمع الأكابر في خباء المجلس ليدبّروا سبيل الفرار . أبدى يومها تصميماً على الحرب ادهش الفرسان ، وحيّرالعقلاء. تركهم حتى انتهوا من رسم خطة الهرب ، فتكلّم أخيراً . قال بحزم من يعرف ماذا يريد : « سنحاربهم! » . فقالوا : « كيف لنا أن نحارب عدوّاً هزم كل القبائل ، ونحر أهل الواحات ، وأعجز بدهائه السّحرة ؟» . قال بتصميم لم يجد له أحد تفسيراً : « ولكن الواجب يقضي أن نحاربه ! » . قال الأكابر : « لم يدفع الواجب يوماً بمخلوق واحد إلى التهلكة ! » . فقال بنفس التصميم : « كنت أظنّ أن تبجيل الواجب تقليد أوصى به النّاموس ، ولكن إذا كنتم لا تريدون أن تقفوا في وجه الغزو مراعاة للواجب ، فافعلوا ذلك تقديساً للناموس . ألم

يحثّنا الناموس على أن نحبّ الصحراء كما نحبّ الوالدين؟ ألم يوصنا بها خيراً كما أوصى بالوالدين ؟ ألم يقل «آنهي » : اطيعوها كما تطيعون الوالدين . ألم يقل أنّها نصف مكمّل للسماء ، وعليكم أن تعبدوه كما تعبدون السّماء إذا كنتم تطمعون في الفوز برحمة السماء ؟ ». تشاوروا. تجادلوا . تحاوروا . ثم تولّى الردّ أكبر الأكابر سنّاً . قال : «يُسعد المجلس كثيراً أن يسمع رجلاً أختاره بالأمس ، يحتكم إلى حرم الناموس اليوم . ويُسعد المجلس أيضاً أن يتحلّى ولي الأمر بحماس الأبطال ما أن قُرعت في القبيلة طبول الخطر . ولكن ما فات ولي أمرنا ومولانا هو أننا لم نختلق أمراً لم يقرّه الناموس عندما قلنا بوجوب الفرار . لأن ما غاب على مولانا هو أن الفرار من عدوّ يفوقنا سلطاناً هو شرع أقرّته الصحراء. والمعمّرون في هذا المجلس يستطيعون أن يشهدوا بأن الفرار قهر من الغزاة ما لم تقهره القبائل طوال حياتها في الصحراء . وقد جرّب اسلافنا أن العدوّ لابد أن يموت بالظّمأ ، أو بالوباء ، أو بالتّيه ، إذا تخلّت القبائل عن المواجهة ، وتركت له الأرض فراغاً . وأنت تعلم ، يا مولاي ، أن لا سبيل لعدوّ إلى الماء في أرض تُخفى فيها الآبار بحرص يفوق حرص الخلق على إخفاء الكنوز ، كما لا سبيل له إلى السُّبل ، لأنه لن يستطيع أن يأخذ أهل الاستطلاع أسرى من الخصم ليدلوه على الطرق ، إذا كان الخصم قد اختفى ولم يعدله وجود . كما لا سبيل له إلى المؤن لإطعام جنده ، لأنه لن يجد عدوّاً يغتنم منه الغنائم غصباً . في

حين لا يفوت مولاي أن أهل العدوان يزدادون شراسة في مقاتلة عدوّهم إذا جاعوا أو أصابهم ظمأ ، لأن إدراكهم لخطر الموت لا يزيدهم ، في القتال ، إلاّ قوّة . فلماذا تريدنا أن نخالف ناموساً ورثناه عن الاسلاف ، ونقاتل عدواً لا حول لنا به ؟ » بعدها حدث أمر كُتب على القبيلة ألا تنساه أبداً . بعدها اعتدل في جلسته ، وعدّل لثامه حول وجهه، ثم خاطبهم بكلمة أخيرة : « اعترف لكم أنّي لم أوتِ علماً في الجدل ، ولم أعرف أن فيكم سحرة يستطيعون أن يحاربوا الناموس الجليل بناموس آخر لا أعرف له إسماً ، فيقلبون الهّر أسداً ، والظّل مخلوقاً يسعى على طريقة السحرة الدّهاة . إذهبوا . فرّوا ! وسأعرف كيف أحاربهم وحدي !» . تهامس المجلس ، علت الهمهمة ، لم يصدّقوا فتجرأ أحدهم وسأل : « هل قال مولاي أنه ينوي أن يحارب الغزاة وحده ، أم أن الشيخوخة خذلت آذاننا مرّة أخرى فاسمعتنا شيئاً آخر غير ما كان ينبغي أن يُسمع ؟» . قال الزعيم : « يحزنني أن تكون آذانكم قد اسمعتكم هذه المرّة ما كان يجب أن يُسمع » أسدل لثامه على وجهه فحجب عينيه . علت الهمهمة وما لبث أن تحوّلت إلى ضحك . ضحك مُنكر ، كريه ، لم يعرفه المجلس يوماً . تواصل الضّحك وتحوّل مجلس العقلاء إلى إجتماع للرعاع . في ذروة هذا الجنون انتهزت يد آثمة الفرصة ، فامتدّت ، خلسةً ، ورجمت الزعيم بحصاة .

(٤)

حقّ لمجلس الحكمة أن يتضاحك ساخراً ، لأنّه لم يفهم ما عناه الزعيم بكلمة : «وحدي» . وقد أخطأ حتى الدهاة (الذين ابتدعوا الرواية وجعلوا منها لغة لمداواة الوحشة) في قراءة الرّسالة ، فوجدوا أنفسهم ملزمين بترديد الرواية التي ردّدها الجميع بعد تلك المواجهة بسنوات . قالوا أن الزعيم رحل إلى « تارات» ما أن التحقت القبيلة بالقبائل ، وفرّت إلى صحاري الغرب والجنوب . هناك نزل على أهل الخفاء ضيفاً وحدّثهم عن الخطر ، وإخلال القبائل بالنّاموس ، وغدر ضعاف النفوس بميثاق العهد القديم ، فاكبروا فيه الوفاء للوطن ، وعاهدوه أن يكونوا له جُنداً . قيل أنه خاطب خلاّنه القدماء الذين انقذوه يوماً من الوباء المميت : « هل سنحاربهم؟ » ، فتزلزلت الجبال كلّها ، وتحوّلت فيها الحجارة إلى رجال . زعزعوا الجبال عندما ردّوا بصوت واحد :«سنحاربهم!» قيل أنه قال : « هل ستعدّون معي العدّة منذ الغدّ؟» ، فتزلزلت الجبال كلها ، وتدحرجت حجارة السفوح التي تحوّلت إلى جند جبابرة زعزعوا الجبال عندما ردّوابصوت واحد : « بل سنستعد الآن . بل نحن على استعداد ، وما على مولانا إلاّ أن يأذن بالانطلاق ، وليتذكّر أننا لم نخسر في تاريخنا كلّه عراكاً ، لأننا لم نبادر يوماً بالعدوان » . في تلك الليلة دبّت الصحراء بالخلق ، وشهدت القارّة

زحفاً لم تعرفه في كل تاريخها الطويل . لأن أهل الخفاء إذا تحرّكوا استعاروا أبدان الحجارة ، وسيقان الطلح ، وشعاف الآكام ، وأجسام الحيوانات .

مادت الأرض ، وتعرّت الجبال من حجارتها وتحرّكت كل علامة قامت في العراء ، لتشترك في حملة الانتقام من أعداء الصحراء .

(٥)

فتك جند الخفاء بجيش الاعداء . ضربوهم بالاوبئة ، اخفوا عنهم الآبار فأهلكهم الظّمأ . باغتهم الريح فشتّتهم ، وقضى على فلولهم بالتّيه. لدغتهم الحيّات والعقارب ، وسلّطت عليهم الظلمات أيدٍ مجهولة ظلّت ترميهم بالحجارة حتى اندحروا ، وفرّوا ، ليحتموا بأسوار الواحة .

داخل الاسوار أيضاً انقلب الأمر .

فبعد أن كان « وانتكرباست» الرهيب ينام على لحون تعويذته السّحريّة ، تسلّل إلى قصره ساحر خفيّ قيل أنه من اصحاب القوافل ، أخرج للسلطان تبراً سخياً فاق سيوف الرملة وفرةً ، وأغدق عليه بأحمال المعدن اللئيم حتى فاز بقلبه ، وآثره على أعوانه ، وقرّبه إليه . أسرّ للساحر عن مصابه ، وحدّثه عن اللعنة التي نزلت عليه فأهلكت جيشه ، فعزّاه الساحر طويلاً ، ثم أعلن ، بلغة غامضة ، أن على

السلطان أن يقلب التعويذة رأساً على عقب إذا أراد النجاة من الخطر .
في الليل نحر السلطان على العشاء قطيعاً تضاءل في العدد كثيراً بسبب البلاء الأخير ، وعاشر صبيّة جديدة ، ثم أمر الأعوان أن يقلبوا التعويذة، فضحكوا . استبدلوا النواح بالضحك ، وزفّوا السلطان إلى فراشه ضاحكين وهم يغنّون : « الدّونيا إيكيت هاستجرز » (*) . ولم يتوقفوا .

بعد أيام اختفى الساحر المجهول ، وظهرت على السلطان أعراض الوباء .

(٦)

جرّب السحرة كل حيلهم ، ولكنهم لم يعرفوا للوباء سرّاً .

مضى السلطان يذبل ، ويهزل ، ويتضاءل . فقد الشهيّة للطعام ، وتوقّف عن معاقرة « اللاقبّي » ، واصابه من مرأى الحسان غثيان ، وتعلّق بالسكوت ، وراقب دنياه بنظرة غائبة . أرسل الاعوان في طلب السّحرة . ولكن السحرة عجزوا ، والحال سار من سيء إلى أسوأ .

إلى أن قرع باب القصر رسول مجهول . قيل أنه جاء رسولاً لـ«وانتهيط» . وقيل أنّ الزائر الغامض لم يكن سوى « وانتهيط» نفسه ،

(*) « الدّونيا إيكيت هاستجرز » : لقد بدأ يعيش دنياه .

جاء ليوبخ السلطان على غروره واستهتاره . اجتمع بالسلطان من وراء حجاب . ولكن الاعوان تجسّسوا فسمعوه عندما قال : « هل ظننت أن التباهي مزحة ؟ ألم تعرف أن السماء نفسها تموت غيرةً إذا رأت مخلوقاً سعيداً ؟ ألا تدري أن الخفاء ينزل أشدّ القصاص بأي أرض سُمع فيها صوت الضحك ؟ كيف سوّلت لك نفسك أن تخالف شرعنا وتستبدل النواح النبيل بالضحك الكريه ؟ يحز في نفسي يا مولاي أن أنبئك بأن القدر نفسه يعجز عن تبديل أمر جرى به الزمان ، فكيف بالسحر ؟ إنتهى كل شيء اليوم ، وعليك أن تعترف بأن زعيم الخلاء عرف كيف يهزمك فدسّ لك ساحراً أبطل سلطان التميمة بشرع الضدّ ، فأين المفّر ؟ لم يترك لك سيفك للاستسلام مجالاً ، والزعيم لن يرحمك ، فتشجّع واختم الأمر كما يليق بشجاع ! » . وضع بين يديه حجراً صغيراً بحجم حبّة النّوى ، حبّة تشبه النطرون ، قبل أن ينصرف . وما أن خرج الرسول حتى غرق السلطان في ضحكة مفاجئة ، عالية ، طويلة ، بشعة، فاقت ضحكة أرذل الرعاع قبحاً وخشونة . ثم توقف . توقف عن الضحك واستدعى الاعوان . طلب أن ينحروا الذبائح ، ويأتو بالأبكار ، ويحضروا كل « اللاقبى » الذي جاد به نخل الواحة . شرب ليلتها أكثر من أيّ يوم مضى ، ودخل على أكثر الأبكار حسناً ، وغنّى مع الاعوان أشجى المواويل . وعندما ادركه التّعب طلب أن يأتوه بالكنوز ، ويضعوا خزائن التّبر بين يديه . وكم كانت دهشة الاعوان

عظيمة عندما كشفوا عن الخزائن فوجدوا رماداً في سواد الفحم بدل التّبر . ناح الاعوان في حين عاد السلطان يكركر بتلك الضحكة الرذيلة التي استفزّت كل من سمعها من الاعوان . توقف مرّة أخرى ، وأخرج من جيب جلبابه حجراً بهيّاً في لون النطرون ، وبحجم حبّة النّوى . أذابه في وعاء مليئ بـ « اللاّقبي » ، وتجرّعه دفعة واحدة.

توجّه إلى الاعوان بكلمة أخيرة اكتشفوا ، فيما بعد ، أنها جمعت التعويذيتين المتضادتين في تعويذة واحدة . كانت كلمته الاخيرة بيتاً شعرياً قديماً يقول : « الدّونيا تجر زانغ تمّندا» (*) .

(٧)

في تلك الليلة كان الزعيم يجتمع بزعماء القبائل كلّها على مشارف الواحة .

لم يطل الاجتماع ، لأن الزعيم لم يتكلّم كثيراً . قال لهم أن الصحراء انقذت نفسها بنفسها ، ولكنها اعتادت الاّ تغفر بمن تنكّر لها . قال لهم أن الصحراء قد أخذت لهم عدوّها وعدوّهم أسيراً في قصر الواحة ، وما عليهم إلاّ أن يذهبوا ويطعنوه بالحراب حتى لا يروي الاغراب أنهم فرّوا من وجه المعتدي يوماً . قال لهم أيضاً أنه أختار

(*) « الدّونيا تجر زانغ تمّندا » : عندما راقت لنا الدّنيا ، وجدنا أنها انتهت .

«آزجر» منفى له لا ينافسه فيه أحد ، لأن الصحراء التي غفرت لهم انكارهم لها ، قد اختارته لتأخذ عليه عهداً بألاّ يجاور منهم أحداً ولا يرضى بتزعّم قبيلة من قبائلهم ، وعليهم أن يرحلوا إلى الاطراف ، ويحترسوا من نزول «آزجر» ، لأن آزجر قلب الصحراء . الصحراء هي التي رأت أن يبقى القلب خالياً . قال أيضاً أنه يستثني « كيل أولّي » (*) من بين كل القبائل ، لأنهم كانوا القبيلة الوحيدة التي لم تتخلّ عن الصحراء في محنتها ، ويتنازل للقبائل الأُخرى عن أرض واسعة : الواحات كلّها . الحمادة كلّها . الجبال السوداء ، مساك ملّت ، آهجّار ، آضاغ ، آير ، تينيري . وحذّر من جديد من المخالفة . ثم توارى . توارى في العتمة يهمهم حوله رهط من الجنّ.

(٨)

اقتحمت القبائل في تلك الليلة أرض الواحة . دخلوا القصر فوجدوا «وانتكرباست» ممدّداً فوق فراشه ، بعد أن فرّ الاعوان ، وتركوا القصر خاليا . كان ميتاً . ولكن الصدر كان مشطوراً إلى نصفين ، والقفص خالٍ من القلب .

(*) « كيل اولّي » : الرعاة .

تقدّم زعيم « كيل أولّي » وضربه برأس الحربة فأصابه في رقبته ، فصارت رقبة كل ذبيحة ، وكل أضحية أو قربان ، منذ ذلك اليوم ، من نصيب هذه القبيلة .

تقدّم زعيم « اوراغن» فناله بالحربة في جوفه . انتزع النصل فأخرج من الاحشاء كِلْيَة ، فصارت الكِلْيَة من كل ذبيحة ، أو اضحية ، أو قربان ، من نصيب هذه القبيلة . تقدّم زعيم « آهجّار» وضربه بالحربة في فخذته ، فصارت الفخذة من كل ذبيحة ، أو أضحية ، أو قربان ، من نصيب هذه القبيلة .

تقدّم زعيم قبيلة « إيمنغساتن» وأصابه بالحربة في القفص ، فصارت عظام القفص من كل ذبيحة أو أضحية ، أو قربان ، من نصيب هذه القبيلة .

تقدّم زعيم قبيلة «إيفوغاس» وضربه بالحربة في رأسه ، فصار الرأس من كل ذبيحة ، أو أُضحية ، أو قربان ، من نصيب هذه القبيلة .

تقدّم زعيم قبائل « آير» وضربه بالحربة في ساقه ، فصار الساق من كل ذبيحة ، أو أُضحية ، أو قربان ، من نصيب هذه القبائل .

تقدّم زعيم قبائل « آضاغ» وناله بالحربة في الجوف ، انتزع النصل فأخرج مصراناً ، فصارت المصارين من كل ذبيحة ، أو أُضحية ، أو قربان ، من نصيب هذه القبائل . أمّا القلب الذي اختفى قبل أن يقتحم

الزعماء المخدع ، فقد سبقهم إليه أهل الخفاء ، فصار القلب من كل ذبيحة ، أو أُضحية ، أو قربان ، من نصيب قبائل الخفاء .

(٩)

اقترن الزعيم بحسناء من قبائل الرعاة ، انجبت له إبناً وحيداً تحدّثت القبائل كثيراً عن الخلاف الذي نشب بينهما عندما شبّ الإبن ، وبلغ سنّ الرجولة . وبرغم الروايات الكثيرة التي تناقلها الشعراء والنساء وأهل الفضول وأكّدت أن الخصومة من تدبير «وانتهيط» منذ البدء ، إلاّ أن السبب الحقيقي ظل غامضاً . ويرى العقلاء أن الزعيم أراد أن يصلح ما أفسده بقرانه الأول من بنت الإنس ، فاختار حسناء من بنات الجن قرينةً . ولكنه ما لبث أن تركها أيضاً دون أن ينجب منها ذريّة . بعدها اعتكف في شعاف « تارات» السّفلى واعتزل لسنوات طويلة . رآه الرعاة وهو يتنقّل بين المغاور ، وسمعوه عندما يغنّي مواويل الحنين . وتحدّث كثيرون كيف كان يتوقّف عن الغناء فجأة ، ليَسّب ملة النساء بصوت مسموع ، وبألقاب لا تليق بالزعيم . ولكنه ما لبث أن عاد إلى وطنه في المغاور السفلى ، لينتشر خبر قرانه بحسناء أخرى من بنات الجنّ أيضاً . ابتهجت الرعيّة بالنّبأ ، وغنّت قبائل الرعاة أياماً فرحاً ، لأن الحزن كان قد عمّ «آزجر» كله عندما تناقل الجواسيس نبأ الدّاء الذي أصابه بعد فراقه لقرينته الثانية . وذهب كثيرون إلى أبعد ، فتشكّكوا في نوايا القومِ،

وقالوا أن القبائل لم تفرح ابتهاجاً بخلاص زعيمها المحبوب في حقيقة الأمر ، ولكن لأنه أعاد لأهل «آزجر» ، بقرانه الأخير ، ثقتهم في النساء. ذلك أن صدمة الزعيم في النساء مرّتين ما لبثت أن انتقلت إلى رجال القبائل كالوباء ، فأصابتهم بالهمّ واليأس والسويداء ، لأنهم اعتادوا أن يحاكوا زعيمهم الجليل ويتشبّهوا به في كل مسلك ، فتركوا قريناتهم أيضاً ، وعرفوا أوجاع العشق ، ففقدوا الشهيّة إلى الطعام ، وإلى الفرح ، وإلى الحياة . تركوا انعامهم للعبيد ، وتبرّأوا من ذرّيتهم ، واعتزلوا في الخلوات أيضاً . يغنّون مواويل الاشجان ، يتجسّسون على السكون ، ويتساءلون بدهشة البلهاء : ما نحن ؟ من أين أتينا ؟ لماذا أتينا ؟ إلى أين نمضي؟ وماذا ينتظرنا ، هناك ، إلى حيث سنمضي ؟

ولذا ظنّ الخبثاء أن أفراح القبائل بزفاف الزعيم هو فرح بعودة رجال القبائل إلى البيوت ، إلى النساء ، إلى الحياة ، لأنّهم جرّبوا أن التخلّي عن المرأة (حتى لو كانت بلاءاً يدب على قدمين) ليس زهداً في الحياة ، ولكنه تخلّ عن الحياة ! .

(١٠)

استدار الزمان ، فقلب المعلوم مجهولاً ، وجعل من المجهول علماً معلوماً . استدار الزمان فوهب التّراب عظام خلق كثير ، ونفخ في الظّلال الحياة ، فدبّت على الأرض مخلوقات العدم .

تكلّم السكون أخيراً فسمع المعمّرون البشارة التي حاولوا أن يدركوا سرّها طويلاً ، وسفحت السماء على الجبال بأمطار سخيّة ، وجرت الوديان بسيول وفيرة ، وعبر الجمل في سُمّ الخياط مرّات كثيرة، فرقدت الاجيال إلى جوار آبائها في أضرحة السفوح ، ونال الزعيم الاعياء ، وسئم العيش في الشعاف العليا ، ورأى أن يهجع أيضاً. ولكن الجنّ الذين سلمهم أمره منذ القدم ، ووضع بينه وبينهم عهداً ، رأوا غير ما رأى جلالة الزعيم .

لقد اطعموه بـ « آسيار» ما أن أحسّ بالوهن ، ونال منه تعب الزمان ، فتشافى ، واستعاد النشاط المفقود . ملّ وعرف السأم إلى نفسه طريقاً ، فسهر سحرة الجنّ على مداواته بالطواف . بعثوا له بالمردة ، وضعوه على محفّة محبوكة من أعمدة الطلح ، وحملوه في رحلة طافت صحراء الأرض ، وصحراء الماء ، ورأى ممالك لم ترها عين ، ولم تسمع بوجودها أذن ، ولم تخطر ببال بشر . ثم عادوا به ، في الغمضة التالية ، إلى مملكته في شعاف « تارات» .

كان الزعيم قد نالته الشيخوخة ، وأصابه الهرم ، وفقد أقرانه منذ زمن بعيد جداً . رقد انداده كلّهم ، ففاتح حاشية الجنّ بالأمر . قال لهم : « ألا ترون أن المناسب أن أذهب أيضاً ؟ ألا تقولون في ناموسكم أن الإنسان لا يجب أن يعيش عندما يعتقد أنه يجب أن يموت ؟ » . فتكلّم

حكماؤهم : « يصدق حكم مولانا على من شاء أن يلبّي أول نداء . ولكن الناموس يرى رأيا آخر عندما يتعلّق الأمر بمخلوق هاجر يوماً ، ونزل الأرض الأخرى . فهل يموت الإنسان مرّتين يا مولاي ؟ ألا يكفي مولانا أنه مات مرّة ، وارجعناه إلى « آزجر» بموجب ميثاق ؟ » . فلا يملك الزعيم إلاّ أن يبكي كالاطفال ، ويشتكي : « ولكنّي مللت ، مللت ، مللت الخلق ، مللت الأرض ، مللت السماء ، مللت وجودي بينكم ، أريحوني أخيراً ، فأنا لا أريد شيئاً إلاّ أن أموت ! » . فيجيبه حكيم أهل الخفاء : « هيهات يا مولانا أن نأتي أمراً يخالف الناموس ! ألم نقل لك يوم وثقّنا حلفنا بالميثاق أن العهد في لغتنا ناموس ، ولا أحد فينا يملك سلطاناً على النّاموس ؟ أم اختلط عليك الأمر ، وظننت أن فينا من يستطيع أن يبدّل الناموس على طريقة أهل الدّنيا ؟ » . كان الزعيم يتلوّى ويردد كل صباح ، وكل مساء : « أريحوني . أريحوني. لم يعد مللاً ما أحسّ به ، أنه ألم ! ألم ! ألم ! كيف لي أن أطيق استمرار الوجود إذا كان ألم الوجود قاسيا إلى هذا الحدّ ؟ » . يومئ الحكماء إلى الحاشية، فيأتي الخدم بجرعة جديدة من « آسَيَار » . يهدأ الزعيم ، يستعيد العافية المفقودة قليلاً . يعتدل في جلسته ، يمّرر يده اليمنى على معصمه الأيسر. المعصم المكسّو بضفائر عجيبة من الغضون . طبقة كثيبة كحراشف الضّب ، أو حبكة من حبال المسد . يبتسم بغموض فيأتيه الاعوان بالرقعة. يختم على الرقعة وسْماً بمسعر النّار دون أن يهتم برموز الرقعة ،

لأنه توقّف عن الاهتمام بفحوى الرّقع منذ زمن بعيد جداً . منذ هجر الشعاف السفلية ، وصعد به العمالقة إلى الكهوف العليا . يخرج الرسول حاملاً الرسالة للأجيال، للخلق ، للظلال التي تدب في الأسافل، في حين يتكئ الزعيم على جدار الغار ، ويبدأ في تمسيد يديه المستورتين بحبكة التجاعيد العجيبة .

(١١)

تتناقل الأجيال عن الأجيال كيف ابتعد الزعيم .

في الزمن الاول الذي أعقب تحرير الصحراء احتلّ شعاف « تارات» السّفلى ، وأقام هناك زمناً طويلاً ، ولكن معمّرون أخبروا أنهم كانوا شهود خروجه من الشعاف السفلية ، وصعوده الى الشعاف الوسطى ، حيث أقام زماناً أطول . هناك اعتزل حقاً ، ولم يخالط إنسياً أبداً . كان يبعث بالرّسل لتدبير شؤون الخلق ، ويفضّ المنازعات بين القبائل ، ويسلّط جنده لدحر القبائل التي بعث بها إلى المنفى في الصحاري المجاورة يوماً ، كما أقام عسساً في تخوم الصحراء لاستطلاع نوايا الغزاة . كان الرّسل يأتون بالرّقع ، والوصايا ،يرتدون لباس أهل الخلاء ، ولكن القبائل كلّها تعلم أنهم رُسل لا ينتمون إلى ملّة الإنس ، لأن الزعيم تخلّى عن اعوانه من السلالة الفانية منذ ترك الوطن السفلي ، وصعد مسافة أخرى في الجبل . ولكنه لم يتخلّ عن القبيلة تماماً ، لأنه

ترك ، في ذلك المقام ، اعوانه القدماء ليكونوا وسيطاً بينه وبين رعاياه . يرفعون إليه كل مظلمة أو شكوى أو التماس ، ليتلقّوا الجواب من خلال الوسطاء أيضاً . ولا يعرف أحدكم عاش « آزجر » على هدى هذه الشرائع ، كما لا يعرف أحد متى حلّ اليوم الذي خذلهم فيه الزمان ، لأنهم نسوا غدر الزمان ، فنشط أهل الفضول، وهمسوا بنبأ مريب ما لبث أن أثار في النفوس خوفاً ، وملأ الصحراء بلبالاً . قالوا : « آمغار يزارانغين » (*) . عمّ الفزع . قام الشكّ . تنقّل النّبأ وبلغ عسس الاستطلاع في تخوم الصحراء .

خيّم على آزجر الحداد . وابتهجت القبائل المجاورة ، وغنّت فرحاً بنهاية المنفى . تنادت من كل الاركان ، وزحفت على « آزجر» لتستبيح «تارات» ، وتنتهك وصايا الزعيم التي أبقت الارض حرماً محرّماً قبل حلول الموسم . ولكن بهجة القبائل لم تتم ، لأن جند الزعيم مالبثوا أن اوقفوا زحفها إلى الحرم ، وردّوها على اعقابها . لم يتأخر الرُّسل أيضاً ، جاءوا إلى القبائل بخبر يقول : « هيهات أن يموت مرّة أخرى ، من عرف الموت في حياته مرّة !» . وتوعّدوهم بالقصاص إذا تجاسروا وحاولوا المساس بالشرائع مرّة أخرى .

(*) « آمغار يزارانغين » : الزعيم سبقنا .

لم يُمسّ الناموس ، ولم تُخالف الشرائع . لأن أهل الصحراء جرّبوا أن أهل الخفاء يسومونهم العذاب ، كلما خالفوا للشريعة أمراً ، أو تحايلوا للإخلال بالنواميس القديمة، أو سوّل لهم الوسواس أن يكذّبوا بالرُّسل .

٣٩ ـ الشَجَرة

« كل واحد منّا زرع قصبة ، في وسط بيتنا زرعناها ، فإذا جفّت تكون إشارة موتنا » .

بوبول فوه
(الكتاب المقدّس لقبائل المايا)

* * *

« سألت شجرة اللّوز : أين اللّه ؟ فأزهرت شجرة اللّوز » .

نيكوس كازانتزاكيس
« المذكرات»

(١)

تحت الطلحة الوحيدة ، المكابرة ، اللامبالية ، تقلّب بورو . استلقى على جنبه الأيمن فأدرك أنه ولّى القرين قفاه ، فاستدار مرّة أخرى، وهجع على الجنب الأيسر . اكتشف أن عين القرين ، الآن ، في عينه ، ووجهه في وجهه . تنهّد بيأس ، ورقد على قفاه . هشّ ذبابة بدينة، لجوجة ، ظلّت تفاجئه بغارات غادرة طويلاً . قال :

- أنا الآن لا أملك شيئاً !

ابتسم جبارين ورفع رأسه إلى السماء . انتظره أن يتكلّم طوال أيام ، ولكن القرين ظلّ يحوم حوله متردّداً ، في عينيه شقاوة الأطفال ، في عينيه شقاء أهل الاعتزال . تكلّم عن غدر السيل ، ومسلك السحاب، وناموس الأرض والسماء ، والنعيم المنتظر في تارات . ولكنه تجنّب الحديث عن الخسارة حتى لا يأتي على ذكر الحبيب . فهل عبارته، الآن ، بداية ؟

استدار إلى الناحية الأخرى ، ورقد على الجنب الأيمن . توسّد ذراعه وهمد . لم يهدأ طويلاً هشّ الذبابة اللجوجة بغضب ، واستدار ليستلقي على ظهره من جديد. تابع الفراغ . غاب في سماء العشية .

كانت صافية ، عالية ، مسالمة ، بعيدة ، في بعدها صرامة ، لا مبالاة ، غموض ، قساوة . قساوة .. قساوة .

تكلّم :

- هل تذكر « وانتهيط » عندما نزل علينا ضيفاً ؟ لقد قرأ خبر السيل في العظم ليلتها ، وقال أن الصحراء ستفيض بالسيول ، ولكنه لم يقرأ النبوءة إلى النهاية . هل تدري أنه أخفى عنّا النصف الثاني من النّبوءة ؟ الدّاهية رأى الهول في اللّوح ، ولكنه اخفاه عمداً . الدّاهية قال « لماذا تريد أن تعلم أمراً يسيئك علمه ؟ » . لم يقرأ النبوءة في العظم وحده ، ولكنه قرأ نبوءة أخرى اخفيتها عنه في عظمة الجمجمة . هنا (ضرب جبينه بقبضته مرّتين) في هذه العظمة . قال أنّي أردت أن أذهب باللّوح إلى آخرين كي استخبر عن الخبر . والحقّ أنه كان على حق . ذلك الدّاهية . عرف أني عرفت أنه لم يقل من النبوءة إلاّ نصفها ، احتفظ بالنصف الباقي ليرحمني . ولكن هل تظن أن القدر يمكن أن يغيّر الأمر ، ويجري في سبيل آخر ، لو اخبرني ليلتها بالشقّ الثاني من النبوءة ؟ أنا أعرف أن التدبير معه لن يفيد ، لأن الناموس علّمني أن لا حيلة في الأرض ، ولا في السماء ، مع القدر تنفع . ولكنّي أردت أن أجرّب مسلك الدّاهية. فما ضرّه لو انبأني بالخبر كاملاً ؟ ألا ترى أنه بيّت لي شرّاً إذ أخفى عنّي البلاء؟ ألا يخالف ، بهذا المسلك ، ناموسه

الذي يقول أنه يفعل الشّر ، لأن الشّر لابد أن ينقلب بين يديه أخيراً إلى خير ؟ فأين الخير في أن انتظر السيل ، واتسوّل في العظام اخباره، حتى إذا أتى جرف إبلي ، ولم يترك لي حتى الحُوار ؟ ما فائدة أن أنال سيلاً وفيراً إذا كنت سأفقد الجمال ، إذا كنت سأفقد الحُوار ؟ وما نفع أن تصير « تارات» جنّة إذا كانت البعائر التي ستأكل العشب ، وجاء السيل من أجلها ليحيي السهول الميّتة ، قد هلكت بيد السيل نفسه ؟

استفزّته الذبابة في غارة جديدة ، فصفعها بعنف . سقطت أرضاً. حاولت أن تنجو ، فترنّحت وسقطت على الحصى ، من جديد . تحاملت وارتفعت في الفضاء ، وفرّت بعيداً .

قال جبارين :

– أخذ الإبل ، ولكنّه تركك . لا تنسَ أنّك نجوت من شرك لم ينجُ منه أحد ؟ ألا يكفيك دليلاً على الشّر الذي تحوّل خيراً أنّك نجوت ؟ أليست الحياة أنفس ما في الحياة؟

– صدقت . لو لم تغفر لي السماء حمقي لما بعثت لي «آمغار» ، أو .. أو نجله «بوشا» ، رسولاً ؟ . ولكن هل يسمي القرين الحياة بلا إبل حياة ؟ أم تظن أن السيل يأتي لكي يسعدني أو لكي يسعدك ؟ السيل الذي كفر بالخلق لا يأتي إلى الصحراء إرضاءاً لي أو لك ، ولكن

السحرة عرفوا من قديم أنه لا ينزل أرضاً لم يحفرها خفّ أو ظلف . وما دام جاء رحمةً بهذه المخلوقات وحدها ، فلماذا يسوقها إلى الهلاك ؟

– ها أنت تخالف النّاموس ، وتتدخّل في شأن الخفاء ، فاحترس !

– ولكنه أخذ الحُوار . السيل أخذ الحُوار .

– إحترس !

– لو ترك لي الحُوار! فليأخذ البعائر كلها ، فليأخذ كل شيء. ولكنه نهب الحُوار . انت تعرف أني نلت الحُوار بعد عناء عسير .

– يحسن بالقرين أن يتوقّف ، ويبحث عن عابر يستضيفه بالخبز والماء ليصير له قريناً . ألم تقل لي منذ أول لقاء أن كائنات الصحراء كلّها لك قرينة ؟

– ولكن الحُوار .. ربما لم يكن ليحرق جوفي بهذه النّار لو لم أُهلك حُواراً مثيلاً بالغناء في الطفولة . فهل خطف منّي السيل غزالي عقاباً لي على شرّي القديم ؟

– انتظر . السيل ترك لنا النّاقة . سيأذن الزعيم بدخول « تارات» قريباً ، وسوف نبحث في إبل القبائل عن قريع أصيل لينتج لنا من ناقتي حُواراً أبهى من الغزال !

توجّع بورو . تلوّى على التراب مرّتين . تطلع إلى السماء الصافية، المسالمة ، البعيدة . قال لها:

– الآن ، أنا حزين . هذا ، في الحقّ ، ما أردت أن أخبرك به عندما جرّني لساني اللئيم إلى الكلام أول الأمر ، لأنّي لم أعرف شيئاً كهذا قبل اليوم . فلماذا أنا ، اليوم ، حزين ؟

يئس فتخلّى عن السماء ، استدار وانقلب على بطنه . سقط برأسه على التراب واطلق صوتاً . في الصوت سمع جبارين أنين إنسانٍ يحتضر .

(٢)

دخل البعير أرض الصّحراء حاملاً مخلوقاً على ظهره ، وقرنين مخيفين على رأسه . جاع المخلوق فدبّ في العراء طلباً للطرائد . وجد قطيع الودّان يرتع في المراعي وادعاً . في ذلك الزمان كانت رؤوس الودّان عارية من القرون ، فلم يجد المخلوق مشقّة في نيل مخلوق أعزل أعدّ لها حراباً وسهاماً وافخاخاً . ولم يعد ليهجع في ظلال القيلولة إلاّ بعد أن جرّ نصلاً على النّحر ، وسفح دماً على الأرض قُربى . لم يقنع بنحر ما يملأ جوفه ، ولكنه رأى أن يُشبع جوفاً آخر لا يشبع . كان ينحر منذ طلوع الشمس ، ولايتوقف إلاّ عندما يختفي الجلاّد من سماء

الصحراء . ينحر ، ويسلخ ، ويطرح اللحم شرائحاً في العراء ليقايضها، مجفّفةً ، وينال بها بضائع أخرى من مخلوقات أخرى كانت تقطع الصحراء شمالاً وجنوباً ، شرقاً وغرباً ، ولا تتوقّف عن العبور . أصاب قبيلة الودّان فزع ، وخشيت من الانقراض والزوال ، فرفعت أمرها إلى ولي أمرها الجبل . أبقى الجبل رأسه مشيّعاً إلى السماء ، وأومأ إلى الجمل. نزل القطيع إلى السّهل ، وبحث عن السّر في رأس البعير . خاطب البعير قطيع الودان ، وقال : « المقايضة التي حمّلت المخلوق الشقّي على إبادة قبيلتكم ، فيها سّر بقائكم أيضاً . أعيروني خياشيمكم لأشمّ بها الرّيح ، وأتسقّط أنباء المطر ، وسأعطيكم قروناً تدافعون بها عن انفسكم ، وتورثونها لنسلكم من بعدكم . لن أخسر كثيراً إذا فقدت القرون ، لأني استسلمت للمخلوق ، وحملته على ظهري لأكون له دابّة لإسفاره علّني استطيع ، بذلك ، أن آمن شرّه . وسوف تكون القرون لكم سلاحاً تدافعون بها عن انفسكم ، وتقاتلون مخلوقاً صار لكم عدوّاً » . راق العرض للقبيلة الشقيّة كثيراً ، واستعارت من البعير قروناً مخيفة ، مقابل خياشيم تفتّش الرّيح ، وتقرأ فيه أنباء المطر .

(٣)

لولا هذه الخياشيم لما عرف الطريق إلى «آزجر» . لولا هذه الحاسّة لبطش به السيل الأخير . ما زال يتذكّر عندما حرّر ساقها من

العقال في وادي الآجال ، فانطلقت غرباً . أعادها إلى الموقع يومها ، ورأى أن يجرّب من جديد . جرّب ثلاث مرّات . ولكن النّاقة كانت تختار السبيل إلى «آزجر» في كل مّرة . كانت تشتّم السيول الماضية ، على ندرتها ، وتلبّي نداء لم يخطئ أبداً . كذّب العابرين الذين روّجوا لسيول لا وجود لها في مساك ، ومضى خلف النّاقة . كذّب الكذبة وصدّقها ، فأنقذته من الهلاك ظمأ ، وانقذت نفسها إذ فرّت من الجدب.

ولكن نبوءتها الأخير فاقت كل النبوءات . ولو لم تستدرجه للخروج من الوادي لرقد الآن في حضيض الجبل البعيد إلى جوار الأوّلين . لولا النبوءة لرحل ، ودخل الحرم للمّرة الأولى ، وللمّرة الأخيرة . لن يستوقفه عسس الزعيم ، لأنهم لم يتعوّدوا أن يستوقفوا من يدخل الحرم عاريا . المخلوق العريان وحده يستطيع أن يدخل الحرم دون أن يأتي بإذن ممهور بوسم الزعيم ، ودون أن ينتظر الميعاد الوحيد الذي يُرفع فيه التحريم عن الحرم .

تذكّر نبوءة ذلك الكاهن الذي زاره ليلاً عندما توسّد أكمة النّمل، وأخبره ، وهو يدير شارة تانيت بين يديه ، بأنه سيجد ناقته الضائعة . ولكن ألا يستحسن أن يقرأ النبوءة مقلوبة ، ما دامت الناقة هي التي وجدته وجرّته للخروج من الوادي جراًّ ؟ أم في النبوءة إيماء آخر ما زال خفياًّ ؟

(٤)

استيقظ بورو مبكّراً ، وتسكّع في الخلاء . صعد الروابي الممتدّة وراء الطلحة، من ناحية الشرق . لم يغب هناك طويلاً . عاد يحمل بين ذراعيه حزمة من الحطب . وضع الحزمة بحرص ، وانكفأ فوق الزّند . في الشرق تولّد في الأفق لون سخيّ . احتضر الأيماء الاسما نجوني الأول ، وقطب الخلاء بخبر مكتوم . في الزّند تولّد سقط . قفز السقط وتشبّث بخرقة الكتّان ، من خرقة الكتّان انتقل إلى القشّ ، في القشّ تمادى ، وصار ناراً . في لسان النّار توجّعت العيدان ، وقعقع الحطب ، فغنى اللسان ، ورقص في وجه الدّنيا طرباً . تململ جبارين بجوار الطلحة . اطلق بورو النّداء :

– يحسن بك أن تنهض ، ففي الأفق ، اليوم ، نبوءة .

ولكن جبارين أحكم الغطاء حول رأسه ، واستدار إلى الناحية الأخرى ، المواجهة للشجرة . ألحّ بورو :

– ستشرق الشمس ، وسيغيب النّبأ ، فاحترس !

اشتعلت نار أخرى في الأفق . زحفت علامة مبهمة ، وحادت بألواح قوس قزح في خط مستقيم . تمدّدت الألوان الأربعة في لسان كحدّ السيف المسلول ، على طول الحافة الصارمة الممدودة شرقاً ،

فتلاحمت الألوان الأربعة وأكتأبت في عتمة غامضة ، مدبّبة في حدّها الشمالي . أعاد بورو النّداء :

– ستشرق الشمس ، وسيضيع النّبأ . ألم يتوعّد « آنهي » الرعاة إذا ادركهم شعاع الصبح وهم في الفراش بين الغطاء والتّراب ؟

زحف جبارين أشباراً أخرى ، فاحتمى بجذع الشجرة . في تلك الطُرفة تبدّدت الألوان ، وتلاشى السيف المسلول ، فطلع لسان لعوب ، له مسلك النّار من وراء الحدّ .

هتف بورو :

– إذا أصابنا سوء ، أو نزل في السّهل شؤم ، من الساعة إلى يوم نخرج من الحرم، فستكون خطيّة في رقبتك ، لأنّك أنت من أهان النّاموس ، واستهزأ بالخفاء !

(٥)

قبل حلول الظهيرة جرّد بورو مديته من الغمد ، وتسلّق الجذع . غاب في الفروة العليا حتى اخفته الأعراف الكثيفة التي غذّتها سيول العام ، وزادها السيل الأخير سخاء واخضراراً . عاد من هناك حاملاً عرفاً كثيفاً بيد ، وقطعة من صمغ له لون العسل . ألقى بالعرف الكثيف أرضاً ، وقضم من قطعة الصمغ . أغمض عينيه مستمتعاً ، ثم قدّم النصيف

الباقي للقرين ، فاستفهم جبارين بإيماءة . أوضح بورو :

– هذه ستطرد شؤم الصبّح (وأومأ مشيراً إلى الصمغ) ، وهذه ستحمينا من شرّ الخفاء يوم القربان (وأشار بسبّابة يده الأخرى إلى العرف الملقى على الأرض) .

تطلع إليه جبارين بفضول . تساءل وهو يتناول الشقّ المتحجّر :

– هل قلت يوم القربان ؟

– يوم الميعاد قريب . علينا أن نستعد ، لأن الرُّسل يمكن أن ينزلوا السّهل في أيّ ساعة ، وسيتبعهم دهاة القرعة . وأنا أخاف الدهاة كما لا أخاف الشّريرة « تيرزازت». إنهم لؤماء فاحترس !

تفحّص جبارين القطعة ، تساءل بلا مبالاة :

– ولماذا ترى أن عليّ أن احترس ؟

تربّع بورو على الأرض مستظلاً بالشجرة . بدأ يشذّب الاعراف من الشوك ، ويقطع الحطب الأخضر في عيدان صغيرة . أجاب القرين بلهجة إستنكار :

– هل يظنّ القرين أن الدّهاة سيشفقون علينا ، ويبعدوا ناقتنا من القرعة لأنّها وحيدة ؟

انحنى عليه جبارين . انحنى حتى لامس رأس بورو بطرف لثامه السفلي ، سكن أمداً . سكن طويلاً . قال بورو :

– لن آمن شرّ الخفاء ، ولن أنجو من كيد الدهاة إذا لم أعدّ لهم من أصابع طلحتي عيداناً للقرعة !

رفع جبارين رأسه ، تابع الخلاء . ركض حتى بلغ الأفق . صدّته المسافة فتعلّق بالسماء . رفع القطعة إلى فمه دون أن يتخلّى عن السماء . قضم . قطب . أغمض عينيه ضيقاً . بصق اللعاب باشمئزاز ، ورمى بشق الحجر الخفيّ بعيداً . بورو لم ينتبه . انتهى من تهذيب الاعواد فقام ليطرحها تحت الشمس لتجفّ . قال :

– إنّي أضحيّ بأصابع قرينتي ، أتفهم ؟ أصابع قرينتي لن تخذلني. قرينتي سرّ يا قريني ، وإذا كنت تشكّ فامهلني لأروي لك سيرة القِران . لقد وجدت في هذا الخلاء أكمة وحيدة عندما نزلت السّهل في المرّة الاولى . أكمة شبيهة بآكام الأثل . أكمة بشعة من اللّحاء، يطلّ من شعفتها جدع هرم ، سميك ، ظننت في البداية أنّه ميّت، ولكنّي وجدت أن في جوفه يختبئ نبت أخضر . لم أصدّق . أزحت اللحاء الفظيع حول النّبتة ، فوجدت أن العود يمتد إلى داخل الأكمة القبيحة. قرأت التعاويذ . قرأت تعاويذاً كثيرة يومها حتى استطيع أن آمن شرّ الجنّ ، ثم بدأت أزيح اكوام التراب . استعنت بالجمال ،

وحمّلتها اثقالاً من التراب في غرائر لأرمي به بعيداً عن ساق الطلحة المسكينة . القرين يعرف ماذا يعني أن تزحزح أكمة كريهة كآكام الأثل، وتنقلها من مكان إلى مكان . لقد أمضيت أسابيع وأسابيع متى ازلت ذلك الجبل الذي خنق الشجرة طوال أجيال وأجيال . تحررت الشجرة أخيراً ، ولكن الساق كان في ضعف وليد رضيع . وضعت حوله قماطاً بلثامي ، وسرت في الصحراء حاسر الرأس . سخر منّي الرعاة ، وداعبني أهل الخفاء ، في الليل ، بالشوك في رأسي . جلبت الماء من أبعد الآبار ، وجعلتها ترتوي بعد عطش الأجيال . ولو لم افعل ذلك لما وجدها قريني شجرة في بهاء الحسناء ليستظل بها في القيلولة ، ويستعيد منها الأصابع التي سيجري بها الدّهاة قرعة القربان يوم الميعاد .

ابتسم وتطلع إلى القرين . كان جبارين ما زال تائهاً في البُعد ، يتنقّل ، مغضّن الجبين ، بين أفق صارم ، وسماء أكثر صرامة .

في الفراغ المزموم ، المشدود بين أفق صارم ، وسماء أكثر صرامة، تولّد شبح ضئيل كشعرة تتوثّب عند هبوب الريح . تململ الشبح دون أن يقترب أو يبتعد . تزحزح أخيراً فهرع إليه السراب . تضخّم وكبر في الحجم فصار بجسم ذبابة . تلقّفه السراب وبدأ اللّعب. شطره إلى نصفين تافهين . رمى بالنصف إلى أعلى وألحقه بالسماء العالية، الصافية ، السماوية ، لأن اللون السماوي هو لون السماء الوحيد

عندما تكون صافية .

اقترب الشبح . طار السراب فرحاً .

انقسم الشبح إلى نصفين متجاورين ، فلم يعرف جبارين عمّا إذا كانا منفصلين حقاً ، أم أن الانقسام دعابة جديدة من دعابات الكائن اللّعوب . أقترب الشبحان .

فارسان مجلّلان باللباس الأزرق . اللثام أزرق ، والجلباب أزرق ، والرّداء النبيل حول المنكبين أزرق أيضاً . يجلسان على مهريين ضامرين ، رشيقين كغزالتين .

أقتربا من الشجرة ، فأطلق أحد الجملين أنيناً عميقاً ، فغزا انفيهما رائحة العرق ، عرق المهاري عندما تقطع مسافة طويلة راكضة .

تنقّلا بكبرياء . برأسين مرفوعين إلى السّماء ، وانسجما في ركضهما المتجاور كبيتين شعريين ، كلحنٍ سماوي من الحان الاشجان ، كزغرودة شجيّة إذا انطلقت من حنجرة حسناء .

في الغمضة التي بلغا فيها الشجرة ، انكسر أحدهما يساراً ، ومال ثانيهما يميناً ، فحاصرا الطلحة المكابرة بينهما ، وسقطت ، في نفس الغمضة ، على رأس بورو رقعة جليلة . أخذهما رقص المهريين فغابا بعيداً ليتلذّذا بالأغنية ، ففاتهما أي الفارسين ألقى لهما بالرقعة . ولو لم

يشمّا رائحة العرق ، لو لم يركضا في ركض البيتين الشعريين ، لو لم يرحلا في الاغنية ، لما صدّقا أن فارسين أقبل عليهما في تلك الظهيرة ، ولأيقنا أن الرقعة الجلدية الجليلة ، المختومة بوسم الزعيم ، قد سقطت عليهما من السّماء .

٤٠- الرُّسُلُ

« لا توجد الأُكذوبة إلاّ بوجود الحقيقة . ولا توجد الحقيقة إلاّ بوجود الأُكذوبة . (....) الحقيقة أبديّة ، والأُكذوبة أبديّة »

تشوان تسى

« ملاءمة الأضداد »

(نص صيني قديم)

* * *

« الأمم الذين ليس عندهم النّاموس ، متى فعلوا ، بالطبيعة ، ما هو في النّاموس ، فهؤلاء، إذ ليس لهم النّاموس ، هم ناموس لأنفسهم ».

رسالة بولس إلى أهل رومية

(١٤:٢)

(١)

لم يتوقّف أهل الصحراء عن استقبال الرّسل منذ صعد الزعيم واحتجب في القمم العليا . كانوا يأتون بالوصايا موسومة بـ« تيفيناغ » على رقع الجلود ، وممهورة بعلامة الزعيم التي استعارتها (فيما بعد) قبائل العسس التي اوقفت نفسها على خدمة الحرم ، وسخّرت رجالها جنداً يقومون بحراسة حدوده من الجهات الأربع ، ويسدّون المنافذ المؤدية إليه ، وينزلون القصاص بأهل العناد والمخالفة ، ويتولّون الإشراف على جموع القبائل يوم الميعاد عندما يُرفع التحريم ، وتُفتح أبواب الحرم مرّة في ربيع كل حَوْل .

كان الرُّسل ، في ذلك الزمان ، ينتمون إلى الملّتين : ملّة الإنس ، وملّة الجنّ . فتهرع القبائل لاستقبالهم ، وتنحر لهم الذبائح ، وتقيم ، على شرفهم ، ليالي الغناء والفرح، وتنصب لهم الأخبية بعيداً عن المضارب ، ويأتيهم الأكابر والسحرة ليجتمعوا إليهم ، فلم يكونوا يفرّقون بين رُسل الإنس من رُسل الجان إلا بقدرة الملّة الأخيرة على التلاشي والإنتقال إلى الخفاء . وبرغم مواهبهم الكامنة ، وقدرتهم على التحوّل ، إلاّ أنهم تخلّقوا دائماً بخصال الإنس ، وحاولوا ألاّ يتباهوا بمواهبهم ، أو يُظهروا تفوّقهم ، ربما نُبلاً وربما تجنّباً لاستفزاز أهل الخلاء ، وربما التزاماً بشرائع سنّها لهم الزعيم . فكان النّاس يتلقّون منهم وصايا

الناموس ، ويفكّون رموزها بإجلال عظيم ، ليحفظوها في قلوبهم ليلاً ، ويهتدوا بضوئها في حياتهم نهاراً . يتباهون بحفظ النّصوص ، ويتبارون في العمل بأمرها . ينقلون نقشها من قلوبهم ليزبروها على الواح الحجارة ، أو صخور الكهوف ، أو في تمائم من جلود الغزلان ، مربّعة الزوايا ، أو مثلثة الاركان ، ليعلقوها في رقابهم ويحتموا بها من كل سوء . استعان السحرة بالوصايا أيضاً ، وردعوا بها أهل الضّلال ، وارهبوا اعداءهم من القبائل الأخرى ، وقوّموا بسحرها كثيراً من الأشرار . وعندما أيقن السّحرة بخيرها صاروا دعاةً لها ، ورأوا أن يحفظوها من التزييف أو التّلف ، فأمروا بنقل النصوص من رقع الجلود إلى صلد الصخور . فدوّنوها على جدران المخابئ ، والمغاور والكهوف.

ولكن لعنة أصابتهم ، ففسد هناء القبائل فجأة ، وتوقّف عمل الكهنة ، وتكلّم الوسواس في النفوس ، وضرب البلبال القبائل ، وزعزع الشكّ أركان الصحراء .

أُكتشف تزوير في الرّقع ، ووجدوا أنهم ينحتون في الجبال بدعاً أخرى لم يأت بها رُسل الزعيم ، ويتّبعون تعاليم مُنكرة ، دخيلة ، لاصلة لها بالوصايا الأُولى ، ويتباهون بامتلاك كنوز مزيّفة بدل الكنوز الأصلية. ولم يكونوا ليكتشفوا هذه البلوى لو لم يضربهم وباء مجهول فتك بالأنعام ، وأباد القبائل . نحر السحرة القرابين ، وذهبوا يتمسّحون بصخور « تارات » . هناك جاءهم الرُّسل ، وألقوا لهم بالنّبأ الفاجع: لقد

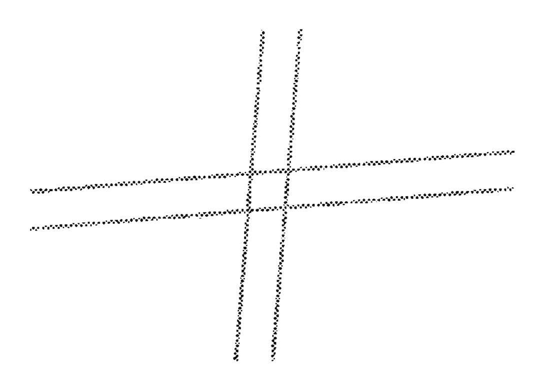
تخلّو عن الناموس القديم دون أن يدروا ، وركبوا الأتان خلف «وانتهيط» .

كيف ؟ متى ؟ من ؟ أين ؟

أجاب الرُّسل على اسئلتهم بصبر الرُّسُل . قالوا أن رُسلاً كذبة ارتدوا مسوح الرُّسل ، وزوّروا الختم في الرّقع ، واقبلوا عليهم بالبلاغ الكذب . ولكن كيف السبيل إلى معرفة ختم الحق من ختم الزّور ؟ من أين للخلق أن يميزوا بين علامة الصدق ، وعلامة الكذب ؟

اختفى الرُّسل زمناً ، ثم عادوا بالجواب .

قالوا أن الزعيم رأى أن يقلب الدليل ، ويبدّل العلامة . سينتقل الختم القديم ، سينتقل التقاطع المرسوم بوسم مزدوج لتمييزه عن شارة « تانّيت» :



من الرّقع الجلدية ، إلى إيماء في عين كل رسول .

منذ ذلك اليوم بدأت النجوع تحدّق في عيون الرّسل ملياً لتقرأ العلامة ، قبل أن تتلقّى الرسالة من فم الرّسول .

انتهت الرّقع منعاً للزيف ، فانتهى ، في الصحراء ، بانتهائها ، دهر، وبدأ ، منذ ذلك التاريخ ، دهر جديد .

(٢)

ولكن « وانتهيط» عرف ، في الزمان الجديد ، كيف يزوّر ختم العين أيضاً ، فدفع الى الصحراء بسيل من الرّسل المزيفين الذين يحملون للقبائل ختم الزعيم في العين ، ووصايا « وانتهيط » في اللسان . شكّك البعض في صدق التعاليم ، ونبّهوا الأقوام إلى الخطر ، فسلّط عليهم الساحر القديم اعوانه ،وألّب ضدّهم أقرب الأقارب، فنكرهم ابناؤهم وذويهم ، ورجمهم أهلهم بالحجارة ، فخرجوا من النجوع ، وأقاموا في الكهوف ، واعتزلوا في أبعد الخلوات ، فسُمّوا معتزلةً ، وصاروا ملّة معادية لقبيلة «وانتهيط » إلى اليوم .

سار الخلق وراء « وانتهيط » زمناً طويلاً ، وقطع بالأقوام في ناموسه مسافة طويلة أيضاً ، مما أثار غضبة جديدة من غضبات الزعيم ، فسلّط على القبائل إعصاراً دفن مراعيهم ، وأمات انعامهم ، وغمر آبارهم بالغبار ، واهلك منهم خلقاً كثيراً . ادرك السحرة أنهم اقترفوا

خطأً آخر، فنحروا قرابينهم عند حضيض الحرم ، وتمسّحوا بحجارة « تارات » ، وتوسلوا أن يجعل الزعيم لهم علامة جديدة ليميّزوا بها الحق من الزّور . فبعث لهم رسولاً جديداً . رسول روت القبائل عن بهائه ووقاره الأساطير . كان مارد القامة ، نحيل البُنية ، وديع البصر ، يرتدي اللباس الأزرق ، ويتعلّق بالأفق البعيد . تكلّم بالوصايا فقال أن الزعيم يقول أن حنينه إليهم شديد ، شديد ، وليته يستطيع أن ينعم برؤيتهم عن قرب ، ولكن هيهات أن ينزل أرض « آزجر » من صعد إلى جبال «تارات » . ثم .. ثم صمت طويلاً . وعندما تكلّم من جديد كان جمع الأكابر الذي أحاط به يبكي بكاءاً مريراً . تكلّم مرّة أخرى فقال أن الزعيم ملّ الزّور ، أكثر من مللهم بالزّور ، وضاق بالزيف أكثر من ضيقهم بالزيف ، ولكن لا سبيل إلى قطع الزّور من الأرض ، لأنه لا توجد علامة تمتنع عن عدوّه وعدوّ الخلق .

سكت مرة أخرى فعلى النّحيب . ثم غاب في الأفق ، وكلّمهم من هناك : «الزعيم يخيّركم ، منذ اليوم ، أن تجدوا الطريق إلى الناموس بأنفسكم . لقد شاء أن ينزل الناموس في قلوبكم منذ احبكم ووسعكم بقلبه الكبير ، لأنه نزل في قلوبكم أيضاً في ذلك اليوم . ومن لم يجده في قلبه لن يجده في علامة ، لأنه لن يجده في أي مكان . منذ اليوم أنتم الرّسل ، لأن في قلوبكم حلّ الناموس »

اختفى الرسول ، فشيّعته القبائل بنواح فاجع .

(٣)

بالرّسول الأخير أيضاً كذّب المكذّبون .

قالوا أنه لم يأت بأي أعجوبة تثبت إنتماءه إلى الشعفة العليا ، أو قربه من الزعيم . وما وقاره إلاّ كبرياء قبيح يقرّبه من « وانتهيط » ، أكثر مما يرفعه إلى رحاب الزعيم . أما ادعاؤه بعدم وجود سبيل لقطع الزّور ، فهو زور آخر سوف يفتح للزيف باباً ، ويجعل له سلطاناً على الأرض . وإذا وُجد في الصحراء من صدّق نبوءته في اعتبار المحبّة هي العلامة ، بدل الختم المجيد ، فقد صدّق البدعة ، وخالف الناموس ، وارتضى أن يصير من اتباع الساحر القديم .

طاف النجوع مبشّرون كثيرون ، يكذّبون بما جاء على لسان الرّسول ، ويحذّرون القبائل من الوقوع في أشراك اشباهه من الرّسل . وأكّدوا أن لا مكان للخيار في شريعة الناموس ، وتنصيب القلب ناموساً بدل الناموس بدعة أخرى اختلقها أعداء الناموس .

اختلط الأمر على الناس مرّة أخرى ، وتكلّم الوسواس في نفوس الكثيرين ، وتزعزعت قلوب أهل الفضيلة بالبلبال . ولكن الرّسل لم يتوقّفوا . استمرّوا يتقاطرون على الصحراء ، فتستقبلهم القبائل بولائم الإكبار ، وتغنى على شرفهم أنبل الأشعار ، ويأتي لمجالستهم الأكابر والسحرة ، دون أن يعرف أحد يقيناً ، عما إذا كان يستضيف رُسلاً حقيقيين بعث بهم الزعيم ، أم أدعياء مزوّرين أرسل بهم الساحر القديم.

٤١ - الحَرَمُ

« وأنبت الرّب الإله من الأرض كل شجرة شهيّة للنّظر ، وجيّدة للأكل. وشجرة الحياة في وسط الجنّة ، وشجرة معرفة الخير والشّر . وكان نهرٌ يخرج من عدْنٍ ليسقي الجنّة »

التكوين (٢ : ٩ ، ١٠)

(١)

يتسكّع «آلوّن» مسافة تستمر شهراً ليأتي للحرم بالسيول .

ينطلق من «تادرارت» ، يتحايل على بنات الأرض هناك ، ويتذلّل، وينحني إلى اسفل حضيض ، لينال حظّه من الماء ، وينزل لحضيضٍ أبعد ، ليستولي على نصيب الشعاب والوديان الأخرى . لا يكتفي بهذا الحظّ ، فينحرف ، في مسيره ، غرباً ، لينال مكوساً من المياه التي تجود بها مرتفعات «تاسيلي» الغربية ، ويستأثر بقدر أوفر من سيولها، ويتنازل لقرينه «إيغهر ملّن» على نصيبٍ ، لا جوداً منه أو سخاء (فالاستئثار بأكبر نصيب من الماء هو الجوُد في شريعة الصحراء) ، ولكن لأنّ عليه أن ينحرف هنا، ويسير في الاتجاه الشرقي ، ويركع أرضاً ، وينزل اسفل حضيض ، ليستولي على مياه الرقعة الوسطى كلّها ، ثم يتلوّى عائداً ، إلى الغرب ، يتسع عند اقترابه من تارات ، ويدفع بالغنيمة السخيّة إلى السّهل المؤدّي إلى الحرم .

ما أن تتبدّى الشعاف المنصوبة في فراغ السماء ، ويرتفع عن ارض الصحراء جسم الحرم ، حتى يتباعد في الوادي الشطّان ، وتركع الجبال على ضفتّيه ارضاً ، وتستمر تتضاءل كلما اقتربت من «تارات»،

يتعرّى الوادي من الجبل المكابر ، ويتحوّل في السّهل الفسيح ، إلى هوّة وديعة ، تختفي في ألسنة الوديان المجاورة ، كما يختفي «إيغهر ملّن» ، ويتخلّى عن جباله أيضاً فيستلقي في الجانب الجنوبي الغربي ، ويدفع بخطّه من المكوس إلى حضيض الحرم .

الحرم يتلقّى مياهه كلّها من هذا الفّم السّخيّ . يرتفع الجبل الرمادي في قوس صارم ، مسطح القمم ، على طول الامتداد الشمالي الغربي . يقطع مسافة نصف دائرة، ثم يتمهّل ليترك مجالا لبنيان آخر ، من طينة أخرى . كتلة واحدة ، من صلد مرصوص ، تنهض فجأة ، من الاسافل ، وترتفع في الفراغ بلون نحاسي نبيل ، ولا تتوقف في سفرها نحو السّماوات ، حتى تتستر خلف غلالات غيم أبدي . يتشبه النّصب في جزئه السفليّ ، بقمّة القوس المسطّحة ، فيتسامح طويلاً ، ويجود بسفوح تنتشر فيها الحجارة ، والكهوف ، وقبور الأوّلين ، ولكنه يكابر ما أن يجتاز قمة الطوق، ويتجرّد من الحجارة ، ومن الكهوف ، ومن القبور ، ويعلو عاريا ، املساً ، صارماً ، لا مباليا ، كأنه يستعير خصال السماء. ويقال أن السفوح الموازية للجبل المسطّح ، هي التي اتخذها الزعيم وطناً قبل أن يصيبه الخلق بداء السويداء ، فهجرهم وانتقل إلى القمم العليا .

الصرح العمودي لا يرتفع إلى أعلى في نسق مستقيم أيضاً .

ولكنه ينحني غرباً إنحناءاً طفيفاً ، ويشقّ الفراغ مائلاً إلى أن ينقسم في الشعاف العليا إلى ثلاثة أعمدة ، تتسابق إلى أعلى مسافة طويلة أخرى . في إحدى هذه القمم يقيم الزعيم . في حين يؤكّد كثيرون أنه لا يقيم طويلاً في أيّ قمّة ، ولكنه يؤثر التنقّل بين القمم الثلاث تجنّباً للملل ، وفراراً من العلل المميتة التي تصيب كل من أقام في مكان أكثر من أربعين ليلة .

يستكين الجبل الرمادي حتى يجتاز حضيض الحرم ، ثم يمضي مزموماً كقوس مشدود ، ليبني بظهره سدّاً يحمي حدود الحرم في الامتداد الغربي الجنوبي . هناك يكفّ فجأة ، ليترك فوهة شاسعة ، تستقبل السيول ويحرسها العسس ، وتسلكها أفواج القبائل عندما يحين الميعاد ، ويبدأ الربيع ، ويأذن الزعيم بدخول الحرم .

(٢)

تدفّق الشعاع في الخلاء كسيل سخيّ ، فتسكّع السراب مبكّراً ، وهرع لملاقاة الظّلال الشاحبة التي جاد بها أُفق الصبح .

دبّ العراء المجاور لحدّ الحرم الجنوبي أولاً ، وتكاثفت في افقه الظّلال ، ثم تبدّت، من الشرق ، ظلال هزيلة ، تمزّقها ألسنة السراب ، ظلّت تجاهد ، حتى ماثلت الحجارة حجماً ، فبدا كأنّ كل ما في السهل

من حجارة قد تحرّك ، وأقبل إلى الحرم يسعى .

ابتهج السراب ، وتنقّل بين الجموع في شقاوة . يغمر جمعاً بالفيض السماوي ، يتخلّى ، يركض إلى جمع مجاور ، يصرعه أرضاً ، ويمحو ظلاله من مملكة الأفق ، يهرع إلى جمع في الجهة الأخرى ، يشطر هامات الاشباح أنصافاً ، يمزّق الانصاف اشتاتاً ، ويغرق الاشتات في غمرٍ بلون السماء .

الفرسان أول من دخل «تارات» .

اقبلوا متجاورين كبنات آوى ؛ يتلحفون باللباس الازرق ، يمتطون مهارٍ ضامرة ، تتوثّب للسباق ، وتحنّ لساعة الرقص ، فيستمهلونها بشدّ اللجام ، فتتلوّى الرّقاب حتى تلامس رُكبُ الفرسان ، فتلفظ الأنعام زبداً ناصعاً ، وتتشكّى بحنحناتٍ موجعة .

يشتدّ الحنين بأكثر المهاري ضموراً ، فيتمّرد على الفارس ، يتلوّى برقبته يميناً ويساراً ، يتملّص ، ويحاول أن يتملّص ، يئن ، ويئن ، مستعطفاً ، وعندما ييأس ، يستجيب للنّداء معصوب العينين ، فينطلق إلى الحرم مهرجلاً ، برغم رأسه المشدود إلى السرج ، وعينيه المرفوعتين إلى السماء . يهرجل مسافة قصيرة ، ولكن الفارس يلكز الرفيق بقدمه في رقبته المديدة ، يلكزه لكزات صارمة ، ويشدّ اللجام يميناً ، فيهرول

الرفيق ويستدير يميناً ، يقطع مسافة إلى الوراء ، ليعود إلى المكان الذي انطلق منه ، في الصفّ النّبيل الذي ينتشر على طول الأفق .

وراء الفرسان ، تتتابع طوابير القوافل .

القوافل التالية لا تلتزم ، في سيرها ، مسلك الجوار على طريقة بنات آوى ، ولا يجلس رجالها على المهاري الضامرة ، ولا يرتدون اللباس الازرق ، ولا يتنافسون في إظهار الوقار ، لأن جِمالاً تحمل على ظهرها الأحمال وهوادج النساء والشيوخ والاطفال لن تستطيع أن تحاكي المهاري ، أو تتباهى بضمور القوام ، دون أن تعجز عن رفع الاثقال . والرجال الذين يسيرون وراءها لن يستطيعوا أن يتشبهوا بالفرسان ، ويرتدوا ثياب الاحتفال ، ليجلسوا على السروج ، دون أن يتركوا الأحمال، ويتخلّوا عن الشيوخ والاطفال والنساء ، ويخلّوا بالنظام الذي رسمه الناموس . وإذا خُلَّ بالنظام الذي وضعه الناموس ، أختلّ الانسجام ، وهلكت القافلة ، وضاعت القبيلة .

خلف صفوف القوافل ، سارت قطعان الإبل في جيوش هائلة كأسراب الجراد ، يلاعبها السراب ، فيضيق بها الأفق ، ويغتّم ، حتى يتلّون بالعتمة . خلفها تناثر الرعاة بزمالاتهم الهزيلة ، واجسامهم النحيلة، يشيعون عصيّهم على مناكبهم ، ويرفعون اصواتهم بأغاني الحنين ، ويتنادون بين الحين والآخر بأصوات ، وحينا آخر بإيماء الأيدي.

استمرّ السهل يتدفّق منذ مطلع الصّبح حتى أكتمل نزول المساء .

(٣)

تملّك العراء بدر ، فخرجا .

سأل جبارين :

– ألا يجدر بالقرين أن يخبرني أين كانت الصحراء تخبّئ كل هذا الخلق ؟

في البُعد قُرع طبل : دَنْ – دَنْ – دَنْ ، ضربة ، ضربتان ، ثلاث . سكت . إيقاع الضربة الأولى أعلى نغماً : دنْ – نَ – نْ .. والايقاع الثاني اضعف نغماً : دن – ن .. أمّا الضربة الأخيرة فكانت بإيقاع مكتوم ، بعيد ، ما أن وُلدت حتى احتضرت: دنْ .. كأنها لم تكن إلاّ صدى للضربة الثانية .

تصنّت بورو . سكت طويلاً قبل أن يردّ على سؤال القرين :

– ماذا ظننت ؟ في الصحراء خلق يفوقون في عددهم عدد الخلق الذي سكن «واو» يوما .

انطلقا شمالاً . اعترضتهما طائفة من النساء . يتحركن ببطء الأكابر ، ويلبسن الأردية القانية كشموس الصبح . تركن في الهواء

عطراً مستعاراً من زهور الرّتم ، فتبدّى فرسان ، من جهة الغرب ، بلباسهم الازرق كأنهم فرقة الجنّ . ساروا في صف متجاور ، يمشون بخطوات أكثر بطئاً ، تتفاوت قاماتهم ، ثم تعود فتتساوى . يهمهمون بأصوات كهمس العشاق عندما يملأون آذان معشوقاتهم بأكاذيب العشق.

علا صوت الطبل ، فابتلع كل الأصوات . علا في مكان قريب جداً ، واستقام الإيقاع في لحن حقيقي : بم – بيم – بم . بم – بيم – ب – بم – بيم – بم . فزعق رجل في جمع الفرسان بحماس أهل الوجد .

قال جبارين :

– ظننت أن التّيه أباد ، والظّمأ أمات ، والاوبئة أكلت ، والأعاصير أهلكت ، والزواحف قتلت ، والسباع فتكت ، والقدر وقف بسيف مسلول حتى لا يتكاثر الخلق، فلا تبقى الصحراء صحراءاً .

صاح فارس آخر . وظهرت من ناحية الجنوب جموع جديدة ، شيوخ ، وصبيان ، ورعيان ، ورعاع .

قال بورو :

– لن تكون الصحراء صحراء إذا لم تُخف أكثر مما تُظهر . أنت ترى الخلاء عارياً ، ولكن وراء الأفق تختنق المراعي بالكلأ . انت لا تجد

الماء ، ولا ترى أمامك إلا سيول السّراب ، ولكن خلف سيول السّراب ، ترقد الغدران التي تخلّفت عن السيول، وخلف الصخور تكثر الآبار . أنت لا ترى الودّان ، ولكن الجبال تخفي في صخورها قطعاناً بعدد قطع الحجارة . أنت لا تبصر النجوع ، ولكنك تكتشف يوم الميعاد أن الصحراء كلها نجوع . أنت لا تبصر الجنّ ، ولكنهم يبصرونك ، ويخرجون لك متنكّرين في لباس العابرين وأصحاب القوافل والرعاة . يظن من يجهل الصحراء أنها عارية ، مكشوفة ، في حين تخفي في جوفها كنوزاً أعظم من التّبر . الصحراء ، ياقريني ، لا تحاكي الخفاء ، ولكنها هي الخفاء ! .

انتظمت دقّات الطبل . استقام اللّحن . ارتفع صوت انثوي ، شجيّ ، تتخلّله بحّة ممتعة . علت صيحات النشوة ، وارتفعت الأيدي لترافق الغناء بالتصفيق .

إنحرفا يساراً فتكاثرت الاحراش ، وهبّ عليهما نسيم نديّ محمّل برائحة التّراب النديّ والشجر وزهور النبات . في تلك الجهة سمعا قرعاً بعيداً على الطبول . لاقتهما جموع كثيرة ، واعترضتهم قبائل غريبة ، وسمعا ألسنة أخرى ، كأنها لغات لأمم أخرى ، فادركا أن الخفاء قد فتح لهما ، في تلك الليلة ، بابه . تنقّلا بين النجوع ، وتوقفا عند حلقات الغناء ، واستمتعا باللّحون ، والاصوات ، والرقص ، ووجوه

الحسان .

في السماء إزداد البدر بهاءاً ، وكمالاً ، وصفاءاً .

(٤)

في الصباح التالي عقلا النّاقة في أول مرتع ، وخرجا لاستطلاع أرض الحرم .

تباعدت الاسوار الجبليّة ، وانطلق الجدّ الشمالي بعيداً حتى كاد أن يختفي . خلّف وهاداً يغيّبها شجر كثيف ، ومروجاً يكسوها كلأٌ . تمدّدت المروج في صفوف متجاورة على مدى البصر ، وتقاطعت بمسلك مدهش في العراء المتاخم للشعاف العليا . في الجانب الآخر ، المجاور لجبل الزعيم ، هوت الأرض ، وركع التراب نحو الاسافل مسافة، فنبت شجر على الضّفتين ، وتلاحمت الأحراش في دغل . في مكان مّا، في جوف الدغل ، سطع وميض مفاجئ . اقتربا فشاهدا كيف يتطلع الغدير إلى السماء ، مستعيراً لون السماء . يستلقي تحت حضيض الجبل في وضع مستطيل ، تظلّله الاشجار من جهتي الشمال والشرق ، ويحتمي بصخور الجبل من جهتي الجنوب والغرب . ولكنه يمدّ لساناً لئيماً إلى الأمام ، إلى المدى الممتد إلى جهة تقع بين الشمال والغرب ، يستغفل جلاميد الصخر ، ويتحايل على الشجر الذي يندفع إليه ،

وينحني فوقه بلهفة العشاق ، وينسّل ، باللسان ، ويمضي . يمضي طويلاً قبل أن يبلغ غديراً آخر ، أكبر حجماً ، ينهال عليه لسان آخر بلون قبس الفجر ، ينطلق من أعلى شعفة الجبل ، ويسيل على السفح مسافة ، يلحس الصّخر ، ويكسوه بلون أخضر كالعشب ، وعندما ينكسر الجبل، ويتخلّى ، يهوي اللسان ، ويقفز في البحيرة مثرثراً برطانة مدهشة . حول البحيرة تكاثف شجر لم يعرفاه إلاّ في الواحات : تين ، نخيل ، كروم ، وشجر صحراوي أيضاً . سدر ، طلح ، حلفاء ، واشجار كثيرة أخرى لم يعرفا لها هوية ، واستغربا كيف استطاع الماء أن يجمع بين هذه الاجناس التي ظنّوا قبلاً أنها لا تجتمع على أرض واحدة .

في طرف البحيرة الواقع في حدّ بين جهة الشمال وجهة الغرب ، امتدّ جدول نحيل ، ولكنه مثابر ، فاستطاع ، بالمثابرة ، أن يشق الارض القاسية ، ويمضي إلى الأمام، في برطمةِ زعزعت جبارين ، فتطلع إلى الفيض في رأس الجبل مرّة أخرى ، والتفت إلى البحيرة ، ثم بحث عن الجبل البعيد الملفوف بغلالات غامضة ، زرقاء ، فوجده قائماً ، في نفس المكان ، مغموماً بنفس الغيوم ، بعيداً برغم القُرب . فهل استعاد الذاكرة أخيراً ؟ هل بطُل الطلسم ، وتبدّد النسيان ؟ هل سيسلك السبيل ، ويبلغ الجبل، ويقف بين يدي «الأب» القديم ، القديم ، الذي غاب وجهه كلّه في التجاعيد والغضون؟ هل سيسقط بجوار الشيخ الذي سار مع

الدائرة، فعادت به إلى المكان الذي انطلق منه ، فصار وديعاً كطفل رضيع برغم الغضون ؟ هل سيبكي ويقول له : «أبي ! هذا أنا أخيراً » ؟.

(٥)

كان يلهث عندما تكلّم :

– ظننت أن في هذه الأشجار شجرة لها ثمار شهيّة . اليست فاكهة الشجرة شهيّة ؟

اندفع نحو البستان ، فاستوقفه بورو . توعّده بالسبّابة محذّراً :

– في اشجار البستان فاكهة شهيّة حقاً ، ولكن « وانتهيط» زرع فيها شجرة مسمومة يوماً ، من أكلها هلك ، أو أُصيب بمسّ ، أو ناله داء النسيان ، فامتنع اهل الصحراء عن تناول ثمار هذا الشجر منذ ذلك اليوم، فاحترس !

– ألا يستطيع رجال الزعيم أن يجدوا إلى شجرة السّمّ سبيلاً ؟

– يقيناً أنهم يستطيعون ، ولكنهم لم يفعلوا .

– هل يوجد في الأمر سرّ ؟

– يقولون أن الزعيم أراد أن يعلّم قومه وهو غائب ، ما عجز عن تلقينه لهم عندما كان قائماً بينهم ، وهو الإمتناع . يُقال أنه حذّرهم من

الحرص كثيراً ، وأخبرهم كيف اهلك الأمم ، وحاول أن يقنعهم بأن لا حياة لهم إلاّ في الامتناع . ولكنهم لم يمتنعوا في الزمان القديم ، ولم يمتنعوا اليوم أيضاً إلا عندما كاد لهم « وانتهيط» ونصب لهم فخ السّمّ .

– ولكن « وانتهيط» عدوّ للزعيم ، وعدوّ لملّة الصحراء !

– لا يترك الزعيم أمراً يجري ما لم يرق له !

– ألم يستطع أن يجبرهم على الإقتناع بالنّاموس ؟

– كيف يستطيع الناموس أن يجبر الملّة على أمر إذا كان الناموس نفسه موضوع جدل وشكّ وخلاف ؟

– ولكن ألا ترى أن منع الاستمتاع بالفاكهة الشهية بالسّم هي مكيدة يمكن أن تفسد فرحة الملّة بالميعاد ، وتكدّر في النفوس السعادة ؟

– لاكمال ، كما ترى ، حتى في أرض « تارات» ، وكل ما تناله يد إبن الصحراء لابد ان يناله ناقصاً .

– يجب أن يوضع حدّ بين المنع والامتناع ، وما أراه ليس امتناعاً ، ولكنه منع بقوّة السّم .

– لا خيار لنا أحياناً إلا أن نقتنع بالعطيّة الناقصة ، ولا نفكّر إلاّ كما تفكّر بعائرنا.

– في هذا شقاء . هذا سرّ الشقاء . اعترف للقرين بأني ، الآن ، شقي !

رددت الشعاف صدى النّداء ، فلم يعرفا من أي جهة انطلق صوت النذير . تكرّر النّداء ، فتلقّفته الشعاف ، ونفخت فيه ، فزعزع الحرم كله ، كأنه صوت نزل من السماء :

« توفات آهل إنسغيرن : كيل تاسيلي غاس نَسَن . كيل تدرارت غاس نَسَن . كيل آلّون غاس نسن . كيل إيجيدي غاس نسن » (*) .

(*) « غداً هو يوم القُرعة : أهل تاسيلي على حِدَة . أهل تادرارت على حِدَة . أهل آلوّن على حِدَة . أهل الرملة على حِدَة » .

٤٢- القُرعة

« كل ما ليس له بدن ، لا يمكن أن يخضع للحساب ؛ كل ما لا يمكن احتواءه ، لا يمكن أن يكون لعدده نهاية ، كل ما يمكن التعبير عنه بالكلمات ، هو الجانب الفظّ في الاشياء. كل ما يمكن أن يُدرك بالفكر ، هو الجانب الهشّ في الأشياء . خلف الفظّ والهشّ يقع ما لا تستطيع الكلمات أن تدركه بالتعبير، ولا يمكن أن يُنال بالفكر »

تشوان تسي

«فيضان الخريف »

(نص صيني قديم)

* * *

« لم ندخل العالم بشئ ، وواضح اننا لن نخرج منه بشئ»

رسالة بولس الأولى إلى تيموتاوس

(٦:٧)

(١)

اقبلوا كما قُدّر أن يقبلوا في كل حوْل .

اقبلوا متجاورين كبنات آوى ، يمشون بمهل الفرسان ، يتستّرون بألبسة الاحتفال، يتفاوتون في قاماتهم ، فترتفع العمامة شبراً في كل خطوة ، وتهوي عمامة أخرى شبراً في خطوة أخرى . يتحركون ببطء الأكابر ، فيهرع لملاقاتهم أهل الفضول ، ويطرح لهم الأكابر مفارش الأكابر ولكنهم لا يبالون . لا يبالون بأهل الفضول ، ولا يتنازلون لمجالسة الأكابر . يمضون في وجوم . يمضون إلى الأمام ، في عيونهم تصميم ، في عيونهم غموض . أبصارهم مشدودة إلى المدى ، كأنهم لا يبصرون في الحرم شيئاً غير المدى . الصمت لهم ناموس ، والإيماء هو اللّغة . يستنكر الدهماء مسلكهم ، فيسلّطوا عليهم الصغار ليرجموهم بالحجارة ، فيُرجموا . يُرجمون كثيراً ، ولكنّهم لا يعبأوون . أحد الدّهماء دسّ ، مرّةً ، حيّةً في كُمّ أحدهم عندما وقفوا في المدى يتشاورون . ولكن الحيّة لم تستطع أن تستفزّ الرّسول ، ولم تفزعه ، ولم يتنازل عن وقاره خوفاً . اكتفى بأن أطبق بيده الأخرى على رأسها ، وتركها تتلوّى في الكُمّ ، تتلوّى بين الثوب ولحمة الأبط ، حتى انتهت الشورى . ساعتها استدرج الزاحفة إلى اسفل ، فلامس بدنها اللّزج ،

الكريه ، الصدر العاري ، ثم رفعها إلى اسفل فتمرّغت على البطن ، ثم مّرت على السُّرّة ، وغابت بذيلها في الدّغل ، وتلوّت في الحرم الذي رمى بالمخلوق في الهاوية قديماً ، ثم انزلقت عبر الفخذة ، وتلوّت حول الساق ، وخرجت ، أخيراً ، من الكُمّ السفلي ، من فتحة ضيّقة في فم السروال . طوّح بها في الهواء ، ورماها بعيداً .

فإلى أي ملّة ينتمي أهل القرعة ؟ من نصّب جمعهم قيّماً على القربان ؟ هل أُختيروا في شعفة الخلق السّفلي التي اتخذ فيها الاوائل أحد الكهوف مقرّاً للشورى من قديم ؟ أم هم ، حقّاً ، رُسل من ملّة أهل الخفاء ، هبطوا من قمم أعلى ، واختارهم الزعيم بنفسه ليكونوا اليد التي تنصب الأشراك للحظّ ، وتأتي للسماء بالقربان ؟

(٢)

تفرّقوا عند الوهاد . هناك هوت الارض ، وشقّ المطر دروباً في رؤوس المرتفعات الشمالية ، فسلك الرُّسُل الشّعاب . التزموا حذاء المرتفع ، وكلّما انشقّت الأرض عن شعبة تباطأوا في خطوهم ، وتبادلوا الايماء الخفيّ فينفصل عن الجمع ثلاثة رُسُل ، ليسلكوا طريق الشعبة صعوداً ، فيصيحُ النذير بالنّداء .

صاح : « كيل تسيلي » في المرّة الأولى . ثم تحرك الموكب من

جديد . قطع مسافة . غيّب العشب السخيّ قامات الرجال . صعدوا رابية هزيلة . نزلوا الرابية فتلقفهم عراء سمح ، وما لبثت الشعبة أن فتحت لهم باباً . توقفوا . تبادلوا الايماء . تنحّى ثلاثة رجال ، سلكوا الشعبة صعداً ، فزعزع الفراغ صوت النّذير : « كيل تدرارت». تحرّكوا. قطعوا مسافة أخرى . غابوا في ادغال النبات . تبدّوا من جديد. تلقّفهم عراء سمح . وما لبث أن فتح لهم في الأرض باباً ، فتوقّفوا . تبادلوا الإيماء . تنحّى ثلاثة رجال . سلكوا الشعبة صعداً ، فزعزع الفراغ صوت النّذير : « كيل آلّون » . تحرّك الرُّسل إلى الأمام ، وتنحّى بورو من جمع أصحاب القوافل ، ومشى خلف الرُّسُل بخطوات كالهرولة . انحرف السّبيل غرباً ، فالتفت عند المنعطف . ووراءه مشى القرين بخطوات النّبلاء . أشار له بيده أن يسرع ، ولكن جبارين لم يستجب ، فرجع بورو راكضاً . تكلّم بلهجة غاضبة :

– هل تريد أن يسبقنا اللّؤماء ؟

استفهم جبارين بإيماءة فأوضح بورو :

– يوجد قوم خُلقوا للكيد . إذا غفلنا ضلّلوا الرُّسُل وقلبوا علينا الأمر !

– هل يستطيع أهل الكيد أن يضلّلوا رُسُل الزعيم ؟

– أهل الكيد يستطيعون أن يضلّلوا الزعيم نفسه . فباعد بين رجليك ، لأنّي لن أضمن نتيجة القرعة إذا سبقنا اللؤماء ، واقنعوا الرُّسل باستخدام اعواداً أخرى .

تشبّث بمعصمه ، وجرّه وراءه جراً .

(٣)

اختاروا الدِّمَن مستقراً .

بين أنصابٍ ثلاث سُفح دم ، وتخلّف عن نيران الاعوام رماد ، وتناثر بعر البعائر في كل رقعة . أتّخذت الانصاب وضعاً مثلثاً . كأنّ الجلاميد وُضعت لتحاكي الاحجار التي تُركّب فوق المواقد لتشيّع فوقها قدور الطعام . الجلاميد متماثلة الأحجام ، بيضاء اللّون . منتصبة القامة . ذات رؤوس مسطحة كقمم الترفاس إذا اخترق الأرض وطلع للنّور . اجسام الحجارة انصقلت بالاستعمال واللّمس والجلوس .

تسكّعوا في الموقع . تفحّصوا الأرض كمن أضاع شيئاً . أطولهم قامة حرث الرماد بنعله ، واستخرج دماً مغموراً في جوف الأرض ، ثم اعتلى أقرب نصب . تقدّم أقصرهم قامة ، واعتلى النّصب المجاور . أمّا الرسول الثالث فكان أكثرهم بدانة ، واقلّهم فضولاً . لم يتفقّد أرضاً ، ولم يستخرج بالنّعل دماً ، ولم يترصّد اصحاب الإبل بالنظرات الخفيّة .

ولكنه كان آخر من استقر على جلمود .

تدافع اصحاب القطعان في العراء المقابل . سكن الرُّسل ، وانتظروا أن ينتهي الجمع ، أيضاً ، إلى سكون .

سكن الجمع أخيراً .

أومأ أطولهم قامة إلى الجمع ، فتقدّم نحو الأنصاب زحام . ولكن بورو كان أول من وضع أمام الرُّسُل جراباً صغيراً مليئاً بأعواد الطّلح .

(٤)

تكلّم اطولهم قامة . كان بصره مشدوداً إلى الفراغ ، فتكلّم كأنه يخاطب الفراغ :

– إِيسَغيرَن كَرَاضَتْ تِيكَّال . تاتَهْرَيَتْ تِيننَغْ . (*)

أومأ بسبّابته فخرج من الجمع الأعوان . تقدّموا إلى المجلس . تربّعوا عند الانصاب . أخرجوا الاعواد من الجراب . سحبوا المدى من أكمامهم ، فلمعت الأنصال في شعاع الغسق . طرحوا العيدان على نطع ، انحنوا على النطع . تناطحت عماماتهم ، والتأمت ، فبدت كأنها عمامة واحدة كبيرة ، وتبدّى أصحاب العمائم كمجمع لأشرار

(*) « القُرعة ثلاثاً ، والعود الأخير نصيبنا » .

يتبادلون سرّاً ، أو ينهمكون في تدبير مكيدة .

في السماء أصاب الجلاّد إعياء ، وركع غرباً ، وبدأ يحتضر . غاب القرص وراء القمة المسطّحة المجاورة للساق الذي يحمل وطن الزعيم ، وخلّف فوق القمة سيلاً لعوباً استعار خصال التّبر ، ورمى بفيضه بعيداً ، ليشعل سفوح القمم الشمالية بفيض كألسنة النّار .

انتهى الأعوان من وسْم العيدان بأنصال المدى . رسموا إسم كل من امتلك في «آلوّن» بعيراً ، وعصبوا عيني أحدهم بحزام جلدي عريض ، معتم اللّون ، ثم يمّموا رأسه صوب الشعاف . تناطحوا من جديد . نزل الرُّسل عليهم برؤوسهم . برطموا بتعاويذ مجهولة ، بلغة مجهولة . فأزدادوا شبهاً بمجمع الأشرار الذي ينهمك في تبادل السّر ، أو تدبير المكيدة .

انتهوا .

تفرّقوا .

نهض أحد الأعوان ووضع جراب الأعواد بين يدي الرجل المعصوب . دسّ الرجل يده في الجراب دون أن يتخلّى عن الشعاف . جاس بيده ، في الجراب ، طويلاً . أخرجها أخيراً . خطف أحد الأعوان العود من يده ، فتلقّفه معاون آخر . تنقّل العود حتى بلغ عتبة النصب

الذي احتلّه اطول الرُّسُل قامة . وضع المعاون العود في يده، فرفعه الرّسول عاليا . رفعه إلى اشعة الغسق كأنه عظمة قربان يتأهب ليقرأ في رموزها الخفيّة نبوءة . ثم .. ثم نطق بالنبوءة : « أخورهي .. » . تلقّف المعاون من فمه النبوءة ، استعار دور النّذير ، وتنادى بها كبشارة يجب أن يسمعها السهل كلّه . تغنّى بها كبيت شعري من اشعار العشق أو الحنين . سرت في تجمّع أصحاب الانعام همهمة مكتومة . تكلّم الرسول مرّة أخرى : « يوغاسكي وانفلاّ إيدْ وكيكني وايهرين » (*) .

تبادل مع الأقصر قامة نظرة خفيّة ، ولكن أكثرهم بدانة مضى يشاهد الفراغ . اومأ مرّة أخرى فتناطحت رؤوس الجمع . توحّدت العمائم في عمامة واحدة كبيرة ، وتمتمت الشفاه بالمكيدة . نزل الرُّسُل عليهم برؤوسهم . برطموا من جديد ، فأزدادوا شبهاً بمجمع اشرار يتلذّذون بسرّ ، أو يرتّبون المكيدة .

انتهوا .

تفرّقوا .

نهض أحدهم وأعاد الجراب بين يدي المعصوب . تسلّل المعصوب بيده ودسّها في الجراب طويلاً . أخرج عوداً . تخاطفوه كما

(*) « حصّنتك السماء إذ لم تجعلك في المرتبة الأخيرة » .

فعلوا في المرة الأولى . تسلّمه أطول الرُّسُل قامة ، وشيّعه فوق رأسه اشباراً . قرأ النبوءة : « أغالج .. » . خطف المعاون من فمه النّبأ ، واستعار دور النذير . أعاد الإسم بصوت عالٍ ، ملحون ، فعلت همهمة اصحاب الانعام . اعقب الرّسول النّداء بنفس العبارة : « يوغاسكي وانفلاّ ، إيد وكيكني وايهرين»(*) . تبادل مع الاقصر قامة نظرة غامضة، ولكن الأكثر بدانة عاد من رحلته في الفراغ ، وتدخّل أخيراً . أومأ بجمع يده فمال إليه الاطول قامة برأسه . تبادلا نظرة طويلة ، ولكنهما لم يتبادلا كلمة واحدة . تباعدا ، فتكلّم الأطول قامة : « تالغا إتمللاي..»(**) . أشار للمعاون الذي يقف فوق رأسه ، فانحنى عليه . أسر له فقفز المعاون واقتحم زحام اصحاب الانعام . عاد من هناك بجراب جلدي مليئ بأعواد الحطب . وضعه في يد الاعوان ، فتكأكأوا عليه يحفرون على الاعواد الجديدة الاسماء بأنصال المدى . قفز المعاون واختطف جراب بورو ووضعه على مسافة خطوات . انتهى الاعوان من وسم العيدان . انحنى عليهم الرُّسُل . برطموا باللّفظ المجهول ، وتبادلوا السّر طويلاً .

انتهوا .

(*) « حصّنتك السماء إذ لم تجعلك في المرتبة الأخيرة » .

(**) إقلبوا الأمر .

تباعدوا .

حمل أحد الأعوان الجراب ، ووضعه في حجر الرجل المعصوب. تلمّسه كما يتلمّس الأعمى سبيلاً ، ودسّ يده في الجراب . دبّ بأصابعه في الجوف ، وأخرج العود أخيراً . العود الأخير ...

وثب إليه المعاون . اختطف العود من يده . تنقّل العود من يد إلى يد حتى بلغ النّصب . تلقّاه أطول الرُّسل قامة . ابتسم قبل أن يشيّعه إلى أعلى . كان الاعوان يتسمون أيضاً . ابتسامة مبهمة تخفي أمراً ، تخفي غموضاً .

شيّع العود أخيراً . شيّع العود الأخير ، فارتفعت إلى أعلى أبصار الخلق كلّه . تعلّق الجميع بالعود المشذّب ، النحيل ، الناصع ، كأنه عظمة من عظام القرابين . انتظروا . انتظر الخلق النّبأ . لم يتحرّك أحد . لم يتنفّس أحد . لم يومئ أحد . المعصوب تابع الشعاف برأس مرفوع . والرسول الأكثر بدانة راقب الفراغ بوجنتين جامدتين ، لا مباليتين ، ذكّرت الجميع بقسوة السماء في بعدها ، في صرامتها ، في لامبالاتها . الرّسول الأطول قامة أيضاً جمد . توقّف عن التنفّس ، ثبّت ذراعه المشيّعة بأصابع يده الأخرى ، فحلّت في مقلتيه نداوة ، وومضت العينان ببريق . ظلّ الذراع معلّق في الفراغ طويلاً جداً . ثم هوى ، فتولّى

اللسان الأمر «بوبو إذْ دودو..» (*) . لم يتحرّك أحد . لم يتململ أحد . لم يسعل أحد .لم يتنفّس أحد . ازدادت السماء بُعداً وازداد الفراغ عتمة ، وازداد السكون سكوناً . حتى المعاون لم يختطف النبوءة من فم العرّاف ، ولم يستعر دور النذير ليبشّر بها الخلاء .

أعاد الرّسول الاطول قامة : « بوبو إد دودو .. » ، فانتبه المعاون أخيراً وزعق ينادي بأعلي صوت . رددت القمم السفلى النداء ، وتلقفته الشعاف ، فبدأ ينتقل من شعفة إلى أخرى ، حتى بلغ السماء . ردّدته السماء ، فسمعه بورو من فم السماء . وضع عمامته الهزيلة بين يديه ، تمايل كالمجذوب ، واطلق أنيناً غريباً .

عاد الرّسول الأكثر بدانة من سفره ، فلاقاه الرسول الاطول قامة. تبادلا نظرة خفية ، وتباعدا . أوضح بعدها الرسول الاطول قامة : «آهلواغ آهل نيسماون ويزّارنين » (**) ، فأعاد المعاون عبارته بالنّداء الملحون . أكمل الرسول : « ما يجابوبوإد امضر اينّيت دودو ؟ » (***). لم يتقدّم أحد . فتكلّم الرسول مرة أخرى : « يوغاسكون وانفلاّ إيديكس دُوَنْ آتْلَمْ » (****) . اختطف المعاون من فمه العبارة ، ورددها

(*) بوبو ودودو .

(**) اليوم يوم الأسماء الأولى .

(***) أين بوبو وشقيقه دودو ؟ .

(****) لقد حفظتكما السماء إذ جرّدتكما من كل مُلك .

فسمعتهاالسماء.

بعدها تنزّل السكون .

دام السكون طويلاً ، ولكن رجُلا فزّ كالممسوس ، وهجم على المجلس . فزّ فجأة ، فلم يدركه اصحاب الأنعام ، وقطع المسافة الفاصلة بين زحام اصحاب الانعام ومقّر المجلس ، في غمضة واحدة . تلقّف الرّسول الاطول قامة في غمضة أيضاً فشلّت الدهشة الاعوان ، واعجزتهم عن التدخّل . تلقفه بين يديه ، طوّقه بذراعيه ، ورفعه إلى أعلى . لم يرفعه إلى أعلى ، ولكن الخلق رأوا مخلوقاً يطير في الهواء مسافة طويلة ، فتنتفخ ثيابه الفضفاضة ، وترفرف في الهواء كأجنحة طيور الأساطير ، ثم تهوي إلى اسفل كحجر . كأنّ رمحاً لئيماً اخترق البدن الطائر فهوى في الحال . سقط عند ركبتي الرجل المعصوب الذي استمّر يرفع رأسه إلى الشعاف ، يحتفظ بالجراب في حجره ، برغم انتهاء القرعة . كان الأكثر بدانة أوّل من هبّ واقفاً . صاح آمراً : «ارمست إيركوادم» (*) . ساعتها انتبه الاعوان ، وادركوا ما حدث . قفز ثلاثة منهم وتشبثوا بالرجل . ولكنه نفضهم بعيداً فسقطوا أرضاً . أطلق صيحة بطولية مهولة وركض نحو البدن المكوّم عند ركبتي الرجل

(*) امسكوا بالمعتوه ! .

المعصوب . تلقفه مرّة أخرى ، ورماه في الفضاء . غيّبته عتمة المساء ، وسمع الجمع صوت ثيابه ترفرف في الهواء ، قبل أن يهوي إلى الأرض مرّة أخرى . أقبل جبارين . أمسك بقرينه من خصره . أمسك به من الوراء ، مطبقاً على يديه أيضاً ، ولكن بورو لفظ قطعة من الزّبد ، وصرخ بصوت جنوني ، وقفز في الهواء ، فوجد جبارين نفسه معلّقاً في الفراغ . طارا معاً مسافة ، وعادا إلى الأرض معاً .

ما أن سقطا أرضاً حتى أغار عليهما الجمع كلّه . سقطوا فوقهما حتى توارا تحت الابدان .

(٥)

استمرّ بورو يلفظ الزبد ويرتجف . تعلّق بأطرافه أربعة من اشدّ الرجال . تحت النّصب رقد الرسول الاطول قامة يئن ويسعل ويبرطم بلغة مجهولة . بينما تنقّل الرسول الأكثر بدانة مردّداً : « آكراد . اكرد ايركاواودم . آهلواغ آهل انغايغان» (*) . تقدّم جبارين من الرّسول . كان يلهث ويرتجف . قال : « ولكن ألا يرى مولاي أن في تغيير الاعواد مكيدة ؟ كثيرون غيري يرون أن تغيير العيدان أمر لم تجر به العادة ، وأنكره النّاموس فيما مضى » . توعّده الرسول بالسبّابة . قال غاضباً :

(*) القيد . قيّدوا الوغد . اليوم يوم «إيغايغان».

«آيدغ أنين إياوا رانيسّين . نكّانيض نسّان تونغت أنّيت دبسغ . إيمخلي!»(*) . مشى مسافة حتى اقترب من رفيقه الذي يهجع تحت النّصب . عاد على عقبيه . وقف أمام جبارين . صاح في وجهه: «آهلواغ آهل انغايغان» . ثم نفث زفيراً كصهد القبلي .

قيّد الاشدّاء بورو بخليط من الحبال : مسد ، شعر الماعز ، عقالات الإبل ، وشرائط الكتّان . انتهوا من القيود ، ولكنهم لم يتركوه. هرع رجال ليأتوا بعيدان القصاص . صرخ الرّسول الأكثر بدانة :

« طالمت ماجا طالمت تاينكس آورا ؟» (**) .

هرع الاعوان لاستجلاب الناقة .

عاد الرجال بعصاتين صقيلتين . بدأوا يثبّتون العصاتين حول صدغي المجذوب ، في حين أقبل جبارين ليشفع . قال : « هذا لا يليق !»، فقال احدهما : « وهل يليق أن يُعتدى على الرّسول يوم القربان ؟ » حاججه جبارين : « ألم تشكّكوا منذ قليل في نزاهة القرعة ؟ ألستم انتم من قال أن في الأمر مكيدة ؟ » . أجابه الثاني : « أنت تعلم أن أمر القُرعة ليس بيدنا ، وأمر القصاص ليس بيدنا أيضاً » . تركهما وعاد إلى الرّسول، ولكن الاعوان اعترضوه وابعدوه عن المقرّ . ثم تحلّقوا في

(*) قل هذا لمن يجهل بأن الأعواد أُستقطعت من طلحة هي له قرين . الوغد !
(**) الناقة . أين الناقة التي رضعها الحُوار ؟

صف دائري يحرسون الأنصاب .

جاء الاعوان بالنّاقة .

كانت تظلع ، تلفظ الزّبد ، وترغى بصوت موجع . اخترق الفخذة الموسومة بتقاطع « تانّيت » تقاطع آخر ، فازدوجت العلامة ، وحلّ على الناقة ختم الزعيم . نزّ من الجرح دم ، وسال على الفخذة لزجاً ، متخثّراً ، غامضاً ، حتى بلغ الساق ، وتساقطت قطرات على الأرض .

تقدّم جبارين من النّاقة ، فغزت أنفه رائحة الشياط ، تفقّد الجرح فشمّ رائحة خفيّة : رائحة الدّم . أحس بالدوار . أحس بغثيان . سقط على ركبتيه وبدأ يتقيّأ بصوت عالٍ . تقيّأ وغالب الغيبوبة طويلاً ، فلم يسمع الاعوان عندما وضعوا المدية في نحر النّاقة ، ولم يسمع عندما هوى الرجال بالاعمدة على العصاتين المشدودتين إلى صدغي بورو ، فزعزع القرين ، بصراخه الحرم كلّه .

٤٣- القُرَبان

« أوه ، أنت ، يا من رأيت شرّه خيراً

اقتلني ، ولكن لا تكن لي عدوّاً»

وليم شكسبير

« السّونيتات »

* * *

« أنا وأنت ؛ كلانا حُلْم . وكذلك نعتي لك بأنّك حُلْم ، أيضاً حُلْم »

تشوان تسى

« ملاءمة الأضداد »

(نص صيني قديم)

(١)

تحت الطلحة ، في ظلّ العشيّة ، روّض بورو لحناً شجياً .

في الجوار هجع جبارين على قفاه . شيّع ركبته اليسرى عاليا ، ونصب ساقه اليمنى فوق الركبة ، فابتدع فراغاً مثلث الزويا ، راح يرقب من ورائه القرين ، ويتمايل بركبته يميناً ويساراً على إيقاع النّغم الذي يترنّم به بورو.

تعثّر اللّحن . برطم بورو. اطلق انيناً لاستدعاء اللّحن ، ولكن اللحن لم يأت ، والايقاع اختلّ ، فتوقف .

تكلم جبارين :

– أنا الآن مثلك . لا املك شيئاً !

اطلق بورو صوتاً بصدره محاولاً أن يستعيد اللّحن . غنّى نسقاً قديماً : « د يـ –يـ–يـ–د–أ–أ–أ–أ...ه » . سكت .

سكتت الصحراء .

ولّى الجلاّد غرباً ، فتحرّك في الهواء نسيم نديّ.

تكلّم بورو :

– ألم يقل الرّسول اللّئيم أن السماء اصطفتنا إذ جرّدتنا من كل ما نملك ؟

– هل قلت أن الرّسول لئيم ؟

– كيف لا يكون لئيماً إذا كان مزوّراً ؟

– ما الذي حمّلك على هذا الظنّ المُنكر ؟

– ألم تكفك المكيدة ؟ ألم يبدّل الوغد العيدان أمام عينيك ؟

– لقد ظننت أن البدين هو الذي أشار عليه بذلك !

– إذا أشار عليه البدين فذلك برهان آخر على أنهما دسيستان من طينة واحدة .

– هل تريد أن تخبرني بأنهم ينتمون إلى ملّة الزيف جميعاً ؟

– لا استطيع أن أُخبر إلاّ بما أعلم : ربما كانوا جميعاً من أهل الزّور ، وربما نصبت لنا الاقدار شركاً فدسّ لنا « وانتهيط» نفراً من اتباعه. ولكني لا استطيع أن أخبر فأقول أن كل الرّسل كانوا من أهل الزّور .

سكت جبارين . عاد النسيم يهبّ . عاد بورو يجرّب لحنه . استعصى مرّة أخرى ، فزفر انفاساً سخيّة . سكت . قال :

– عندما يكبر الهمّ يتخلّى عن الإنسان كل شيئ . حتى الالحان تهرب من اللّسان .

استمرّ جبارين يتمايل بساقه المنصوبة على الركبة كأنه يستجيب للحن آخر غير مسموع .

تكلّم بورو :

– الآن فهمت لماذا رمى « خبّدا» بنفسه من الجبل . هل تذكر « خبّدا » الذي غرّر به الرُّسُل ؟

– هل يظن القرين أن الرُّسُل هم من غرّر به ؟

– كنت قبل اليوم أشُكّ ، ولكنني اليوم على يقين .

– يحسن بك أن تُبعد ظنون السّوء ، لأن كثيرين لا يرونهم أشراراً .

– لقد سألتك عندما التقينا أول يوم عما إذا كنت تخاف العار واشعار الهجاء . هل تستطيع أن تستدعي حديثنا في رأسك ؟ اعترف اليوم أني خشيت عليك من مصير كمصير « خبداً » المسكين ، ولم أكن أدري أن الخفاء قد أعدّ له فخّاً من نفس العيدان . بورو لا يخاف العار الذي يخافه أكابر الخلق ، ولا يخشى هجاء الشاعرات ، مثل «خبداً» ، ولكني لم أعرف سرّه إلاّ اليوم . لقد نصبوا له كميناً ، ليضعوا « إيغايغان»

حول صدغيه ليذيقوه جوراً . الجور هو الذي أمات « خبدّا» وليس الخوف من العار . في صدري أيضاً زرعوا سُمّاً .

– يُحسن بالقرين أن يُبعد ظنون السّوء وينسى ، لأن كثيرين يرون أن الذّاكرة شرّ كبير !

– ولكنهم ساقوا الحُوار قبل أن يسوقوا النّاقة . الحُوار حرق صدري كثيراً .

– ما الذي حمّلهم على أن يسبقوا القربان ؟ كانوا يقدرون أن ينتظروا ليأخذوه بالقرعة يوم القربان .

– لأنهم دهاة . انت لا تعرف الدهاة ولا رُسل الزّور . القرين نسى أن الحيران لا تؤخذ بالقرعة ، لأنها لا تدخل في حساب القربان . وحتى لو لم يكن الحُوار حُواراً، حتى لو كان قريعاً أو ناقة ، فإنهم لن يستطيعوا أن يأخذوه إلاّ بالسيل ، لأن اختيارهم كان قد وقع على ناقتك منذ زمان بعيد ، منذ راؤك تدخل بها « آزجر » . إنهم ملّة مخيفة لا تغفل عن شئ ابداً .

– هل تظن أنهم بيّتوا على الناقة حقاً ؟

– إنهم قوم إذا وقع في قلوبهم هوى لشئ فلن يهنأ لهم بال حتى ينالوا هذا الشئ. ألم تر الظّمأ إلى الدّم في عيونهم ؟ ألم تتفرّج عليهم

وهم يتجرّعون الدّم ؟

– الدّم ؟

– لقد أتاهم الاعوان بوعاء من دم النّاقة ، وقد تنقّل الوعاء بينهم ، وتجرّعوا في نهم . بل أن الوغد الذي يكبرهم قامة لم يفق من الغيبوبة إلاّ بعد أن تجرّع نصف الوعاء . كان المسّ يضرب رأسي ، ولكن عيني لم تغفل عن الدّاهية !

– اعترف لك بأن الغيبوبة غلبتني . هالني الجرح الذي رأيته في فخذة النّاقة . كانت ما تزال تنزف عندما أتوا بها . ولا أعرف متى استطاعوا أن يسلخوا جلدها بذلك الوسم الفظيع .

– أراهن بلثامي أنهم حرقوها بالوسم قبل أن يأتي بها عود القرعة.

زفر جبارين بوجع . زفر بورو أيضاً . حاول أن يجرّب لحناً آخر . ارتفع الصوت وانخفض . علا وابتعد . لم يتحوّل إلى موّال المسافرين . لم يتركّب في أنساق الوجد . مزيج مرتبك ، مزعج ، ومُنفر .

قال جبارين :

– عندما بدأت الخروج من الحمادة رقدت على ضريح النّمل . في الليل رأيت أن النّاقة ضاعت فخرجت في طلبها فقابلني شيخ .

سألته عن أمرها فأدار في وجهي علامة «تانيت » حتى تحوّلتِ الشارة المربعة الاركان إلى حلقة مستديرة . ثم ابتسم لي . وعندما ادركناها بعد نيلنا لكنز الجلمود ، ورافقنا الساحر ، رأيت على ظهرها دائرة كاملة لألوان قوس قزح . أنت لم تلحظ الدائرة لأنّك ما زلت مسكوناً بمشادّتك مع الساحر ، كما لم تلحظ كيف هرع إليها الساحر ، وردّد في وجهها تعويذة لم اسمع منها سوى : « هذه النّاقة .. هذه النّاقة ..». فهل تظن الساحر قد أخذها بالعين ؟

– قلت لك أن النّاقة لاقت هوى في بال الخفاء من أول يوم دخلت فيه « آزجر»، وكانت ستقع في أيديهم على كل حال ، ولكن ما أردتك أن تعرفه هو شئ آخر ..

انتبه جبارين . أنزل ساقه ، ولكنه أبقى الركبتين في وضع منصوب . دندن بورو بلحنه المُنفر . تابع السماء الصافية ، البعيدة ، اللامبالية .توقف عن الدندنة . لمعت النداوة في عينيه بوميض غامض . ضاقت العينان فاشتدّ الإيماء . اشتدّ الغموض . تكلّم كأنه ينشد شعراً :

– كانوا يريدون قرباناً آخر ..

استفهم جبارين بنظرة صارمة . دندن بورو بصوت مزيّف . قطع الاغنية . أنشد الشعر :

– في كل مرّة يجئ فيه الميعاد ، ويُقام يوم الحرم ، لا بد أن ينصبوا كميناً ليأخذوا الإنسان قربانا !

حدجه جبارين باستنكار . نهض مستعيناً بمرفقيه . حدّق في وجهه،ولكن بورو لم يلتفت . أنشد شعره من جديد :

– لا تنسَ أنهم من أهل الخفاء . في الخفاء يرون الخلق ولا يراهم الخلق . فيستطلعون مبكّراً . يستطلعون ، ويستخبرون ، ويطلبون ، حتى إذا وجدوا ضالّتهم ، نصبوا الفخاخ ، واعدّوا الاشراك ، ودبروا المكيدة. لا ينصبون افخاخاً لأنعام ، ولا يعدّون اشراكاً للإيقاع بالبعير ، ولا يدبّرون مكائدهم لاقتناص الطرائد ، ولكنهم ...

سكت مرة أخرى . صار الوميض في عينيه بللاً ، ندى ، دمعاً . فوقه انحنى القرين . ولكنه لم يرَ القرين ، ولم يرَ السماء . ولم ير فروة الطلحة . مضى يردّد نشيده:

– يبحثون عن ضعاف النفوس ليجرّوهم إلى التهلكة . لم يحتمل « خبدّا» جوراً فيرمي بنفسه من رأس الجبل ، لن يحتمل بورو فراق الحُوار فيقفز إلى الهاوية ، لن يحتمل جبارين البقاء بلا ناقة وحيدة فيضع المدية في نحره .. هذا سرّ اختيارهم لك! هذا سرّ اختيارهم لي !

دندن باللّحن . تلعثم . اختنق الصوت بعبرة ، فمات اللّحن قبل

أن يبدأ ، فعاد إلى النشيد :

– أراهن أنهم اطلقوا وراءنا الجواسيس ، لأن بالهم لن يهنأ قبل أن يعرفوا مصيرنا . وعندما سيخبرهم جواسيسهم بأننا نستلقي تحت طلحتنا ، وندندن بالأغاني ، فإنهم سوف يموتون باليأس ! هل فهم القرين الآن لماذا أغني ؟ اعترف لك بأنّي أريد أن أميتهم باليأس ..هئ .. هئ .. هئ .. غَنِّ معي يا قريني كي نريهم القربان ، ونذيقهم طعم اللحم البشري ! غنِّ معي .. لماذا لا تريد أن تغنّي ؟

في الأفق لاح شبح . أقبل من جهة الغرب ، من نفس الوطن الذي يضيق بالخلق ، وترتفع فوقه شعاف المجهول . اقترب مسافة ، فتبيّنا كيف يشيّع على منكبيه عصاه ، فيدلّي يديه على طريقة الرعاة . لاحقته اشعة الغسق ، فلمع طرف العصا كأنّه نصل المدية .

(٢)

تربّع الضيف أمام الموقد . في حجره استقرّت العصا المطوّقة بدوائر النّحاس . على العشاء تلذّذ بخبز الملّة ، وشرب وعاء كاملاً من الماء . وضع بورو في يديه قبضة من التّمر ، فتناول حبّة واحدة ، واخفى ما تبقّى في جيب الثوب . خفت وميض النّار . تمخّض الأفق المضاد وأنجب قمراً صافيا . تصنّتت الصحراء في انتظار الميلاد ، فحنّت

الصدور إلى السّمر . عاد بورو إلى نشيد العشيّة :

– اخذوا الحُوار قبل أن يبدأ الرّهان ، وعندما جاء يوم القربان ، سلبوا ناقة القرين خداعاً . استبدلوا اعواد الدور الأخير في نيّة مبيتة للغشّ ، ثم ادّعوا أن ذلك من الناموس .

هرش العابر النّار بالمسعر قبل أن يقول :

– النّاموس أقرّ للقرعة طرقاً ثلاث : طريقة تستخدم العيدان مرّة واحدة ، هي الأولى وهي الأخيرة . وطريقة تستخدم العيدان ثلاثاً على أن تستبدل في كل مرّة بعيدان أخرى ، ويكون الحكم هو حكم المرّة الأخيرة . وطريقة ثالثة تستخدم نفس العيدان للمرّات الثلاث . أمّا استخدام العيدان لمرّتين ، واستبدالها في الأخيرة ، فبدعة دخيلة على الناموس . ولكن البدعة لا تغفر الاعتداء على رُسل الخفاء ! الاعتداء على رُسُل الخفاء جرم ليس بعده جرم !

ابتسم بورو . أحكم اللثام حول انفه . أنشد في النشيد أبياتاً جديدة :

– يصح ما يقول مولاي لو جاء الرُّسُل في طلب الانعام . لو جاءوا يطلبون قرابين الانعام ، يا مولاي ، لما بخلنا عليهم بالحُوار ، ولا بالنّاقة ، ولكنّي عرفت حيلهم من قديم . لقد ادركت سرّهم يا مولاي ،

فتجاسرت ، ورفعت يدي عليهم .

- لا يبرر العدوان على أهل الحرم سرّ ..

- بأي لسان سيتكلّم مولاي إذا عرف أنّهم جاءوا في طلب رأسي ورأس قريني هذا ؟

- ما الذي يحملّك على هذا الظنّ القبيح ؟

- هئ - هئ - هئ .. هذا سرّي !

- إحترس . لا تسخر من أمر ما لم تقف له على نهاية !

- ولكنّي اكتشفت حيلتهم . كانوا ، يا مولاي ، يريدون قرباناً آخر .. هئ - هئ .. أنت لا تعرفهم يا مولاي ..

- إحترس ! الحكيم لا يسخر من أمر ما لم يقف له على نهاية !

- هل سمعت من فم مولاي كلمة « حكيم » ، أم أن أذني كذّبتني ؟ أجرني من الحكمة يا مولاي ، لأن الرّاعي الذي يسعى وراء المطر بأنفه ، ويكلم الأرض ببدنه ، ويتلقى الأنباء من منقار « مولا - مولا » سيكون عدواً لنفسه لو اقتنى الحكمة ، لأن استخدامه لها سيكون أسوأ من استخدام الرُّسل لعيدان القرعة . وبورو لا يخشى نهاية أي أمر يا مولاي ، لأنه يعلم أن النهاية التي يتحدّث عنها مولاي هي نفسها

البداية التي يراها الآن . يراها بعين اليقين التي لم يستعرها من بلاء الحكمة .

تدخّل جبارين :

– قريني يريد أن يقول أن الخبث أمر كريه يسئ للزعيم أبلغ إساءة .

– لا شئ يسئ للزعيم ، لأن له في كل أمر حكمة .

تصدّى له بورو :

– ها قد عدنا إلى الحكمة ! ألا يستطيع مولاي أن ينتزع هذا اللّفظ الغريب من لسانه عندما يتحدّث إلى الرعاة ؟

حدجه العابر بنظرة خفية ، وشيّع عصاته المطوّقة بحلقات النّحاس ، فبرقت الاطواق تحت ضوء القمر . تساءل :

– هل يستطيع المستضيف أن يشيّع ضيفه غداً كما شيّعه مرّة ؟

ارتفع القمر فاستسلمت له الصحراء . استبطأ العابر الجواب فأضاف :

– رأيت أن رفقة السبيل التي باركها الناموس ستسمح لي بأن أسرّ لمستضيفي بأمر ضاق به صدري .

داعب عصاته المعقوفة مرّة أخرى ، فلمع طوق تحت ضوء القمر كما يلمع نصل المدية تحت شعاع الشمس .

(٣)

عاد بورو قُبيل الغروب .

علّق شكوة الماء في عرف الطلحة ، وجلس تحت الجذع . راقب العتمة وهي تزحف وتستولي على الخلاء البعيد . تطلع إلى الأفق بمقلتين غائبتين . في ذلك المساء رأى جبارين في عيني القرين تسليماً لم يره فيهما أبداً . تهدّل اللّثام وانحسر عن الفم ، فتبدّى شحوب في الشفتين. لم يرفع « أموال » إلى الانف ، ولم يحكم رباط اللثام حول الوجنتين . جلس متربّعاً ، وحرث التراب بعود بلا مبالاة ، وبقي يتابع الفراغ بعينيه الفارغتين طويلاً .

وضع أمامه وعاء الماء ، وطبق التمر ، ولكنه لم يعبأ . وقف جبارين فوق رأسه . سأله .

– هل أخبرك الشرّير بشرّ ؟

لم يجب . عاد جبارين يحاول ، ولكنه ، بدل أن يتكلّم ، غنّى . جرّب طويلاً ، ولكن اللّحن لم يستقم أبداً . هَدَأَ مرّة أخرى . تطلّع إلى الفراغ الموسوم بقبس منتظر . طلع القمر فرمى بالعود ،و .. تكلّم .

تكلّم فلم يعرف القرين للقرين صوتاً . قال :

– لقد أخبرني على الإنفراد سراً قال أنّك به عليم .

انتظر جبارين أن يكمل ، ولكنه سكت . يئس جبارين فتكلّم :

– لا اذكر أني اخفيت عليك سراً . لو كان في رأسي سرّ لما صبر عليه لساني يوماً واحداً .

قال بيقين كالوعيد :

– أنت أخفيت عنّي سراً .

سكت جبارين . انتظر . تكلّم السكون . تكلم السكون بألف لسان .

علا صوت اليقين من جديد :

– ألم تخفِ عنّي سرّ الأمّ ؟

عاد الصمت يتكلّم . سمع جبارين في لغته رطانة بألف لسان . استعار منه لساناً ليطلق كذبة :

– لا اذكر سراً يتعلّق بالأمّ.

ألقى القمر بحزمة الضياء في مقلتيه ، فتلألأ فيهما إغواء . تكلّم صوت اليقين مرة أخرى :

– أنت شرّير يا جبارين !

اختلطت رطانة الألف لسان ، واصاب الضجيج رأسه بصداع . طوّق عمامته بيديه ليستعير لساناً آخر :

– يصير الشّرير خيّراً ، وينقلب الخيّر شرّيراً . من يدري أين يتخفّى الشرّ ؟ من يدري أين يندس الخير ؟

علا صوت اليقين كحدّ السيف :

– أنت شدخت رأسي بالحجر ، أنت دفنتني حيّاً . انت قتلت أخاك ودفنته . لم يكفك ما فعلت ، ولكنك لاحقته في أبعد الاوطان لتخفي عنه السرّ عمداً . انت شرّير يا جبارين !

– يحسن بالقرين أن يتمهّل . يرى كثيرون أن العجلة أيضاً شرّ !

– الساحر أخبرني بسرّ آخر . أتنكر إنّك طعنت حسناء القبيلة بالمدية ليلة القران؟

– حسناء ؟ لا أذكر أنّي طعنت الحسناء ! لقد طعنت حيّة في تلك الليلة . لقد طاردتني منذ فررت من البيت . أخذت ظلّي ، وطلعت لي في بدن الصبية في احراش الدغل ، وطعنتني فوق الشفة لأنها ارادت أن توقظ قرينا تعرف أنه لن يمهلني إذا نهض من رقدته القديمة . لم تكتف، ولكنها تبعتني في السبيل ، واستدرجتني لتبعدني عن النّبع ،

فخرجت ، وتُهْت،ولم استطع أن أجد للعودة سبيلاً إلى اليوم . فكيف تريدني أن اتهاون مرّة مع مخلوق طعنني الف مرّة ؟

- أنت شرّير يا جبارين !

كرّر صوت اليقين حكمه مرّة ، مرّتين ، ثلاث مرات ، فصار الصوت إيقاعاً ، نداءاً ، غناءاً .

(٤)

ظلّ يروّض اللّحن طوال الليل ، ولكن الألحان هي التي تختارنا دائماً ، ولا نختارها أبداً . أبت ، وتمنّعت ، ولم تستسلم إلاّ قُبيل القبس . اقبلت كأنين بعيد ، بعيد. اقتربت، اقتربت، فشهق الصّدر ، وحاول أن يختطف الهواء كإنسان يحتضر .

تمايل . ارتفع . انطلق في الحنين لملاقاة المسافة الخالية ، الصافية ، البعيدة ، اللامبالية . تنقّل في السبيل . اعترضته السُّبل اللئيمة . فاختلط عليه الأمر ، كما يختلط على كل طفل ضلّ الطريق . توهم أن السُّبل اللئيمة ، هي السبيل الصحيح ، فسلكها . لم يكتشف ، في السّفر ، أنها شراك خفيّة ، لأن ميعاد العودة إلى الوراء قد فات ، فأحسّ بشقاء ، وعرف الصّروف ، وطلع له الحظّ ساخراً ، لئيماً ، مكابراً ، فتألّم . تألّم. ولكنه تعلّم . تعلّم فقال لمولاه أنه سوف يسلك السُّبل اللئيمة ، وسيسقط في الأشراك ، لو قُدّر له أن يختار سبيل السفر من جديد ، لأن صوت

اليقين هو الذي أخبره أن الأمر كان سيكون أسوأ كثيراً لو سلك سُبُلاً أخرى ، حتى لو كانت السُّبل الأخرى هي السبيل الصحيح .

(٥)

تبدّد القبس . اخترق الافق أول شعاع ، فتوقفت الاغنية . سقط المغنّي على قفاه فأسندته الشجرة . أصاب الشعاع النبيل مقلتيه فلم ير جبارين فيهما سوى البياض . زحف نحو الشجرة . حدّق في العينين المفتوحتين على الفراغ بلا مبالاة قاسية . تحسس أطراف المغنّى فوجدها باردة كماء القربة . انزل طرف اللثام على وجه المغنّي ليتقي نظرته القاسية . وقف وأخذه بين ذراعيه . قطع به مسافة طويلة في العراء .

كان خفيفاً ككوم من الرّيش . عبر المرتفعات ، اجتاز الروابي . بلغ أرض الوعوثة . توقف . وضع كوم الرّيش على الأرض ، وبدأ الحفر. حفر التّراب حتى انتصف النهار . وضع البدن في الحفرة وجلس فوق الفوهة ليستريح . انحسر اللثام عن شفة المغنّي فرأى كيف حوّلها الشحوب إلى قطعة زرقاء كثياب الاحتفال . لم يدهشه سفر القرين ، لأنه كان قد سافر منذ سلّط عليه الخفاء سيلاً جرف له الحُوار . لقد ادرك منذ ذلك اليوم أنه فقد بورو ثانيةً ، بعد أن فقده عندما غاب في ضريح تحت حجارة الحمادة قبلها بوقت طويل . والبارحة ، عندما جاءت الاغنية ، وطار مع اللّحن ، عرف أنّ القرين الذي وُلد ليعيش طفلاً إلى الأبد لن ينتقل إلى الخفاء إلاّ ليخرج إلى الخلاء من جديد . فإن لم يقابله

في هذا الوطن ، فإنه سيلاقيه في الوطن الذي يليه ، ومشيئة الدائرة التي تدور ، ولا تتوقف عن الدوران ، ستعيد الوليد إلى أمّه ، كما تعيد الغريب إلى وطنه .

(٦)

استيقظ في الصباح فوجد أن دبولاً أصاب الشجرة . في البداية ظنّ أن الريح ألقت على رأسها كوماً من قشّ العلّيقِ اليابس ، ولكنه اكتشف ، ما أن اقترب ، أن اليبس لم يكن قشاً ، ولكن الفروة هي التي تحوّلت إلى قشّ . شحُبت الأغصان العليا وازداد الشوك بياضاً ، وغزا الاوراق لون اصفر . طاف حولها ليتفقّد الجهة الأخرى التي ينحني صوبها الجذع ، فوجد بركة داكنة ، وغامضة ، كأنها نزيف من دمّ . اختبرها باصبعه فغاصت السبّابة في سائل لزج ، رجراج ، ولكنه مزموم كالعسل . بحث عن أصل النزيف فرأى في شقّ صغير ، اسفل الجذع ، خيطاً نحيلاً يتلامع تحت الضوء .

حمل امتعته وانطلق . قطع مسافة قصيرة والتفت إلى الوراء . كان الخلاء يتوعّد بابتلاع الشجرة ، فرآها ، بفروتها الصفراء ، وبدنها المائل ، كئيبة وعزلاء ، ووحيدة .

رأى كيف حلّقت « مولا – مولا » فوق الفروة ، وحطّت على غصن شاحب.

٤٤- السِّرّ

« الإنسان الكامل لا يمتلك ذاتاً ، الإنسان القدّيس لا يملك أفضالاً على أحد ، الحكيم الحقيقي لا أمجاد له »

تشوان تسى

(نص صيني قديم)

* * *

«إنّى أغار على القديم أن يراه المحدث »

ابو بكر الشبلي

(١)

رفرفت في فضاء المدخل ، وظلّت تراوح في الفراغ . سمع حفيف الجناحين ، فتح عيناً واحدة ، فأبصر ظلّها على النصب ، يجاور القرنين المنصوبين على رأس الجدّ . فتح العين الأخرى فرآها ترفرف بإلحاح ، ولا تريد أن تتنحّى عن مكانها الذي أختاره في الفراغ . فهل انتوت أن تستقرّ أخيراً وتبتني عشاً في الكهف ؟ هل نالتها الأسفار ورأت أن تركن إلى السكون ؟ ولكن كيف ستحتمل الأرض هذا السكون ؟ كيف ستنتظر السماء لهذا العجب ؟ ألم تولد « مولا – مولا » لتكون رسولاً إلى الأبد ؟ ألم تُخلق لتحمل في بدنها الصغير الصحراء كلّها ، وتتنقّل بها من مكان إلى مكان ، من وطن إلى وطن من فراغ إلى فراغ ؟ ألم ييأس الخلق في أن يعثروا لها على عشّ ، أو فرخ ، أو بيض ، أو حتى جثّة ؟ ألم يتيقّن أهل الخلاء ، من قديم الزمان ، أن « مولا – مولا » ليست طائراً ، ولكنها صحراء كبرى تتنكّر في أصغر الأبدان حجماً ، وتستعير جناحين لتفرّ من شرّ الأشرار ، وتأتي الاخيار بالبشائر والنبوآت ؟

فهل اقبلت الآن بالبشارة ؟ هل رفرفت في باب داره لتلقى له بنبوءة ؟

دسّ يده في الجراب ، وأخرج حفنة من حبّات الشعير . لامس الحفنة بشفتيه ، والتقط الحبوب كما يلتقطها الطير من الأرض . هرسها بين اسنانه فطقطق الحَبّ ، وتشوّش السكون . زحف إلى المدخل ، وألقى بالحفنة عند حضيض النّصب . تخلّت عن مكانها المعلّق في الهواء، ولكنها لم تنزل لتلتقط الحَبّ . حطّت على الجلمود العمودي الذي نال حظّاً سخيّاً من فيض العشيّة . حطّت على النّصب الجليل الذي صار لـ «آمغار» وطناً . حطّت على قرن الجّد المدوّن بدم الدّهر ، بدم الأرض ، بالسائل النّبيل الذي تيبّس وصار كنزاً ، بالسلسبيل المبهم الذي عجنه «آكّا» بدم شرايينه ، قبل أن يعجنه بحليب النّوق وبعر البعائر ، ليجد لنفسه ولذريّته في الحجر وطناً . اختارت القرن المزبور بدم الأرض لأن ملّة الأرض لا تنساق إلاّ إلى النّبع الذي انتمى إلى الأرض .

سكنت في الوطن ، وصارت تتنقّل بعينين لعوبتين ، طفوليتين ، بينه وبين العطيّة . رقد على بطنه وانتظر ، شيّعت بصرها إلى السماء ، ثم رمقته بغموض . ابتسم . ابتسم فغنّت . غنّت فجأة . رفعت منقارها إلى الخلاء البعيد فسقطت شعاعات العشيّة على التّاج الناصع الذي يتوّج رأسها . ضاقت العينان ، فازدادتا غموضاً . خذلها الرّكن ، وتخلّى عنها النّتوء ، فاختلّ توازن الساقين ، ولكنها بدّلت موقع الساق اليسرى ، وتشبّثت بنتوء آخر ، فنالت من القرن نصيباً أكبر . لم تتخلّ عن الأفق ،

ولم يلهها فقدان التوازن عن صلاتها الخفيّة . انفرج المنقار الضئيل ، وعلا الصوت الشجيّ . بدأت الحركة من موقع أعلى ، ولم تقلب النّاموس فتنطلق من السكون كما تفعل الصبايا ، فبدا كأن النّغم يتدفّق من أعلى ، ويسقط إلى الأسافل كنداء من السّماء . لم ينتقل من الصوت إلى السكوت ، من النّداء إلى النّجوى ، من ثرثرة النّبع الجبلي إلى هدوء الغدير الأرضي ، من نواح المواجع إلى وشوشة العشّاق ، لأنه لحن لم يحاكِ الحان أهل العشق، ولم يتشبّه بأغاني الاشجان والفجائع ، ولكنه سار في سبيل آخر ، فصار نشيداً خفيّاً : « صَوْ – صَصَوْ – صُووو و وو.. ». تابع الإيقاع . سار مع اللحن . طار في أنين النزع الأخير ، فاختنقت فيه الانفاس ، ولم يعد يعرف عمّا إذا كان يسقط إلى الهاوية ، أم يخترق الأعالي ، أم يسبح في الفضاء على خطّ مستقيم . و .. قبل أن يطلق شهقة تأتيه بالهواء ليستعيد الحياة ، ضرب الوطن شرر ، فانشرح الصدر ، وحلّ في القلب الإلهام : بورو ! بورو ! هذه اغنية بورو ! اغنية القران : « صَوْ – صَصَوَ – صو وو و و .. بم – بَيَمْ – بم – م – م – م – م – م ... » . ارتفع في جوفه صوت . سمع نفسه يغمغم ، ويبرطم :

نك آمان !

نك آلهين!

نك تزولي!

نك آمضال !

نك ، كيونان ، إيلل ! (*)

شهق مرّة أخرى . اختطف من الهواء نصيباً . جحظت العينان . غزتهما حُمرة ، لفظت الشفتان زبداً . احترق الجوف بالنّار .

جاش الصدر إلهاماً ، فاضت في القلب النبوءة . عاد يئن ، ويغمغم ، ويحاول أن يحاكي « مولا – مولا » . يحاول أن يجاري بورو في اغنيته القديمة :

بورو آغزّارام !

بورو إمستغ !

بورو آغرارام !

بورو آبسغ !

بورو آورَا !

(*) أنا ماء !
أنا جان !
أنا معدن !
أنا تراب !
أنا ، أنت ، أيها السراب ! (اغنية بورو : الجزء الأوّل . القسم الأول).

بورو آوَرا ! (*)

طاف مع الأغنية أبعد الاوطان قبل أن يختنق ويفقد القدرة على الغمغمة . أطلق أنيناً فاجعاً ، وتلوّى على التّراب . يرتجف ويحترق بالحمّى . البدن يحترق بأوجاع الحمّى ، والجوف يشتعل بالحنين ، بالشوق ، بالعجز . استمّرت الأغنية تنهمر من وطن الحجر ، فغمغم متوسّلاً . غمغم ليستجدي مهلة . غمغ ليقول للقرين القديم أنه تخلّص بالمدية من اللسان ليكتم السّر ، فأخذ لسانها الغناء ، واختلس سّره إلى الأبد . غمغم ليخبر القرين كم هو موجع أن يتكلّم باللسان من لم يعد في حاجة للكلام ، ويعجز عن الكلام من هو في اشدّ الحاجة إلى الكلام. غمغم ليقول أن الغناء يمسخ كل الكلام أخيراً ليسوي بين كائن لم يعرف غير الأغنية كلاماً ، وبين كائن نحر اللسان تكتّماً على السّر ، ففقد آلة الكلام . فهل يستدعي كتمان السّر الحرمان من الغناء ؟ هل يستحق السّر هذا القربان الجسيم ؟ أم في الكتمان لعنة خفيّة تتضاءل أمامها كل القرابين ؟

(*) بورو ضبّ !
بورو سنوسنوة!
بورو عشبة!
بورو طلحة!
بورو حُوار
بورو حُوار (اغنية بورو : الجزء الأوّل . القسم الأول) .

(٢)

حمله طويلاً ، وعانده كثيراً .

حمله زمن الطفولة ، وتنقّل به بين الصخور . حمله زمن صار فيه صبيّاً ، يحاور الرعاة ، ويخاطب المعتزلة ، ويسائله العابرون ، فيشتدّ الإغواء ، وتزداد المعاناة . حمله زمن آخر استحال فيه شاباًّ ، فتململت العضلة ، وتوثّب الفم في المجالس . هرب . اختار البعد ليدفن فيه الشهوة. توغّل . قطع في الخلاء مسافات بعيدة . صعد أبعد الجبال ، واختفى في ظلمة كهوف خفيّة . في المغاور المجهولة دفن السّرّ . حفر في بطن المغارة النّائية ، وتكلّم فوقها بالسّر . برطم بالألفاظ برطمةً كرطانة الجنّ ، كتمتمة العرّافين عندما يتكلّمون بالتمائم القديمة ، كإخبار الرّيح عندما يسرّ بالنبوءة في فروة الطلح . انتهى ، فستر فمه بكفّه ندماً . أهال عليه التّراب ، وألقم الحفرة غمراً من الرمل . زحف إلى الخارج ، وأتى بلوح حجري له تكوين الماعون . وضع الماعون على المكان مقلوباً ، فرأى القُلاع قبراً ، ورأى القبر ضريحاً مصغّراً في الحجم ، ولكنه مهيب كأنه ضريح من أضرحة السّحرة القدماء . جلب حجارة أخرى ، وكتم بها انفاس القول ليخفي السّر إلى الأبد ، ويستريح إلى الأبد . ولكن الغصّة الغامضة التي خنقته ما أن تحرّكت العضلة بين فكيه،

ونطق بالكلام ، تمادت وازدادت وحشيّة . ظلّت تتمدّد وتكبر وتنتفخ حتى سدّت الحلق ، ومنعت فيه الانفاس . شهق كمخلوق يعاند النزع الأخير ، وفزّ إلى الخارج . هناك كان ينتظره النّبأ . وقف على قمة لوح حجري كشبح الجنّ . يرتدي لثاماً باهتاً ، بائداً ، وجلباباً واسع الأكمام ، شاحب اللون، وسروالاً ممزّق العنق بدّلت الشمس فيه اللّون فوهبته مسحة من كل لون ، فصار بلا لون لأنه نال نصيباً من كل الألوان . اللثام يلتف حول الوجنتين بإحكام ، ويلاحق امتداد الوجه إلى أعلى ، فيستر الأنف ، فلا يبدو من وراء القناع إلا العينين . لم يتبيّن العينين بسبب العتمة ، ولكنه تبيّن الصوت : « إيّاك أن تخاطب بالسّر حتى الجدار في أبعد مغارة ، فيسمعك الطير وينقل الخبر للأغيار » . لم يضف كلمة . استدار ومضى . مضى خطوات واختفى . لم تبتلعه ظلمة المساء ، ولكنه توارى في الهوّة المجاورة . وما أن توارى حتى ادرك ما حدث . قفز كالملدوغ ، وجرى وراء الرسول بسرعة الريح . بلغ الفجّ في قفزتين ، ولكنه لم يدرك الرسول . فصرخ . صرخ بصوت كالرعد : « هل سمعني مولاي ؟ هل سمع مولاي أمراً أخفيته عن نفسي ؟ هل ضاقت الأرض بالسّر ، ونقلته إلى اذن مولاي بعد أن دفنته ؟ يا مولاي .. اجبني مرّة واحدة .. » .

أعاد له الجبل النّداء ، ولكن الرّسول لم يستجب .

(٣)

لم يتأخّر القصاص ، فصرعه الخفاء بالحمّى .

رقد طويلاً وصارع مردة الجنّ ، فصرعوه ، وغلّوه بسلاسل من افظع انواع الحديد . علّقوه في سقف المغارة بالوضع المعكوس ، وسقوه شراباً أمرّ مذاقاً من بول الإبل ، وجرجروه على أرض صخرية قاسية حتى نزف دماً ، ثم تركوه . خرج من المغارة وقد فقد حساب الزمان . أعماه ضياء الشمس فتحايل طويلاً حتى استعاد القدرة على مواجهة الضوء . لم تمضِ أيام على الخروج حتى قابل ذلك العجوز الذي قال له الرعاة أنه من حكماء أهل الاعتزال . كان نحيلاً ، طويل القامة ، يرتدي اسمالاً شبيهة بأسمال الرسول الغامض الذي أصابه بالبلاء ، بل أن شبهما يتعدّى أسمال اللباس ، ويتجاوز أطراف البدن . ولا يعرف لماذا أحسّ برهبة خفيّة عندما وقف في وجهه أول مرّة . كان يقتات الاعشاب أيضاً، ويستخرج من الأرض جذور النبات ، يقضي النهار في المغاور ، ولكنه لا يبيت ليلة إلا في العراء . يميل في مسلكه للسكوت ، ولا يرد على اسئلة العابرين إلاّ إذا قضت الضرورة ، ويتجنّب الاجتماع إلى الرعيان في وديان الجوار ، ويظهر دائماً ظهور الفجاءة ليختفي فُجاءَةً أيضاً . ظهر له كثيراً ، ولكنه لم يكلّمه إلا مرّة واحدة . ظهر فجأة من وراء جلمود بدين ، وسدّد له نظرة طويلة ، غامضة . استولت عليه

الرهبة ولكنه لم يشعر بخوف . هرب ببصره بعيداً فسمعه يقول: « لن يعرف الخلق في حياتهم هناءاً ما لم ينزعوا من ابدانهم عضلتين : عضلة بين الفخذتين ، وعضلة بين الفكّين » . أراد أن يستفهم ، فاستعاد بصره من الخلاء ، ولكنه وجد أن العجوز قد أنصرف . توارى وراء الجلمود البدين ، وعاد من حيث أتى .

في ذلك الوقت لم يقرأ في لوح السّر إلاّ رموزه الأولى . ينتظر الظهيرة فيتسلل إلى ظلمات الكهوف ليحتمي من الظلاّل بالخفاء ، ليتخفّى بالخفاء ، يتلبّس الخفاء ليفهم سّر الخفاء . قطع ، حتى ذلك الوقت ، مشواراً ، وادرك أن الظلاّل الشقيّة لم تكن لتقع في الافخاخ التي نصبها لها « وانتهيط» لو لم تتباه بالتسكّع في الخلاء . وقد رآهم بعينيه يرمون بأنفسهم إلى المهالك ، ويندفعون للوقوع في الكمائن ، كأنهم أُصيبوا بعماء ، فيندهش كيف لم يكتشفوا الخفاء الذي لم يمتلك السلطان على الأرض ، وعلى السماء، وعلى الفراغ الممدود بينهما ، إلاّ عندما تنحّى ، وابتعد ، وسكن الظّلّ ليصير خفاءاً . ثم بدأ يقرأ في اللوح رموزاً أشدّ غموضاً . وعندما رأى ، من مكانه في الخفاء، كيف يتحوّل «آمغار» إلى الحرم ، ويصعد إلى الشعاف ليصير خليفةً للزعيم ، ورأى كيف ينزل الزعيم من الوطن سّراً ليرتدي لباس خصمه القديم ، ويختار الأُتان من بين الانعام لتصبح له مطيّة تمضي به إلى النجوع ليرسم

ناموس الشّر الذي يُراد به خيراً . لم يتمالك نفسه ، فقهقه عاليا ، واستغرق في الضحك يوماً وليلة . ضحك معه الجبل كلّه. ضحك الجبل يوماً وليلة . ضحكت كائنات الجبل أيضاً . سمع الجنّ يضحكون ويقهقهون حتى تزعزع الجبل واندفعت حجارته تتدحرج على السفوح. تنقّل الضحك فوصل الصحراء كلّها . ضحكت الصحراء حتى استنكرت السماء . استنكرت السماء ، ولكنها لم تقدر أن تمنع نفسها من الضحك أيضاً . ضحكت السماء ضحكاً منكراً ، فوجد نفسه يقفز إلى العراء ويصيح بالنّداء : «المِدْية ! المِديّة ! المِدْية!» . ردد الجبل النّداء . ردده الجنّ فزعزعوا الحجارة مرة أخرى. رددته الصحراء، رددته السماء ، فهبط عليه النّداء ، نبوءةً من السماء .

(٤)

قبل أن يجرّ النصل على العضلة ، تربّع أمام الموقد ، وألقى بأكوام الحطب إلى النّار ، ليراقب اللسان . كان يتلوّى بمرونة حيّة ، ويرقص مع الريح بفرح الاطفال ، ويومض بإيماء التّبر ، ويتغنّج بإغواء خفيّ كحسناء لعوب . تمايل مع اللسان ، رقص بفرح الطفل ، استعار في العين وميض التّبر ، تلوّى محاكيا صبايا الرعاة ، انحنى ليعانق قريناً فكافأه القرين بعلامة . في العلامة قرأ النبوءة فذهب في طلب الحيّة . خرجت له من الاسافل بحكمة من ارتضى أن يستوطن الاسافل ، داعبها كما داعب

النّار ، لوّح في وجهها بالعلامة ، فقرأت في اللوح النبوءة . تلوّت في الفراغ كما تلوّت عضلة النّار ، وانفرج الفكّان عن عضلة مشقوقة إلى نصفين ، تلاعبت في الهواء ، وأمأت كثيراً بالنّداء . تلقّى الوصيّة ، فحملها إلى المدية . أومأ لسان المدية تحت الضياء ، ما أن فكّ طلسم الحيّة ، وقرأ الرسالة . أومأ لسان المديّة بوميض التّبر أيضاً ، ولكن الإنسان لم يفهم الإشارة . فأعادت المديه رسم الرمز ، وازدادت رسوم التمائم على النصل غوراً ووضوحاً وغموضاً ، فوضع رأسه بين يديه وحاول أن يفهم لماذا خُلقت كل الألسن شهيّة للنظر . لماذا يتألق في كل الألسن هذا الإغواء المميت . إغواء الشهوة ، إغواء السّر . إغواء الهلاك . إذ لا شيء يمكن أن يتألق بالاغواء إن لم يخفِ في جوفه هلاكاً أكيداً .

والجري وراء السّر هو جري وراء الهلاك . هذا سّر غاب عنه عندما بدأ مسيرة الركض خلف الجدّ . هذا سّر غاب عن بورو قبل أن يذيع سّره . ليس السّر هو قطع أغنية بورو ودسّه في بدن « مولا – مولا » ولكن التسامح مع العضلة بين الفكين هو السبب ، لأن شريعة الخفاء هي التي قضت ، من قديم ، أن تنقطع أغنية كل من عرف للسّر سبيلاً ، سواء أُخذ بما ملكت اليد ، كما حدث مع بورو ، أو أُستدرج بحنين قديم لملاقاة الجدّ ، كما حدث له عندما رأى ما رأى ، وعرف سّر الشّعاف . فكيف لا يرفع لساناً شرهاً ، نهماً بالشهوة ، مشحوناً بالإغواء ،

ليستأصل لساناً شرها ، نهماً بالشهوة ، مشحوناً بالإغواء ؟

(٥)

لم تتركه ساعة .

ظنّ أن الاغنية ستتوقف بحلول الليل ، ولكن الشقيّة ازدادت وجداً ، وغنّت في الليل بصوت أشجى . تصنّت اليل كلّه . تصنّت شطراً ، وهام في الخلاء شطراً . تدلّى في الفراغ قمر . فتنقل على سفوح الشعاف . لاحقته طوال الطريق . تحطّ على الجلاميد على بعد خطوات ، أو تراوح فوق رأسه في الفضاء ، أو تغيب وراء نصب حجري . ولكن الشجن مضى يفيض - فاحترق فيه الجوف ، واشتدّت الرجفة ، ونزف عرقاً ، وضاق الصدر بالحنين . حاول أن يطفئ لسان النّار بالغمغمة ، سار مع الموّال بحبال الحنجرة ، فخرج اللحن ركيكاً ، خشناً ، وذميماً . استولى عليه شقاء ، فعرف . عرف مرّة أخرى لماذا خُلق اللسان . اللسان لم يُخلق للبرطمة بالكلام ، لم يُخلق ليتحرّك يميناً ويساراً بما عُرف ، وكان يجب ألاّ يُعرف ، ولكنه خُلق للغناء . اللسان هو الإنسان إذا غنّى ، لأن الإنسان ليش شيئاً آخر سوى أُغنية . أُغنية . أُغنية ! ترددت النبوءة في صدره .سمعها بأذنيه. سمعها كما يسمع الاغنية من فم بورو .

بل لم يسمعها إلاّ من فم بورو الذي عاش في الصحراء اغنيةً حقيقية . أُغنية حنين . أغنية عشق . أغنية قِران . أغنية حياة . أغنية أبدية. أبدية ..

هبّ واقفاً . تنزّل الإلهام ، وتكشفت في الفراغ النبوءة . استقّر النّداء في القلب ، فأدهشه كيف لم يكتشف النّداء في الاغنية منذ أول ساعة . انطلق يجري . فوق رأسه يتدلّى قرص القمر ، وفي اذنيه تتردّد الأغنية ، وقبس النبوءة يسطع في جوفه كشمس النهار .

(٦)

في ركن الغار بدّل الجلد .

نزع الأسمال قطعة قطعة . نزع اللثام أولاً ، ولكنه لم يستعر رأس السّلف في الحال . نزع الجلباب ثانيا . نزع السروال ثالثاً . نزع الثياب كما ينزع الضّبّ جلده . كما تنزع الحيّة غلالتها . خرج وتمشّى في العراء عاريا . اغتسل بضوء القمر ، وتدفّق في الجوف الغناء كنبع الماء ، فتحمّم الجوف أيضاً ، وتغسّل . فاضت عليه النجوم بضياء سخيّ ، وغمره الريح بنسيم لذيذ . تبّسم . بحث عن بورو في ضوء القمر . أنهمر الصوت بالغناء ، ولكن البدن تخفّى في شقٍّ قريب . عاد إلى الغار. اقترب من الكوم الاشعث . انحنى . تهيّأ للسّفر . امتدت اليد إلى

المتاع راجفة . ادخل القدم أولاً . تخفّى الساق كلّه . تخفّى الساق في بدن الساق ، وغاب الصدر في قفص الصدر ، وشمل الجسد دفء الالتحام . ثم .. بلغ الشعفة ، ورفع فوق الرأس رأساً متوجاً بقرنين معقوفين . تبدّل كل شيء . اختفى الغار ، وغاب القمر . ابتعدت السماء وانطفأت النجوم . تلاشت الشعاف ، وتبدّدت الصحراء . فتمادت الأغنية . صارت الأغنية قمراً مدوّراً ، وسماء صافية ، ونجوماً وديعة ، وشعافاً باديةً ، وصحراء بهيّة . غاب الوجود من الوجود ولم يسترجع سلطانه إلا بالسّر ، بالخفاء ، بالأغنية .

نزل الجبل قفزاً . في القلب شعلة أخرى . في الصدر تسطع نبوءة أخرى . في الأذن تطنّ أغنية أخرى .

بلغ غابة يتجنّبها الرعاة ، ويفرّ من طريقها اصحاب القوافل ، لأنها غابة من حجارة ، تقف المغنيات الساحرات على بابها عسساً ، لينشدن أشجى غناء . ليستدرجن العابرين إلى « آغرم نودادن» . ولكن المغنيات لا يعرفن السّر . المغنيات لا يعرفن أنّ في قلبه تستعر نار أخرى ، وفي الصّدر تسطع نبوءة أخرى ، وفي الأذن تتردّد أغنية أخرى . المغنيات الساحرات لا يعرفن أنهنّ لن يستطيعن أن يستدرجن مخلوقاً يحمل في قلبه لسان النّار ، وتسطع في جوفه النبوءة ، وتصمّ أذنيه اشجى أغنية . المغنيات لا يعرفن أنه يستطيع أن يستدرجهن بأغنيته ،

ولكنهن لن يجدن إلى استدراجه سبيلاً .

لقد بدأ ينزل الدرب الأسفل . بدأ يغيب في غابة الحجارة . ولكن.. لماذا يصعد إلى أعلى إذا كان السبيل يقود إلى اسفل ؟ ولماذا يرى السماء قريبة إلى هذا الحدّ ؟

٤٥- الدَّائِرَة "ج"

« من يضع شكلاً فليضعه مستديراً ، فإنه لا بد من الرياح تزعجه ، فيتدحرج ولا ينكسر ، فالشكل الكروي أبقى »

إبن عربي

« كتاب شقّ الجيب »

* * *

« إذا عرفت الطريق في الصّباح ، في المساء تستطيع أن تموت ».

كونفشيوس

(١)

لو طلعت قبل أن يقطع نصف المسافة لتخلّى عن الطريق ، وعاد على عقبيه . لو طلعت عندما جاور القوس الجبلي الذي يطوّق الشعاف، ويلتف على الحرم من جهة الشمال ، لرجع إلى الطّلحة ، ولرابط هناك لأصحاب القوافل . ولكن الشرّيرة تركته حتى توغّل ، ترصّدته حتى أشرف على « وانتمغارت» فخرجت من مكمنها ، وتصدّت له كأبشع جنيّة . انطلقت من جوف علّيقة كثيفة نالها الظّمأ فشحبت واصفرّت . إنطلقت كسهم أهوج ، واقبلت عليه حتى كادت أن ترتطم بقدميه . فزّ كالملدوغ ، وانتهك السكون بصيحة عالية . ادركت في آخر غمضة، أنها اخطأت السبيل ، فأرادت أن تبدّل الإتّجاه ، فحرثت الرمل بمخالبها مسافة طويلة . ثم انتبهت وانحرفت جنوباً . ركضت مسافة مائة خطوة. ارتقت سيف رملي ، توقفت على رأس السّيف . وقفت على ساقيها الخلفيتين ، وشيّعت الاماميتين في الفضاء . التفتت. تطلعت نحوه كجنيّة حقيقيّة . ثم بدأت تتكلّم بالنّبأ باليدين الاماميتين . رفعتهما إلى وجهها المستطيل . غطّت بهما العينين كأنها تستفظع الرؤيا . تمايلت شرقا وغرباً كأنها تنوح فجيعةً . ناحت طويلاً ، وعندما توقفت ، كان المساء قد اكتمل ، فوجد نفسه ما زال يقف في حضيض السيف ، يحاور

الساحرة، ويرتجف . إنهار أرضاً ، وجاور العلّيق . راقب الفراغ بعينين فارغتين ، ورأى كيف يختنق الأفق ويتمخّض ليبتدع النبوءة .

توسّد العلّيق فأخذه النّعاس . استيقظ مبكّراً فوجد الغبار ينعقد في الفراغ كغيمة كئيبة .

(٢)

توارى الأفق ، واستعارت السماء لوناً آخر . في البداية ، عندما استيقظ ، وجدها تتلوّن بشحوب كالبياض ، ثم تبدّلت فغزاها صفار بلون الرمل . دمدم الرّعد ، واشتعل الفراغ بوميض البروق حتى كاد يصدّق أن مطراً سيسقط . قطع مسافة أخرى مصمّماً أن ينزل الوادي قبل أن ينفلت الغبار . إذا نزل الوادي فسوف يسهل عليه الوصول إلى البئر قبل أن يدركه الرسول . الرعاة حذروه وقالوا له في وصيّتهم أن عليه أن يحترس من إغواء الرمل ، ويتجنّب اختراق السيوف في الوسط. لأنها تحايلت في الماضي ، على خلق كثير ، واستدرجتهم إلى بحرها العظيم فابتلعتهم إلى الأبد . قالوا أن عليه ألاّ يستسلم لسماحة الخلاء الذي يستلقي شرقاً ، لأن التسامح في هذه الرقعة فخّ، كما عليه ألاّ يعوّل على سبل القوافل ، لأن بحر الرمال العظيم كبحر الماء المحيط ، يمحو الأثر في طرفة العين . والخلق عرفوا من قديم أن لا سبيل لعبور بحر الرمال غير السّماء . قالوا ، في الوصية ، أن عليه أن يضع النجم

الأخضر بين عظمتي الكتفين ، ويمضي دائماً إلى الأمام ، محاذراً الاستسلام لإغراء الخلاء الذي يرتمي شرقاً. حاول أن يميل إلى جهة الغرب في سيره طوال اليومين الماضيين . غالب وعوثة التّراب ، وتصدّى له الرّمل بألسنة عدوانية لها قامات الجبال . قاوم مستعيناً بيديه أيضاً . صعد كثيراً مشيا على أربع . في اليوم الثاني تحايل . أجهدته الوعوثة ، وهدّه صعود السيوف الجبلية فمال شرقاً. كانت تعلو من جهة الغرب ، وتتسامح ،وتتحوّل إلى ألسنة وديعة في النهايات الشرقية . صار ينعطف قليلاً نحو الشرق كلّما تمادى السيف وجاءه بقامة الجبل ، ليقف على نهايته ، ثم ينكسر مرّة أخرى ، ويلف ، من الوراء ، ليستعيد المسافة التي قطعها جانباً ، قبل أن يقبل عليه السيف التالي .

لم يكن يدري أنه خالف الوصيّة ، ووقع في نفس الشّرَك الذي حذّره منه الرّعاة، لأن المسافة التي كان يقطعها في كل انعطافة نحو جهة الشرق ، كانت أطول بكثير من المسافةالتي كان يقطعها ليلتف على السيف ، ويعوّض الحيْد ، لأن من يجهل مسلك الرمل يظنّ أن المسافة التي تمتد شرقاً مساوية للمسافة التي تستلقي غرباً ، في حين يعرف أهل الخبرة وحدهم أن المسافة التي يقطعها المسافر عائداً إلى الغرب عند نهاية كل سيف لئيم ، هي مسافة أصغر بكثير من المسافة التي عبرها ليقف على نهاية اللسان.

بهذه الحيلة الصغيرة دأب بحر الرمال العظيم على استدراج ضحاياه ودفعهم إلى التّيه منذ جاء ليغمر الصحراء الوسطى ليقيم فيها بحراً من رمل بدل بحيرة الماء ، فاستغفل كثيرين ظنّوا أنه فاز بلقب « العظيم» بسبب حجمه واتّساع أرضه ، ولكن القدماء يعرفون أن الاوائل اطلقوا عليه هذا الإسم للؤم في طبعه .

(٣)

تدارك خطأً بخطأ آخر .

ظنّ أنه يستطيع أن يتدارك الأمر في مسيرة الأمس . مال إلى جهة الغرب بعد انتهاء حشد السيوف . مال مسافة طويلة . ولكن يبدو أنه فعل ذلك بعد فوات الأوان،فخلّف بئر « وانتمغارت » إلى الوراء . وإذا لم يرد البئر ، إذا لم يتزوّد بالماء من بئر « وانتمغارت» ، فلن يبلغ الحمادة ابداً . قبل أن يتلقىّ أهل الصحراء البئر هديةً من الجنيّة العجوز كان الوصول إلى الحمادة على الاقدام مستحيلاً . العجوز أقامت في الصحراء الوسطى وحيدة بعد أن انكرها ابناؤها من ملّة الخفاء . التقطها عابر سبيل ، فأطعمها وكساها وحملها على ظهر بعيره إلى الواحات . قبل أن تختفي رأت أن تكافئ ابناء الإنس فدلّتهم على الكنز . قالت لهم أن قبائل الجنّ استولت على البئر في نزاع مع قبائل الصحراء دام طويلاً، وهو نبع لا ينضب له سلسبيل ، لأنه يستيعر ينبوعه من البحيرة السّفلى

التي خلقت من العدم «واو الكبرى» قديماً . ابتهج أهل الخلاء وسمّوه «وانتمغارت» (*) تيمّناً بالجنيّة النبيلة . والرعاة هم من وصف له الرّقعة ، فظنّ البارحة أنه ينام على مشارف الوادي . واليوم ، عندما استيقظ ، ووجد السماء تلبس قناع النبوءة ، وجب عليه أن يركن إلى الناموس ، ويتشبّث بالعلّيق حتى يتبدّد الغيم ويتكشّف الأفق . فكيف تدارك الخطأ بالخطأ وانطلق قبل أن تريه الصحراء وجهها ؟ كيف سيبلغ المسافر مكاناً في الصحراء إذا كانت السماء قد هربت من السماء ، والصحراء اختفت من الصحراء ؟

(٤)

اسودّت السماء .

رسمت البروق فوق رأسه إشارات غامضة . قعقعت الدّنيا بالرّعد الكذوب . تنفّست الصحراء بفحيح مخيف . تساقطت الذرّات كقطرات المطر. كحبّات البَرَد. لم تكن ذرّات رمل . ولكنّها حبّات الحصى .

هبّ القبلي ، ففقد ، في الظلمة، حساب الليل والنّهار . صنع من لحاف الكتّان قماطاً للشكوة حتى لا يختلس الصّهد منها الماء ،

(*) «وانتمغارت» : مُلْك العجوز .

واحتضنها بين ذراعيه . سار إلى الأمام . اشتدّ السّواد . ولكنه مضى يتسكع في الظلمات . داهمته موجة عاتية . صفعت وجنتيه بحبّات الحصى ، وملأت فمه غباراً برغم اللثام . حبّات شرسة ، قاسية ، كبيرة مصحوبة بذرّات مقزّزة كهباء الدّقيق . اشتدّ الجفاف في الحلق ، والعماء في العينين . انزل طرف اللثام العلوي فاحتجب البصر . سار بعينين معصوبتين فلم يجد فرقاً في الرؤية . طافت حوله ذيول الغبار ، وتخاطفته في غارات جنونيّة . يدفعه الموج إلى الأمام بقسوة مارد ، ويردّه موج آخر بعنف أقوى . صار الرّيح لا يهب من الجنوب، ولكنه يداور ويلف ويحوم حوله كجند الجنّ . انطلق الفحيح الخفيّ فنال على وجهه صفعة أخرى ، وزعزعه المارد بعنف ليردّه إلى الوراء خطوات . لم يرتدّ فحسب ، ولكنه وجد نفسه في خفّة الريش ، يملأ الهواء جلبابه، ويعلو في الفراغ أشباراً . أصابه فزع لم يعرفه ، وادرك أن القبلي أدهى من كل الغزاة . تقدّم . تقدّم في هاوية الظلام خطوات فهوى . ظنّ في البداية أن العدوّ اختطفه مرّة أخرى ، وشيّعه في الهواء كدُمية من القشّ. لأن الخواء الذي أحسّ به عندما طار في المرّة الاولى ، هو نفس الخواء الذي ملأ جوفه عندما طار في المرّة الثانية . خواء جليل ساقه إلى وطن آخر ليجاور النبع ، ويهوى معه إلى اسفل ، إلى الغمر السّخيّ ، إلى المصب . ولكن لماذا لا يستنير بقبس الحنين ، ولا يرى للأب القديم

وجهاً؟ لماذا لا يرى النبوءة في شباك التجاعيد ، ولا يقول للقطب : «هذا أنا أخيراً » ؟ بل لماذا لا يسقط في الغمر ولا ينال لطمة في الصدر من يد مارد الماء ؟ ولكنه سقط .. سقط أخيراً . سقط حقاً . لم يسقط في الغمر، ولم ينل لطمة تخرجه من اليمّ ، ولم يشاهد في سبيل الهبوط أباً ولا أمّا . شاهد ظلمة أشدّ سواداً من الظلام ، وسقط في يمّ لعوب فيه رخاوة الماء ، برودة الماء ، مرونة الماء ، ولكنه نقيض الماء ، عدوّ الماء ، لأنه يفتقد نُبل الماء .

تمرّغ في الرمل ، وتدحرج ، تدحرج ، تدحرج على السفح اللميس طويلاً جداً . بلغ الحضيض فاستلقى على قفاه وهمد . جاهد وبصق حبّات الرمل . تذكّر الشكوة ففز برغم التعب . فتح عينيه فرأى أن السواد إزداد سواداً ، وفاقت الظلمات ظلمةً أكثر الليالي إظلاماً . نفض التّراب عن اللثام . مسح الرموش بطرف اللثام . اغمض عينيه وأستعاض عنها بيديه . بدأ البحث من الموقع الأسفل . حرث الحضيض بأصابعه . صعد السّفح . فتّش الجبل شبراً شبراً . وكلّما غاصت الأصابع واخترقت الهباء اللّميس ، لتمسك في القبضة هباء ، كلّما ازداد جنوناً ، واشتدّ فيه التصميم . تلمّس طويلاً ، تدحرج مراراً ، تخاطفته الغزوات الجنونية ورمت به إلى الأسافل ، وكان ينهض على ركبتيه ، يزحف على اربع ، يعاند ويتسلق السفح من جديد ، في إتجاه جديد . هدّه التّعب ،

غلبه الظّمأ ، وبدأ ييأس . تذكّر وصيّة الناموس عندما قال أن الفوز لا يكمن إلاّ في الخطوة الصغيرة التي تلي اليأس ، فقام ليقاوم . غاصت قدمه اليسرى في اليمّ اللّميس ، فلامست في الرمل المتنقّل جسماً . انتصب كالمشلول . رجع بجسمه إلى الوراء . دسّ يديه في الغمر اليابس . لم يحفر الأرض . لم يزل تراباً. بل يزح اكوام الرمل . ولكنه استعار حيل الحيّات فدفن كلتا اليدين في التراب ، وتركهما تتلويان في مجاهل الأرض ، وتفتشان الاعماق . لامست اليمنى طرف البدن. انقبضت وشدّته إلى أعلى . تحسّسه باليد اليسرى فتحقق أنه استعاد كنزه . احتضنه في حجْره وبدأ يلهث، ويرتجف ، ويتصبّب بالعرق .رفع فم الشكوة إلى شفتيه فأحسّه بارداً ، ناعماً ، وديعاً . بدأ يفكّ الرباط بيد ويضم الشكوة الى صدره باليد الأخرى . انتهى من فكّ الرباط . تنفّس فخرج النّفس أنيناً . سمع الناموس يتكلّم في فمه بصوت مسموع : «تاتْهت تَساهِين تُوفْ تَاتَهْت إِيميهِينْ، وَرَسينَغْ آهِيسَرْ مَغَنّ أَنّضُوقّتّ»(*).

هجم على الفم ، ورضع بنهم.

(*) « اللقمة التي في احشائي ، افضل من اللقمة التي في فمي ، إذ ما يدريني : أصيب بفزع فأرمي بها أرضاً » .

(٥)

تجرّع الكنز كلّه ، فلم يبق له إلاّ أن يقطع أطول مسافة إلى أي جهة ، لأن التسكع ، بعد نفاذ الماء ، فناء . توقّف القبلي عن المراوغة ، وشنّ الغارات من الجهات الأربع . استوى وهبّ من الجنوب فدفعه إلى الشمال دفعاً . يشدّه من الأكمام الفضفاضة ، ينفخ فيها من انفاسه السخيّة ، ويجرّه إلى الأمام جراً . هرجل ، هرول ، ركض . قطع مسافة طويلة راكضاً دون أن يدري إذا كان طريق الرّيح يقود إلى البئر المجيد ، أم يسلك الحيد ، ويتخطّاه يميناً أم يساراً . ولكن اليقين أن القبلي لا يشنّ غزاوته إلاّ على الشمال . وما عليه إلاّ أن يستسلم له كعشبة بريّة يابسة ، إذا أراد أن يجد نفسه، يوماً في الحمادة .

تدحرج في امواج التّراب ، ترفعه الذيول الهمجيّة عالياً في الهواء فيطير . تسترخي فيهوي أرضاً . تعتدل فيهرول في لسانها ويركض ، تشتدّ بغتة ، فتتخلّى عنه قواه ، ويجد نفسه يسقط أرضاً ويتدحرج ككرة من علّيق .

يفتح عينيه فتمتلئ الحدقتان بالغبار وحبّات الحصى . يغمضهما فلا يجد فرقاً بين ظُلمة العين ، وظُلمة الظُّلمة . سفح ، في هذا العراك ، عرقاً سخيّاً . جفّ اللسان ، ويبس الحلق . ولكن الظّمأ لم يشتد إلاّ بعد وقت طويل ، قدّر أنه ربما استغرق نهاراً كاملاً ، أو ليلة كاملة، وربما

استغرق جزءاً من النهار ، وجزءاً من الليل .

(٦)

خَارَ ، ترنّح .وقع .

أحكم اللثام حول الوجنتين ، وانكفأ على الوجه . أحاط رأسه بذراعيه ، انكمش حول نفسه كقنفذ ، وتكوّم في العراء . إنهمرت من السماء حبّات الحصى ، وصفعه الرّيح بذرّات كالسهام ، ولكنه لم يحسّ. أغار بعنف جديد فاستسلم للموج ، وتدحرج كقنفذ ، كعشبة يابسة ، ككرة علّيق . هدأت الهجمة فثبت الكوم فوق وجه العراء . سمع الماء يندلق من الدّلو ، ويبرطم في الجابية بلغة يعرفها ، ولكنه لا يفهمها . اندلق من علوّ ، وطار في الهواء كماء النّبع المعلّق في الجبل ، لأنه لا بد أن يتحمّم بشعاعات الضوء ، ويغتسل جيداً ، قبل أن ينزل إلى اسفل ، ويعود إلى الهاوية التي خرج منها . التحم بالضّوء . التحما ، صارا جسماً واحداً ، لا يعرف أحد عما إذا كان ذلك الجسم المدهش حبّة ماء ، أم نقطة ضوء . تبدّد الجسم في الفراغ ، واكتسب ، في الهواء، قريناً جديداً . صار الهواء والماء والضياء كُلاً واحداً ، واتّحدوا في بدن واحد ، فلم يعرف أحد عما إذا كان ذلك البدن البهيج حبّة الماء، أم نقطة الضياء ، أم نفحة الهواء . صار الأقران وهجاً غامضاً ما لبث أن تلاشى وغاب . ولكنه غاب في الفضاء ليولد في الجوف .

تلاشى في السماء ليعود من طريق الأعماق ، لأن الماء والهواء والضياء قرين تلاحم ليدرك أن السّر في التلاشي . ليدرك أن الجسم كائن ككل كائن ، إذا لم يتبدّد لا يظهر ، وإذا لم يذهب الى الخفاء لا يعود إلى الخلاء ، وإذا لم يفنَ لا يولد من جديد . ثرثرت دفقة جديدة، وأنهالت على صلد الجابية ، تشظّى البدن الذي لا لون له ولا رائحة ولا مذاق إلى الف الف حبيبة ، تناثرت الحبيبات في الفراغ فهرع الضوء يهبها لوناً من لونه ، واحتضنها الهواء ليعطيها رائحةً من شذاه ، ومذاقاً ، مجهولاً لانه كان عطيّة من المجهول .

تلوّى حنيناً ، واطلق انيناً موجعاً . انتظر أن يسمع حنحنة الإبل ، أو نداءات الرعاة ، أو همهمة أصحاب القوافل ، ولكنه لم يسمع غير صياح الريح وهو يندفع ليغزو الخلاء . الرعاة قالوا أن قبائل أهل الخفاء ما زالت ترد البئر بقطعان إبلها إلى اليوم . فهل ساقته الريح ليهجع فوق فم البئر ؟. نهض على ركبتيه . فتح عينيه فغزتهما الظلمة وغمرهما التّراب . اغمضهما . زحف يتلمس العراء . حرث الأرض حتى غلبه النعاس.

(٧)

استيقظ فوجده يتربّع فوق رأسه .

يرتدي اللباس الازرق ، ويضع العصا المطّوقة بالحلقات النحاسيّة .

يُنزل طرف اللثام العلوي فيسقط إلى الاسفل حتى يكاد يحجب عينيه . تصنّت فلم يسمع العدوّ وهو يمزّق الفراغ بغلّ القبائل الهمجيّة . بل .. بل سمع نقيضه . سمع الأغنية الخالدة التي لا تعرف إلى لحونها سبيلاً إلاّ شفة السكون . سمع الأغنية التي لا تتبيّن فيها الأذن كلمة واحدة ، ويعجز اللسان عن الدندنة محاكاةً لها ، ولا تقدر الحنجرة أن تقلّد لها سياقاً أو لحناً . الأغنية الخفية التي لولاها لما عرف أحد أن الصحراء هي الصحراء . ابتهج للأغنية حتى انه نسى الظّمأ .

اعتدل في جلسته . تكلم فسمع صوتاً غريباً ليس صوته :

– أنا ظمآن !

اشار العابر إلى الشكوة . تنقّلت سبّابته بين الاطواق النحاسية النائمة في حجره قبل أن يقول :

– لقد وضعت لك فيها جرعة صغيرة ، ولكنها كافية لمن أراد أن يدرك الوطن.

وجد الشكوة ترقد إلى جواره . اختطفها وبدأ يرضع . رضع بنهم أشدّ من نهم المرّة الأخيرة . شرب حتى هزُلت الشكوة ، فحذّره الضيف :

– لا تطمع في المزيد ، فاحترس !

توقف وتعلّق بالضيف . سأل :

– ظننت أني رأيتك قبل اليوم ، غير أنّي لا ادري عما إذا كان ذلك في المنام ، أم في اليقظة .

– وهل ترى فرقاً بين المنام وبين اليقظة ؟

– ظننت أن هناك فرق . اعترف لمولاي بأني كنت أرى أن الفرق بينهما كبير .

– أما زلت ترى ذلك؟

– الحق أقول : بدأ يلاحقني شكٌ ، وإن كنت لا أعرف متى بدأ هذا الشكّ يلاحقني .

– لقد بدأت تفهم . لقد بدأت تحيا ..

– أحيا ؟ ولكن انتظر : ألم تقابلني في ليلة من ليالي الحمادة ، وتلوّح في وجهي بالتميمة عندما سألتك هل سأجد ناقتي الضائعة ؟

– وهل صدقت نبوءتي بشأن النّاقة ؟

– الحق أنّي ذهبت لرجل أعرفه في الواحة وصنع لي التميمة من النحاس تصديقاً منّي للنبوءة ، استطيع أن أريك التميمة لأني ما زلت احتفظ بها معلقة في عنقي....

ادخل يده تحت الثياب ، وأخرج من رقبة الجلباب التقاطع النحاسي المطوّق بدائرة صارمة . كان مشدوداً إلى الرقبة بخيط من الجلد ، فلمعت اطراف الدائرة في ضوء قمر وليد . أضاف :

- لقد علّقتها مع تمائم السّحرة ، ولكن التمائم نالها الزمان ، وسقطت بالتقادم ، فقيل لي أن تميمة النحاس لا تسقط بالتقادم.

- تميمتي هي التميمة الوحيدة في كل الصحراء التي لا يطمع الزمان في أن ينالها بسوء .

- ولكن النّاقة ، يا مولاي ، ضاعت ..

- أخشى أنّك أخطأت قراءة النبوءة .

- هل أخطأتُ حقّاً ؟

- إذا سُلبت منك في قربان فلن يعني هذا أبداً ضياعاً !

- هل يعلم مولاي بأمر القربان أيضاً ؟

- إنّي بكل شيئ عليم .

تبادلا نظرات غامضة في عتمة القمر الوليد . قال العابر :

– أعلم أين دفن الأخ أخاه !

– ماذا يقول مولاي ؟

– أعلم أيضاً أن الأخ لا بد أن يدفن أخاه يوماً . لأن لا سبيل لقرين إلى قرين إلاّ في الخفاء الذي يسمّيه البلهاء موتاً . وانت دفنته في التراب مرّتين لأنّك احببته كما لم تحب أمّك وأباك .

– لم أحب أحداً أبداً كما أحببت الأب !

– هذا ما تراه أنت . ولكن ليس كل ما يظهر لعياننا نستطيع أن نجزم بأننا نراه ، وأنا أعلم منك بمن أحببت حقاً . بورو ! إسمع هذا الإسم العجيب مرّة أخرى : بوروا بورو ! هل تستطيع أن تسمع الإسم دون أن يبكي قلبك دماً وشوقاً لصاحب الإسم ؟

كان جبارين يتمايل ويبكي . يبكي ويردّد كالأبله :« اسكت ! اسكت ! اسكت» . قبض من التّراب حفنة ، ورمى بها في وجه الجليس.

(٨)

الحمادة ! الحمادة ! الحمادة !

استوت الأرض وانطلقت تجري نحو الجهات الأربع . ارتفعت

إلى اعلى حتى اقتربت من السّماء . إستعارت منها النجوم ، وفرشتها على صدرها حجارة . صنعت من الافق طوقاً مزموماً . وصلّت لممالك الشمال فقاسمتها الممالك مما ملكت ، وارسلت لها سحب المطر . اغتسلت بالضّوء ، وتحمّمت بالمطر ، بعد الضوء ، ففاحت بعطر الرّتم ، وانجبت من جوفها الترفاس .

في الحمادة فقط تتنازل السماء ، وتنزل إلى العراء كل ليلة ، لتقترن بخلاء صارم، ولكنه ينافس السّماء حُسْناً . فالمكان ، كل مكان ، هو وطن ، ولكن أرض المهد هو الوطن الاوّل ، والحمادة هي الفردوس، لأنها وطن المهد .

سقط أرضاً ما أن ارتفع . سقط أرضاً ما أن علت الصحراء ، وسارت نحو السماء . سقط أرضاً لأنه ادرك أن الأرض لا ترتفع إلى أعلى لتستعير النجوم حجارة إلاّ إذا تسامحت ، وسكنت ، وصنعت لنفسها من الأفق طوقاً مزموماً ، فصارت حمادة ! ركع وتمرّغ وسقاها بدمع سخيّ . سقاها بالدّمع ، لأنه جاءها ظامئاً . أفقده العطش صوابه فتجرّد من الثياب كلّها ،وأقبل عليها عارياً تماماً كما جاءت به إلى الدّنيا يوماً . قبّل التّراب كثيراً . تمسّح بالحجارة كأنها أضرحة الاسلاف . قبّل التّراب ،وفتح شفتين متشققتين ، متيبستين ، وقضم بأسنانه طيناً . مضغ الطين وفتّه بأسنانه . تحسّسه بلسانه الظاّمئ إلى النداوة . إعتصر كل

خلية في الجسد ، واستحلب الرطوبة من جدران الفم. لا يعرف عما إذا كان سائلاً قد إنجبس من عرق مّا ، ولكن خذْراً لذيذاً استحوذ عليه ، فتمايل منتشياً . سار مسافة أخرى دون أن يشعر . اشتدّ الشعور بالنشوة فجلس أرضاً . هجع في كوم من الحجارة فتلقفته السماء . أين الصرامة القديمة ؟ أين البُعد القديم؟ أين اللامبالاة الأبدية ؟ كانت صافية ، ساكنة، بشوشة ، .. وقريبة .

كانت قريبة جداً . في مكانٍ مّا تبدّى قبس فاتن بلون السماء نفسها . اقترب . اقترب . في القبس ظهرت قامة ماردة ، اقدامها تلامس ارض الحمادة ، ورأسها يغيب في السّماء . ككلّ مرّة لم يستطع أن يتبيّن الوجه القديم . الوجه الذي يعرف أنه لم يعش ، ولم يدب ، ولم يطلب ، إلا ليراه . لم ير ملامح الوجه ، ولكنه رأى اليدين النحيلتين ، المكسوّتين بطبقة خشنة كحراشف الضّب . هتف بصوت كالإبتهال : « أبي ! هذا أنا أخيراً !».

(٩)

من جهة الجنوب ، في فراغ تلألأ فيه نجم أخضر ، انفصل عن السماء شبح ، واقبل على الخلاء . نزل يجرّ ذيلاً ملوّنا ، وهبط بجوار كوم الحجارة .

من جهة الغرب أقبل شبح آخر ، انفصل الفراغ عن الفراغ ، واقبل على الخلاء يجرّ ذيلاً طويلاً ، وهبط بجوار مرداة ضبّ تقف فوق ضريح الحجارة كشاهد القبر .

وقف الشبحان مواجهة . أحدهما أطول قامة ، وثانيهما أقصر قامة ، وإن كان أكثر بدانة . تكلّم الأخير :

– آوزلوإيكنا ؟ (*)

رفع الاطول قامة يديه إلى أعلى . صلبهما في تقاطع . تكلّم:

– إيكنا !

– تاغرا تملالاي ؟

– تملالاي .

سكت الشبح البدين قليلاً تكلّم :

– ديماغ آرمّي ؟ (**)

(*) هل قُضي الأمر ؟
– قُضي .
– هل قلب الأمر ؟
– قُلب.
(**) والآن ، إلى متى ؟

– ميّسّانَنْ؟(*)

سكت مرّة أخرى تكلّم :

– ما هيدكنّع آدي . آر آهل أيًّنْ آدي ؟ (**)

– آر آهل أيّن (***)

رسم الشبح التقاطع بيديه فوق البدن العاري المسجى في كوم الحجارة . انحنى وانتزع من الرقبة تميمة من النحاس ، تستعير من العلامة التقاطع ، وتستمد من الافق المحيط الاستدارة .

غاب الشبحان ، فرسم الذيلان تقاطعاً في الفراغ المعلّق فوق الجسد العاري المطوق بكوم الحجارة .

(١٠)

ارتفعت الشمس فخرج من الجُحر ليتدفأ بشعاع الصّبح . اعتلى النّصب المطلّ على المدفن القديم ، فأبصر البدن المكوّم داخل كوم الحجارة . توثّب وتأهب للفرار .

التصق بالمرداة حتى تلبّس الحجر وصار معه جسداً واحداً . توقّع

(*) من يدري ؟

(**) ماذا أقول لك ؟ لا أجد ما يُقال إلاّ : الوداع !.

(***) الوداع ! .

العدوان فتهيأ للفرار قفزاً إلى الجحر . ولكن الجسد المخيف ظلّ ساكنا كقطعة حجر . نزل من المرداة بحذر . اقترب من الضريح الذي أقامه الأخ يوماً ليدفن أخاه ، فكتب له القدر ، بعراكهما ، النجاة ، وافلت من الشّرك الذي نصبه مخلوق لايمل التباهي بعقله . أحكم في ذنبه حبلاً أكله الزمان ، برغم أن الطوق حول الذنب ما زال باقيا .

هاهو الإنسان الذي اخرجه من الجُحر بمكيدة العقل يهجع في الحفرة التي حفرها لأخيه بيديه ، مطوّقاً بالحجارة ، فتنتصب المرداة فوق رأسه كشاهد القبر .

تأمّل البدن طويلاً . طاف حول الضريح ، ثم عاد إلى النّصب . اعتلى المرداة ، لاصق الحجر، تعلّقت عيناه بالأفق الصارم كقوس مزموم.

انهمر على ظهره شعاع الشروق بسخاء ، ففاضت عيناه بوميض كالدّموع .

تون – هونيباخ (سويسرا)

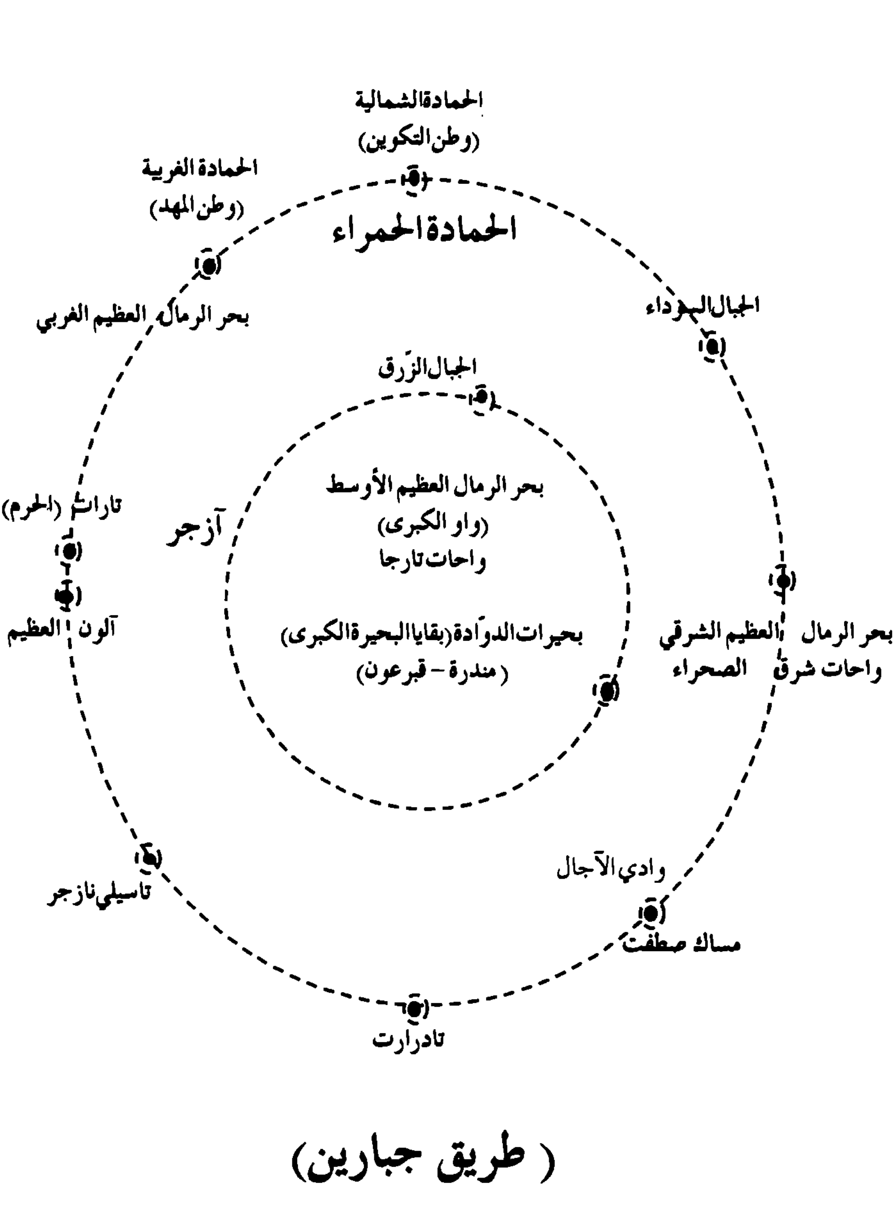
١٩٩٤م

٤٦ ـ الحريق (ملحق)

« دور يمضي ودور يجيء ، والأرض قائمة إلى الأبد . والشمس تشرق، والشمس تغرب وتسرع إلى موضعها حيث تشرق . الريح تذهب إلى الجنوب ، وتدور إلى الشمال . تذهب دائرةً دوراناً وإلى مداراتها ترجع الرّيح . كل الانهار تجري الى البحر ، والبحر ليس بملآن . إلى المكان الذي جرت منه الأنهار ، إلى هناك تذهب راجعةً . كل الكلام يقصُر . لا يستطيع الإنسان أن يُخبر بالكلّ . العين لا تشبع من النظر ، والأذن لا تمتلئ من السمع . ما كان فهو ما يكون ، والذي صُنع فهو الذي يُصنع ، فليس تحت الشمس جديد . إن وُجد شيء يُقال عنه انظر ! هذا جديد . فهو منذ زمان كان في الدّهور التي كانت قبلنا . ليس ذكرٌ للأوّلين ، والآخرون أيضاً الذين سيكونون لا يكون لهم ذكرٌ عند الّذين يكونون بعدهم » .

سفر الجامعة

(٤:١١)


الحمادة الشمالية
(وطن التكوين)
الحمادة الغربية
(وطن المهد)
الحمادة الحمراء
بحر الرمال العظيم الغربي
الجبال السوداء
الجبال الزرق
بحر الرمال العظيم الأوسط
(واو الكبرى)
واحات تارجا
تاراث (الحرم)
آزجر
آلون العظيم
بحيرات الدوّادة (بقايا البحيرة الكبرى)
(مندرة – قبرعون)
بحر الرمال العظيم الشرقي
واحات شرق الصحراء
وادي الآجال
مساك صطفت
تاسيلي نازجر
تادرارت

(طريق جبارين)

فهرس الجزء الثاني

الصفحة

مؤلفات إبراهيم الكوني

١ - الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة (قصص) ١٩٧٤ م.

٢ - جرعة من دم (قصص) ١٩٨٣ م.

٣ - شجرة الرّتم (قصص) ١٩٨٦ م.

رباعية الخسوف ١٩٨٩ م . (طبعة ثانية) .

٤ - البئر (رواية)

٥ - الواحة (رواية) .

٦ - اخبار الطوفان الثاني (رواية).

٧ - نداء الوقواق (رواية) .

٨ - التّبر (رواية) ١٩٩٠ م . (طبعة ثالثة) .

٩ - نزيف الحجر (رواية) ١٩٩٠م (طبعة ثالثة) .

١٠ - القفص (قصص) ١٩٩٠م (طبعة ثالثة).

١١ - المجوس (رواية في جزئين) (طبعة ثانية) .

١٢ - ديوان النثر البّري (قصص) ١٩٩١ .

١٣ - الوقائع المفقودة من سيرة المجوس (قصص) ١٩٩٢ .

١٤ - خريف الدرويش (رواية - قصص - أساطير) ١٩٩٤ .

١٥ - السّحرة (رواية) الجزء الأوّل ١٩٩٤ .

١٦ - السّحرة (رواية) الجزء الثاني ١٩٩٤ .



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
الغلاف ولوحة الغلاف الأمامي: حسني رضوان / عن فن ما قبل التاريخ
الغلاف الخلفي والرسوم والتنفيذ الداخلية: زهير أبو شايب